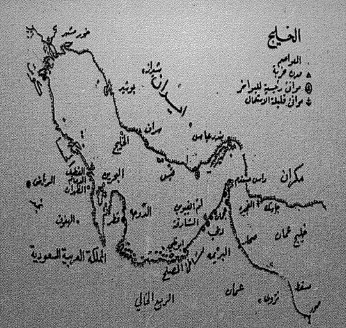
علاقات الدول الأوروبية
بمنطقة الخليج العربي

في الفترة من ١٥٨٠م إلى ١٦٤٠م



نصر الدين عبد الحميد نصر



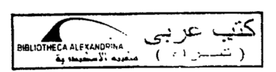
علاقات الدول الأوروبية بمنطقة الخليج العربى

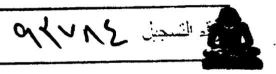
فى الفترة من ١٥٨٠م إلى ١٦٤٠م



إعداد

نصر الدين عبد الحميد نصر





الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

نصر، نصر الدين عبد الحميد .
علاقات الدول الأوروبية بمنطقة الخليج العربى الفترة من ١٥٨٠ إلى ١٦٤٠/ إعداد نصر الدين عبد الحميد نصر. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
١٨٤ ص ؛ ١٧ سم
تدمك ٠ ٥٥٩ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ أوروبا ـ العلاقات الخارجية ـ الخليج العربى .
٢ ـ الخليج العربى ـ العلاقات الخارجية ـ أوروبا .
(أ) ـ العنوان ٥٣٦٧ .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٣٠٠/ ٢٠٠٧

I.S.B.N 977 - 419 - 559- 0

ديوى ٣٢٧,٤٠

الإخـــراج الفنـــى

عـمـر حـمـاد على

ـ تصدير ـ

تركزت أكثر الدراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث على القرنين التاسع عشر والعشرين بدوافع خاصة وفى مقدمتها الأغراض السياسية، بينما كانت الدراسات محددة للقرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد يرجع ذلك إلى صعوبة الاطلاع على المراجع الأصلية لهذه الفترة فبعضها مخطوطات قديمة يصعب قراءة الكثير منها.

وعندما أدركت من أستاذى الدكتور صلاح العقاد أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، والذى شرفنى بإشرافه على رسالتى للماجستير عام ١٩٨١ بعنوان «مصر وحركة الجامعة الإسلامية» والتى تم طبعها بالهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٤م[1] بأن هناك فترة متروكة من الباحثين عن تاريخ الخليج العربى وهى الفترة من ١٥٨٠[2] إلى ١٦٤٠م، ووصفها بعض رجال أساتذة التاريخ بأنها فترة ميتة وجدت أن هذا الوصف قد مثل لى حافزاً لإحيائها إن استطعت بتشجيع من أستاذى الدكتور عبدالعزيز نوار عميد كلية الآداب جامعة عين شمس، وزاد إصرارى على إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود رغم المعاناة التى عانيتها فى الحصول على المراجع والمصادر.

وقد اعتمد فى هذه الدراسة على، مصادر متنوعة، منها الكتب والدوريات والوثائق والمخطوطات والدراسات باللغات العربية والفارسية والتركية والإنجليزية والبرتغالية المنشورة وغير المنشورة ولقد ساعدتنى فى إتمام البحث وجود بعض المراجع المهمة فى المركز الثقافى البريطانى بمسقط بسلطنة عمان

فترة وجودى للعمل مدرسًا للتاريخ بالكلية المتوسطة من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٦م وكذلك مكتبة الكلية ومكتبات أخرى عديدة بمسقط، وكذلك المركز البريطانى بالقاهرة حيث وجد كثير من هذه المراجع، وفى مكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس وبدار الكتب المصرية ومكتبة جامعة عين شمس ودار الوثائق بالقلعة[٣].

وهى فترة تتميز بحدة الصراع الأوروبى للسيطرة على البحار الشرقية ومن بينها الخليج، وهى فترة سيطر فيها البرتغاليون على الخليج والوجود البرتغالى هو نقطة البداية فى الصراع الدولى[٤] فى هذه المنطقة.

وقد اعتمدت فى هذه الدراسة على مصادر متنوعة، منها الكتب والدوريات والوثائق والمخطوطات والدراسات باللغات العربية والفارسية والتركية والإنجليزية والبرتغالية المنشورة وغير المنشورة.

أما الوثائق المنشورة فمنها مجموعة

Selection From starte papers. Bombny,s comexion with persian Gulf 1800 -- 1600 وقد اختار هذه المجموعة سلدانها saldanha I. A من الوثائق البريطانية وحوليات الرحالة، وانتقى رسائل متنوعة تتعلق جميعها بتاريخ منطقة الخليج خاصة فى هذه الفترة ومابعدها.

ومجموعة مراجع بسفارة إيران بالقاهرة تضم كتبًا ومجلات تشتمل على رسائل متبادلة بين حكام المنطقة وملك البرتغال فى لشبونة ونائب الملك فى الهند فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ومكتوبة باللغات العربية - الفارسية - التركية - وغيرها.

ومجموعة أخرى فى الأرشيف البرتغالى تضم أربع مجموعات وثائقية:

١- الوثاق العربية المتعلقة بتاريخ البرتغال.

Documentos anabicos para a historia pcrtugesa

٢- وثائق صومعة جراسا.

Documentos de convento Graca

٣ـ الوثائق الشرقية.

A - Dacumentos Griendais

B - Dartado vice Reis de, Indis

وقد نشر هذه الوثائق المتخصصة فى تاريخ منطقة الخليج من الإيرانيين ومنهم الدكتور جلهانكير قائم مقام، وهى مصدر مهم لتاريخ الخليج خلال فترة البحث.

وهناك وثائق ودراسات ومخطوطات تعمل وزارة التراث القوامى فى سلطنة عمان على نشرها وقد رجعنا إلى الكثير منها.

ومن أهم المصادر العربية المعاصرة كتاب السالمى «الأعيان بسيرة آل عمان»، و«تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين» بالإضافة إلى مخطوطة الصوافى، «مخطوطة السلوة فى أخبار كلوه».

مقدمة

الفصل الأول: ـ علاقة البرتغاليين بالقوى المحلية.

١ـ التواجد البرتغالى فى الخليج وأثره الدولى والمحلى.

٢ـ الغزو البرتغالى والمقاومة العربية فى البحر الأحمر.

٣ـ العلاقة الحبشية البرتغالية فى البحر الأحمر.

٤ـ المقاومة المملوكية اليمنية للبرتغاليين فى المياه العربية والدولية.

الفصل الثانى: ـ علاقة الدولة العثمانية بالبرتغاليين فى الخليج.

١ـ الدولة العثمانية ومحاولة تأمين البحار العربية.

٢ـ علاقة أسرة الأفرسياب فى البصرة بالبرتغاليين والقوى الأخرى فى المنطقة.

الفصل الثالث: ـ علاقة الدولة الصفوية وهرمز بالبرتغاليين فى الخليج.

١ـ الدولة الصفوية وعلاقتها بالبرتغاليين فى الخليج.

٢ـ هرمز بين التواجد البرتغالى والتحرير.

الفصـــل الرابـع:ـ علاقة عمان بالبرتغاليين.

١ـ عمان بين الخلافات الداخلية والأخطار الخارجية.

٢ـ علاقة عمان بالبرتغاليين فى عهد اليعارية.

٣ـ الصلات العمانية مع الفرس والإنجليز.

٤ـ التواجد العربى البرتغالى فى شرق إفريقيا.

الفصل الخامس :ـ الاحتكارات التجارية والتنافس الدولى فى الخليج.

١ـ العلاقات الإنجليزية فى منطقة الخليج.

٢ـ التواجد الهولندى بمنطقة الخليج.

٣ـ العلاقات الفرنسية بمنطقة الخليج.

٤ـ الصراع الدولى فى الخليج.

خاتمة:

انهيار الإمبراطورية البرتغالية الإسبانية فى الخليج.

نصر الدين عبد الحميد نصر
ماجستير تاريخ حديث ومعاصر
عام ١٩٨١ جيد جداً
باحث بجامعة عين شمس

مقدمة

إن القرن السادس عشر ومنذ بدايته قد فرض نفسه على العلاقات التى قامت بين البرتغاليين والسكان المحليين فى منطقة الخليج العربى. ولنا أن نقول إن نهاية هذا القرن نفسه قد شهدت بداية انهيار الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق فقد فقدت البرتغال استقلالها وأصبح عرشها تابعًا للعرش الإسبانى، ومن هنا أصبح الشعور الوطنى للبرتغاليين يشوبه إحساس بأنهم أصبحوا أمة تابعة لا متبعة وخاصة من سنة ١٥٨٠م إلى سنة ١٦٤٠م حيث أهملت ممتلكاتهم فى الشرق، إذ كان الاهتمام الإسبانى يتجه إلى العالم الجديد وإن احتفظ البرتغاليون بمنصب نائب الملك فى الهند ولكن شتان بين أن يكون الملك نفسه فى لشبونة برتغاليًا حرصًا على أملاكه فى الشرق وبين أن يكون مرجع نائب الملك فى الهند إلى ملك إسبانيا فى مدريد والذى لاتعنيه المصالح البرتغالية بالدرجة الأولى، ولقد فرض القرن السادس عشر على العلاقات البرتغالية مع الخليج العربى إيجابيات وسلبيات، ومن أهم الإيجابيات استمرارية احتفاظ منطقة الخليج كممر للتجارة الدولية وكخط دفاع أول عن المستعمرات الهندية، ومن أهم السلبيات استمرار تبعية المنطقة للوجود الأوروبى فيها والاعتماد فيها فى كثير من الأحيان للمساندة فى الصراعات المحلية أو الدولية على السواء.

ويشغل الخليج العربى مكانًا ذا أهمية متميزة فى العالم القديم فهو أحد البحار الداخلية التى تتميز بها تلك المنطقة الممتدة بين أطراف آسيا وإفريقيا وأوروبا.

وكانت خطوط المواصلات الدولية فى ذلك الوقت والمنافسة لطريق الخليج العربى هى: ـ

١ ـ طريق البحر الأحمر ـ السويس ـ طريق إيران ـ طريق بحر قزوين ـ البحر الأسود.

٢ ـ الدوران حول إفريقيا من نهاية القرن الخامس عشر.

٣ ـ طريق آسيا الوسطى عبر بحر قزوين ونهر الفولجا[٥] وإذا ذكر الخليج العربى ذكر معه البحر الأحمر والبحر الأسود والبحر المتوسط[٦]. ويعرف القسم الجنوبى باسم خليج عمان[٧] والذى ينتهى بمنطقة هرمز ويشع بعد ذلك مكونًا الخليج العربى[٨] وقد وجد تنافس بين طريق الخليج والبحر الأحمر، ورغم قصر المسافة البرية فى طريق البحر الأحمر، إلا أن طريق الخليج كان منفصلاً عنه[٩]؛ لأن البحر الأحمر فيه كثير من الشعاب المرجانية التى تعوق الملاحة بالإضافة إلى جذب لحياة الطبيعة.

وكان طريق البحر الأحمر يفضل طريقه الخليج العربى من حيث قصر المسافة، إذ كانت صعوبة فى طريقة الخليج العربى تتمثل فى المرحلة البرية القاسية، التى كانت تقطعها قوافل التجارة من أعالى دجلة والفرات إلى حلب ومنها إلى موانئ البحر البحر المتوسط، وإلى جانب ذلك فإن الملاحة فى الخليج العربى كانت تتعرض لأخطار القرصنة التى اشتهرت بها القبائل العربية والفارسية التى تسكن سواحله، فضلاً عن شدة الحرارة وسوء الأحوال الصحية فى أجزاء كثيرة منه، ومع ذلك فقد أصبح الخليج العربى منافسًا خطيرًا لطريقه البحر الأحمر حتى بلغت تجارته مع الهند فى العصور الحديثة ثلاثة أضعاف تجارة البحر الأحمر فى بعض الأحيان، وكان يستخدم طريق الخليج العربى فى الأوقات التى كانت تحول الصعوبات السياسية أثناءها دون استخدام الطريق الآخر ولهذا كان يستخدم الخليج عندما كانت الدولة العثمانية لاتسمح للسفن التجارية الأجنبية بالملاحة إلى الشمال من جدة لقد مثل التواجد البرتغالى فى منطقة الخليج بداية طبيعية لمهد الأطماع الأوروبية، بالإضافة إلى تحويل طريق

الشرق التقليدى إلى طريق رأس الرجاء الصالح، مما حرم بلدان وشعوب المنطقة مصدرًا أساسيًا من مصادر الثروة [١٠] ، وبالرغم من فقر الخليج فهو يتمتع بموقع استراتيجى مهم فيما كان يعتبر قديمًا خطًا من خطوط المواصلات الدولية التى كانت تنتقل عن طريقها الأفكار والمصالح التجارية فيما بين حضارات ما قبل العصر الحديث [١١] وكانت الحركة التجارية فى الخليج تفوق أهميتها ما كان يجود به من موارد أخرى وما كانت تجود به الأرض على جانبيه من غلال زراعية وثروات طبيعية، ومن هنا اكتسب الخليج أهمية كطريق تجارى بحرى فى المحل الأول [١٢]. ونتيجة لهذا الازدهار التجارى بين الشرق والغرب، عادت الأرباح الطائلة على المدن الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية، التى كانت تقوم بدور الوسيط الأوروبى فى النشاط التجارى، مما كان له أثر عظيم فى تحسين أحوال تلك المدن، وظهور بوادر النهضة الأوروبية فيها[١٣] ولكن ثراء المدن الإيطالية كان قد آن له الزوال بحلول عصر جديد، هو عصر الكشوف الجغرافية الذى حمل معه أول بذور الاستعمار الحديث، وقد ساعدت العوامل الجغرافية وظروف البيئة الطبيعية أوروبا الغربية للقيام بالكشوف الجغرافية.

وقد ساعد موقع البرتغال على قيامها بمخاطرة الاستكشاف جنوبًا، حيث كان من أهداف البرتغاليين محاولة الالتفاف حول العالم العربى والإسلامى، وفى الوقت نفسه إنهاء سيطرة المسلمين على زمام الحركة التجارية بين أوروبا وآسيا[١٤]، وقد نجحت البرتغال فى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م، ثم وصول فاسكو دى جاما إلى كاليكوت فى الهند، مما أنهى عصر تجارة المدن الإيطالية [١٥] وقد تولد عن الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج مرحلة جديدة من تاريخ الشرق العربى وهى المرحلة التى يمكن أن تطلق عليها مرحلة التوسع الأوروبى الأول، وهى المرحلة التى تمتد من وصول البرتغاليين إلى بحار الشرق فى أواخر القرن الخامس عشر، حتى استطاعت بريطانيا تدعيم نفوذها فى تلك البحار منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر [١٦] ، واستكمالا للسيطرة على الطريق التجارى الجديد قرر عمانويل الأول ملك البرتغال، إحلال عدن وهرمز وملقا. ومن ثم فقد أرسل فرانسسكوا والميدا سنة ١٥٠٥م إلى

الهند ، وعينه حاكمًا للمستعمرات البرتغالية فيها، وفى سنة ١٥٠٦ هزم البرتغاليون أسطولاً عربيًا تركيًا، أرسل لمقاومتهم فى المياه الهندية مما أكد سيطرتهم على بحار الشرق. ويقول بعض الباحثين إن وصول البرتغاليين إلى الهند بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح قد قضى نهائيًا على الطرق البحرية التقليدية (طريق البحر الأحمر والخليج) التى كانت تمر بها تجارة الشرق فى طريقها إلى أوروبا. فإننا نؤيد الرأى القائل باستمرارية تدفق البضائع من وإلى الخليج العربى والبحر الأحمر وعدم انقطاعها بعد هذا الاكتشاف. ومع اعترافنا بانتهاء العصر الذهبى وانتهاء الفترة المجيدة فى تاريخ الخليج (١٧)، حتى اكتشاف النفط حديثًا، فإننا نرى احتفاظ الخليج بطابعه العربى إلى الآن (١٨)، ولكن أحدثت حركة الكشوف الجغرافية البحرية البرتغالية فى مطلع العصور الحديثة تغيرات جذرية فى الأوضاع القائمة فى البحار الشرقية بوجه عام، وفى منطقة الخليج والبحر الأحمر بوجه خاص، إذ نجح البرتغاليون فى الوصول بحرًا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلادى، كما نجح فى احتكار التجارة الشرقية بعد وصولهم إلى الهند وقد أدى تحول طريق التجارة العالمية إلى الطريق البحرى المباشر الجديد إلى حرمان العرب من مصدر أساسى من مصادر ثروتهم، مما أحدث هزة عنيفة فى بنائهم الاقتصادى وأدى بالتالى إلى إحداث انهيار فى أنظمتهم السياسية القائمة حين ذاك(١٩) ولابد أن نعترف أنه لايصح لنا إنكار جهود من سبقنا من الباحثين والمتخصصين والدارسين بمنطقة الخليج العربى، ولكن يصح لنا القول إننا قد تطرقنا لفترة قد أهملنا أكثر هؤلاء، وتلك الفترة (١٥٨٠ ـ ١٦٤٠) التى يوجد فيها التاج البرتغالى الإسبانى قد امتدت لتشهد تدهور الإمبراطورية البرتغالية ثم انهيارها فى النهاية، وتعتبر الكشوف الجغرافية بداية طبيعية للتواجد البرتغالى فى منطقة الخليج وقد وفر روادها كل الأدوات التى حققت لهم ذلك وتشمل الخبرة البحرية والملاحية وحب المغامرة، والخرائط والبوصلة، فضلاً عن الواعز الدينى والتعصب الأعمى، ضد الإسلام والمسلمين الذين خرجوا منذ قليل من شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال)،

والذين انتشر تواجدهم فى كل من قبرص ومالطة وإيطاليا حتى أبواب باريس وغيرها من مناطق البلقان والبلغار والمجر والجمهوريات الإسلامية السوفيتية والهند، وقد وجهت جهود هؤلاء لمتابعة المسلمين العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية على وجه الخصوص وأيضًا لاحتكار تجارة الشرق التى سيطر عليها تجار البندقية فى أوروبا لعلاقاتهم الوطيدة مع التجار المسلمين، ومن أهم أنواع هذه التجارة، التوابل المستخدمة فى حفظ اللحوم المتعددة والخمور وكذلك الحرير الفارسى فضلاً عن تصريف المنتجات الأوروبية فى تلك البلاد الشرقية[٢٠].

البداية رحلات فاسكو دى جاما وماتبعتها من رحلات أخرى أكدت السيطرة البرتغالية البحرية على هذا الطريق الذى عرف بطريق رأس الرجاء الصالح - حول قارة إفريقيا بما فيه من موانئ ومدن ومحطات ومراكز يتطلب الأمر الاحتفاظ بها فأصبحت منطقة الخليج محطة مهمة للأسطول البرتغالى لتأمين الطريق إلى شبه القارة الهندية واحتكار التجارة منه وإليه. وتعتبر أول نتيجة لهذه الكشوف الجغرافية بداية التغير لتاريخ منطقة الخليج العربى فمن هدوء واستقرار ورخاء وازدهار إلى صراع وأطماع أوروبية استعمارية وتحول لطريق التجارة التقليدى إلى طريق جديد فقدت دول المنطقة مصادرها من التجارة وجماركها وعمران موانئها ومصادر ثروتها مما أدى إلى اختفاء مدن كانت ملء الأسماع مثل مدينة سيراف وهرمز[٢١] وقد لعب الخليج العربى دورًا مؤثرًا فى التجارة الدولية للنشاط البحرى لنصف الكرة الشرقى غير أن ذلك العصر الذهبى أسدل ستائره على بلاده منذ ظهور البرتغالية فى المياه العربية والدولية فى سنة ١٥٠٧، وإن كانت بعض موانئ الخليج لم تفقد أهميتها البحرية والتجارية وازدهارها حتى منتصف القرن التاسع عشر واحتفظت هذه الموانئ بمراكزها الإقليمية لنقل السلع وتوزيعها بين سكان شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا، بل بين البحر الأحمر والمحيط الهندى، وقد كانت عدن ومسقط خلال المرحلة التى أعقبت الغزو البرتغالى فى طليعة المدن والموانئ التى مثلت أهمية تجارية وسياسية باعتبارها محطات تجارية وبحرية مما أبرز أهميته دول المنطقة وحقوقها وأصبحت الوريث الطبيعى عبر مئات السنين[٢٢].

إن منطقة الخليج العربى تربط شبه القارة الهندية بالشرق الأوسط وفارس والجزيرة العربية وشرق وجنوب آسيا بشرق إفريقيا بل والخطوط الملاحية الدولية بين هذه المناطق وأوروبا وأمريكا الجنوبية والشمالية.

لقد فتح البرتغاليون باكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح الباب على مصراعيه لأطماع الدول الأوروبية فى خيرات الشرق ومنطقة الخليج العربى على وجه الخصوص فعانت بلاده القهر والغزو والتنكيل، وقد أصاب العمانيين الكثير من الألم خلال تلك الفترة التى شهدت التواجد البرتغالى فى منطقة الخليج، بل إن هذه المنطقة فقدت المصدر الأساسى من مصادر الثروة، ذلك المصدر الذى صنع مدنًا تجارية مزدهرة مثل مدينة سيراف، ودولاً ذات ثراء ومكان كرولد هرمز[٢٣] ، وأصبحت موانئ الخليج ومدنه محطات مهمة للأسطول فى الوقت نفسه الذى فقدت فيه أهميتها كمراكز لتجارة المرور أو الترانزيت لتحل محلها مدن ومناطق أخرى فى البصرة وفارس وشرق إفريقيا والهند، لقد فتح التواجد البرتغالى فى الخليج ميدانًا جديدًا لبقايا الصراع الصليبى بين الغرب والشرق وتأهبت الدول الإسلامية الكبرى - فى ذلك الوقت الدولة العثمانية - فارس ودولة المغول بالهند لتدافع عن مصالحها وتصد ذلك الغزو الأوروبى إلا أن هذه الدول لم تستطع أن تقوم بدور فعال فى سواحل شبه الجزيرة العربية وخاصة فى الخليج.

حيث كان انتقال الأسطول العثمانى من القواعد فى البحر المتوسط أمر صعب فى ظل الإمكانات الفنية المتوفرة فى ذلك الوقت ومن هنا نشعر بالعبء الذى قامت دولة اليصاربة فى تاريخ هذا الصراع.

إن هذا العهد المبكر من الوجود الأوروبى فى منطقة المحيط الهندى كان ولايزال مقصورًا على النشاط التجارى المحُصى الذى يستهدف نقل منتجات الشرق إلى أوروبا، ولم تظهر فى ذلك الوقت أطماع تلك الإمبراطوريات الشاسعة التى تدير مساحات كبيرة من آسيا وإفريقيا وتحتلها عسكريًا وهو ماسيحدث فى القرن التاسع عشر، إذ عندما تجتمع سيطرة بريطانيا على الهند مثلاً يتحول الخليج إلى خط دفاع أمامى عن هذه المستعمرة الكبرى[٢٤]، وبالتالى سيحدث

نوع من الاحتكاك المباشر بين عرب الخليج وبين القوى الخارجية، أما فى عهد اليعارية فكان الاحتكاك أن يقتصر على الاشتباكات المسلحة مع البرتغاليين وبعض اتصالات متقطعة مع القوى البحرية الأخرى ولاسيما الإنجليز والهولنديين ولقد بكرت مصر فى مد يد المساعدة لدول الخليج، فرغم أنها دخلت منذ قليل ضمن أملاك الدولة العثمانية سنة ١٥١٧م نجدها ترسل حملة سنة ١٥٥٠م ضمت ٣٠ سفينة شراعية كبيرة بهدف إنقاذ مسقط وتحمل جيشًا عدده ١٧ ألف رجل[٢٥]، وكانت الحملة البحرية المصرية العثمانية بقيادة بيرى ريس باشا وقد وصف وندل فيلبس هذه الشخصية بقوله: كان هذا القائد البحرى أول عثمانى يصنع الخرائط وأعد كتبًا عن الرحلات البحرية تضم خريطتين إحداهما تبين سواحل البحر المتوسط قدمها للسلطان سليم وأخرى تقدمت على أساس خرائط استخدمها كلومبس، ونصف المحيط الأطلنطى بما فيه من سواحل أمريكية والسواحل الغربية والأوروبية والإفريقية وتظهر أسماء الأماكن وهذه الخريطة بإيطاليا، وقد ظلت أعمال بيرى ريس الجغرافية يحتفظ بها سرا بالقصر الإمبراطورى الذى لم تذع محتويات كتبه إلا فى عام ١٩٢٩م.

قصف بيرى ريس (بيريك) قلاع مسقط لمدة ١٨ يومًا مما أقنع البرتغاليين بقيادة الكابتن جراودا بالاستسلام واعدًا إياه بالإبقاء على حياته، وبعد حمله ورجاله الستين فى السفينة الشراعية نفذ القتل والذبح فى المرضى والجرحى مما كان سببًا فى قطع رأس بيريك نفسه فى العام التالى بأوامر من الباب العالى لتجاوزه التعليمات، وكانت هذه الحملة استجابة لطلب من سلطان كجرات بهدف مقاومة البرتغاليين بحكم التضامن الإسلامى.

وقد استجابت الدولة العثمانية كذلك لحاكم هرمز (شرف الدين) عندما استنجد بوالى بغداد لمهاجمة البرتغاليين مغريًا إياه بقلة عدد الحامية البرتغالية وأن معظمهم من الجنود الهندوس فوصلت قوة إسلامية أخرى سنة ١٥٤٦ أمام مسقط وضربت الحصون البرتغالية ولكنها كانت قوة محدودة لم تتمكن من البقاء مدة طويلة. وحدث ذلك مرة ثالثة عندما استنجد أهل القطيف بالعثمانيين الذين أرسلوا حملة شنت هجومًا خاطفًا انسحبوا بعده إلا أن البرتغاليين دمروا

الميناء ردًا على ذلك، وبينما كانت الدولة العثمانية فى صراع على البرتغال والإسبان نجد الدولة الصفوية الفارسية تتحالف معهم وتسمح لهم بإقامة وكالة تجارية على الساحل الإيرانى، وهنا يقول الأستاذ الدكتور صلاح العقاد فى بحث قدم لوزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان ضمن حصاد ندوة الدراسات العمانية فى نوفمبر ١٩٨٠ مجلد ٤ بعنوان «دور العرب والفرس فى مكافحة الاستعمار البرتغالى فى الخليج» بينما قاوم العرب البرتغاليين بالكفاح المسلح استندت إيران فى مقاومتها لهم بالمخالفات الأجنبية(٣٦).

وقد كان التداخل فى العلاقات بين العرب والفرس أمرًا عاديًا على سواحل الخليج وجزره باستقرار قبائل عربية على الساحل الشرقى والغربى كما كان يصطحب الإيرانيون جنودًا يتحدثون العربية فى غزواتهم للسواحل العربية، وعندما نشأ الصراع المذهبى بين العثمانيين والصفويين سنة وشيعة ضاعت على القوى الإسلامية فرص التصدى للغزو البرتغالى، ومع ذلك توجد محاولات للمقاومة الفارسية للبرتغاليين؛ إذ أن الشاه إسماعيل الصفوى حاول دفع حاكم هرمز على الثورة ضد البرتغاليين بعد أن وعده بالمساعدة إلا أن الشاه عاد للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين وتجاهل المصالح العليا للمسلمين فى سبيل تحقيق أهداف خاصة، بل عقد اتفاقية معهم تنص على: -

١ - مساندة البحرية البرتغالية القوات الإيرانية فى الاستيلاء على البحرين والقطيف (الإحساء).

٢ - يتعهد البرتغاليون بمساندة الشاه فى القضاء على الحركات الانفصالية التى قامت فى إقليم مكران.

٣ - قيام تحالف عسكرى بين الطرفين ضد الدولة العثمانية.

٤ - إعادة توران شاه إلى هرمز نائبًا عن الملك البرتغالى عمانويل.

وقد نشأت علاقة الدولة العثمانية بمنطقة الخليج وقيادتهم للمقاومة ضد البرتغاليين فى وقت انشغلت فيه الدولة العثمانية بالحروب فى أوروبا والصراع المرير مع شارل الخامس ملك إسبانيا وإمبراطور النمسا، بينما كان الصفويون

يبحثون عن محالفة البرتغاليين وعن تحالف آخر فى عهد طهماسب بقصد الحصول على معونات فنية من إمبراطور النمسا فى مقابل التعاون معه ضد الدولة العثمانية.

ويقول الأستاذ الدكتور صلاح العقاد عن الدور العثمانى فى المرجع السابق[٣٧] «وقد توفرت لدى الدولة العثمانية الرغبة فى مواجهة الغزو البرتغالى للخليج كما فعلت بالنسبة للغزو الإسبانى لبلاد الإسلام فى شمال إفريقيا.

غير أن إمكانات الدولة العثمانية البحرية فى المحيط الهندى كانت أضعف من قدراتهم فى حوض البحر الأبيض المتوسط، لذلك اقتصر نشاطهم على حملات مؤقتة لاتستهدف الاستقرار بل بعض هذه الحملات كان يقودها مغامرون مثلما كان الحال للبحار بريك أو الريس مراد وكلاهما اشتهرا بمغامرات ضد البرتغاليين فى الخليج.

نصر الدين عبد الحميد نصر

الهوامش

(١) تم الطبع على نفقة الدولة.

(٢) Dannis; : op cit., p. 161. فى هذا العام ١٥٨٠م استولى «فيليب الثانى» ملك إسبانيا على عرش البرتغال بعد وفاة ملكها «هنرى» وانقراض الذكور من بيت الملك البرتغالى»

(3) Dannis: op. cit., 161

(٤) وثائق الفترة العثمانية.

(5) Andrew, W.p.: The Euphraresrally - Railway, Lerrers انظر
Addressed to her Maje sty.s secretaries of state for foreign affairs and for India - pp. 20, 21

(٦) التى تحيط بسواحله، والصعوبات السياسية، والتى كانت لاتسمح للسفينة التجارية الأجنبية بالملاحة إلى الشمال من جدة حتى لاتقترب من الأماكن المقدسة للمسلمين فى مكة والمدينة المنورة (١) روبرت جيرلاند عمان مسيرًا ومصيرًا ص ١٥.

(٧) أحمد عزت عبد الكريم ـ تقديم كتاب للدكتور صلاح العقاد ـ الاستعمار فى الخليج ـ الفارسى، القاهرة ص ١.

(٨) سعيد نوفل ـ الخليج العربى ص ٢٥٣.

(٩) عبد الرحيم عبد الرحمن. الدولة السعودية الأولى ص ٢٥٧.

انظر رسالة دكتوراه، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ لفاروق عثمان أباظة.

جمال زكريا: الخليج العربى، دراسات لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ص ٤٢.

(١٠) العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٩.

(١١) روبرت: عمان مسيراً مصيرا ص ١٤ ـ ١٥

(١٢) محمد متولى: حوض الخليج العربى ج٢ ص٤٦٢.

(١٣) «عبد الفتاح إبراهيم» على طريق الهند» بغداد سنة ١٩٣٥ ص ٦٣.

(١٤) جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، القارة سنة ١٩٦٨.

(١٥) عبد الفتاح إبراهيم ـ المرجع السابق ص ٢٢.

(١٦) جمال زكريا قاسم الخليج العربى ١٥٠٧ ـ ١٨٤٠ ص ١٠.

(١٧) رويرت جيرلاند: عمان مسيراً ومصيراً ص ١٨ ـ ١٩.

(١٨) جمال زكريا: الخليج العربى ص.

(١٩) لقد اتجهت الكشوف الجغرافية بهدف اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند فكانت... انظر قدرى قلعجى ـ دفاعه عن عروبة الخليج.

(٢٠) فاروق عثمان أباظة ـ رسالة دكتوراه ـ عن السياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ ص ١٦.

(٢١) صلاح العقاد (د) الخليج العربى التيارات السياسية ص٩.

(٢٢) رويرت جيرلاند، عمان مسيرًا ومصيرًا منذ ١٨٥٦، ترجمة سمير أمين ـ المطبعة الشرقية ـ سلطنة عمان.

(٢٣) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج ص٩.

(٢٤) وإن كانت البرتغال قد حققت ذلك بالفعل؟.

(٢٥) تاريخ عمان. وندل فيليب. ترجمة محمد بن عبد الله ـ طبع سجل العرب سنة ١٩٨١، وزارة التراث القومى ـ سلطنة عمان.

(٢٦) صلاح العقاد ـ دور العرب والفرس. حصاد ندوة الدراسات العمانية وزارة التراث العمانية.

(٢٧) صلاح العقاد: دور العرب والفرس، مرجع سابق.

الفصل الأول

علاقة البرتغاليين بالقوى المحلية

١ - التواجد البرتغالى فى الخليج وأثره الدولى والمحلى.

٢ - الغزو البرتغالى والمقاومة العربية فى البحر الأحمر.

٣ - المقاومة المملوكية اليمنية للبرتغاليين فى المياه العربية والدولية.

٤ - العلاقة الحبشية البرتغالية فى البحر الأحمر.

١ - التواجد البرتغالى فى الخليج وأثره الدولى والمحلى:-

عاشت منطقة الخليج العربى عصرًا ذهبيًا فى الملاحة والتجارة خلال الفترة التى سبقت مجيء البرتغاليين إليها سنة ١٥٠٧، ثم فقدت أهميتها التجارية بتحويل التجارة إلى الطريق البحرى حول إفريقيا إلى موانئ الأطلنطى فى غرب أوروبا إذ انتقلت منطقة الخليج العربى إلى مرحلة من التدهور والانكماش منذ بداية العصور الحديثة مما أثر على أجزاء العالم العربى الأخرى وبصفة خاصة تلك الأقطار العربية التى كانت تمر من خلالها تجارة الشرق.

وقد أتى الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى بمرحلة جديدة من تاريخ الشرق العربى وهى مرحلة تمتد من وصول البرتغاليين فى أواخر القرن الخامس عشر حتى استطاعت بريطانيا تدعيم نفوذها فى تلك المناطق منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر فكانت مرحلة التوسع الأوروبى الأول حيث لم تترك للبرتغاليين وحدهم تجارة الشرق.

وإنما نافس البرتغاليون العديد من القوى الأوروبية الأخرى «إنجلترا - هولندا - فرنسا» والتى حرصت كل واحدة منها على الحصول على مراكز تجارية لها على طول الطرق البحرية الموصلة إلى مناطق نفوذها فى الشرق [١].

ولاتتوقف أهمية هذه المرحلة على تنافس القوى الأوروبية فيما بينها فحسب وإنما على جهود القوى الإسلامية والعربية للتخلص من نفوذ البرتغاليين واحتكارهم التجارى.[٢]

ويشغل الخليج العربى مكانًا ذا أهمية متميزة فى العالم القديم فهو أحد البحار الداخلية التى تتميز بها تلك المنطقة الممتدة بين أطراف آسيا وأوروبا وإفريقيا (٣) ، وإذا ذكر الخليج العربى ذكر معه البحر الأحمر والبحر الأسود والبحر المتوسط، ويعرف القسم الجنوبى منه باسم خليج عمان، الذى ينتهى بمضيق هرمز، ويتسع بعد ذلك مكونًا الخليج العربى (٤) ، وقد وجد التنافس بين طريقى الخليج والبحر الأحمر، رغم قصر المسافة البرية فى طريق البحر الأحمر، إلا أن طريق الخليج كان مفضلاً عنه؛ لأن البحر الأحمر فيه الكثير من الشعاب المرجانية التى تعوق الملاحة، بالإضافة إلى جذب الحياة الطبيعية التى تحيط بسواحله، والصعوبات السياسية، عندما كان لايسمح للسفن التجارية والأجنبية بالملاحة إلى الشمال من جدة حتى لاتقترب من الأماكن الإسلامية المقدسة (٥).

وكانت الحركة التجارية فى مياه الخليج تفوق فى أهميتها ما كان يجود به من سمك ولؤلؤ، وما كانت تجود به الأرض الممتدة على جانبيه من غلات زراعية ومن هنا اكتسب الخليج أهمية كطريق تجارى بحرى فى المحل الأول(٦) ، ونتيجة لهذا الازدهار التجارى بين الشرق والغرب عادت الأرباح الطائلة على المدن الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية، التى كانت تقوم بدور الوسيط الأوروبى فى هذا النشاط التجارى، مما كان له أثر عظيم فى تحسين أحوال تلك المدن وظهور بوادر النهضة الأوروبية فيها (٧) ولكن ثراء المدن الإيطالية، كان قد آن له الزوال بحلول عصر جديد، هو عصر الكشوف الجغرافية الذى حمل معه أول بذور الاستعمار الحديث، وقد ساعدت العوامل الجغرافية وظروف البيئة الطبيعية أوروبا الغربية للقيام بالكشوف الجغرافية. وقد ساعد موقع البرتغال على قيامها بمخاطرة الاستكشاف جنوبًا (٨).

وقد كان من أهداف البرتغاليين محاولة الالتفاف حول العالم العربى (٩) وذلك لإنهاء سيطرة المسلمين على تيار الحركة التجارية بين أوروبا وآسيا (١٠)، وقد غلفت أهدافها بنزعة كاثوليكية ومسحة صليبية(١١) ، وقد نجحت البرتغال فى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م، وبعد ذلك نجح فاسكودى

جامعا في العام في الوصول إلى كالبكوت في الهند، وأدى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند على هذا النحو، إلى تغيرات كبيرة. فقد أنهى عصير تجارة المدن الإيطالية (١٢) عن طريق رأس الرجاء الصالح.

كما شكل في الوقت نفسه البداية الأولى للاستعمار الأوروبي الحديث(١٣).

قرر إيمانويل الأول ملك البرتغال استكمال سيطرة البرتغال على الطريق التجاري الجديد (طريق رأس الرجاء الصالح) أن يحتل عدن وهرمز وملق، ومن ثم فقد أرسل فرانسيسكو دالميدا سنة ١٥٠٥ إلى الهند وعينه حاكمًا للمستعمرات البرتغالية فيها.

وفي سنة ١٥٠٦ م هزم البرتغاليون أسطولاً عربيًا تركيًا، أرسل لمقاومتهم في المياه الهندية، مما أكد سيطرتهم على بحار الشرق (١٤) ، وفي سنة ١٥٠٦ التي تعتبر سنة التحول في طبيعة حركة الاستعمار الأوروبي إلى جنوب آسيا بإبحار ألفونسو دي البوكيرك ليتسلم منصبه الجديد كنائب لملك البرتغال في الهند فكانت غايته ومهمته الأولى تأمين المواصلات البحرية من العرب فاحتل نقطتين لهما أهمية استراتيجية كبيرة. هما سوقطرة وهرمز (١٥) والأخيرة ذات أهمية خاصة لأنه باستيلاء البوكيرك عليها سوف يحكم سيطرته على الخليج ، لذلك هاجمها وأجبر حاكمها على أن يصبح تابعًا لملك البرتغال وأن يدفع له الجزية السنوية، وأن تكون للبضائع البرتغالية مكان الصدارة في بلاده (١٦)، ويعد ذلك تمكن البرتغاليون من احتلال مسقط وصحار والقطيف. حيث شيدوا الحصون والقلاع، وتمثلت القسوة والوحشية في شخص البوكيرك فقد جدع الأنوف والآذان لكثير ممن وقع في يده من أسرى المسلمين بل والمسيحيين الشرقيين ولم يضع أي اعتبار لحياة البشر أو ممتلكاتهم؛ فبالرغم من أن مسقط أعلنت استعدادها لتصبح موالية للبرتغال فقد دمر كل السفن الموجودة في مينائها وأحرق المدينة ومسجدها (١٧)، ويعد أن سيطر البوكيرك على مدخل الخليج العربي باستيلائه على هرمز أراد السيطرة على مدخل البحر الأحمر بالاستيلاء على عدن.

لذا قاد أسطولاً برتغاليًا سنة ١٥١٣ لمهاجمة عدن، وعندما أخفق فى ذلك الهجوم . اكتفى فيما بعد بفرض الرقابة على مدخل البحر الأحمر بين طرفى رأس الفرتك ورأس جردوفى [١٨]، وأرسل البرتغاليون حملة لغزو البحرين سنة ١٥١٥ وقد كانت البحرين تابعة لهرمز فى ذلك الوقت، فنزلوا بالقرب من المنامة وأقاموا هناك حصنًا وانتهى عملهم عند هذا الحد، إذ لم يفكروا فى استغلال مصايد اللؤلؤ ، بل اكتفوا بتحصيل الجزية من الأهالى، تحت تهديد الحصون التى أقاموها على الشواطئ وجزر الخليج[١٩] قصد البرتغاليون من وراء السيطرة على مداخل الخليج والبحر الأحمر إلى تحويل التجارة بين الهند وأوروبا، حتى تنقل بواسطتهمْ من وكالاتهم التجارية المنشأة على السواحل الهندية والعربية إلى العاصمة [٢٠] وبذلك يتم حرمان العرب من الأرباح التى كانوا يجنونها نتيجة لقيامهم بدور الوسيط فى التجارة بين الغرب والشرق.

وكان طبيعيًا أن يكون هناك رد فعل من القوى السياسية [٢١] التى تأثرت من وصول البرتغاليين إلى بحار الشرق، وتحويلهم طرق التجارة عن طريقها التقليدى، فقامت تدافع عن مصالحها الاقتصادية. وتمثلت تلك القوى فى المماليك ثم العثمانيين فى مصر ، والمدن الإيطالية التجارية، والدولة الصفوية فى فارس والمقاطعات الهندية وتمثل أول رد فعل، فى الأسطول الذى جهزه السلطان المملوكى فى مصر، قنصوة الغورى والذى ساعده فى تجهيز بعض المدن الإيطالية، التى تأثرت من وصول البرتغاليين إلى بحار الشرق. وكان قد تم الاتفاق مع حاكم كوجرات الهندى ، على أن ينضم أسطوله وأساطيل الحكام المحليين فى الهند إلى الأسطول المملوكى [٢٢]، وأبحر الأسطول المملوكى تحت قيادة حسين الكردى، قاصدًا مهاجمة البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى، وفى اشتباك بحرى بالقرب من شاول Chaul جنوب بومباى فى الهند سنة ١٨٠٥ أجبر الأسطول المملوكى السفن البرتغالية على الفرار، ولكن عند رجوعه وعودته اشتبك مع البرتغاليين فى معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩، وفيها انتصر البرتغاليون على المماليك [٢٣] ، وعندما آل الأمر إلى العثمانيين فى مصر، قام السلطان العثمانى بمحاولة طرد البرتغاليين من المياه الشرقية. فاتصل

بالزامورين فى كالبكوت وملك ماكاى، وهما حاكمان هنديان تأثرت مصالحهما بوصول البرتغاليين إلى الشرق، وتم الاتفاق على القيام بعمل مشترك ضد البرتغاليين. ونتيجة لذلك أصدر السلطان العثمانى أوامره إلى والى مصر بإعداد حملة بحرية للذهاب إلى الهند ووصول الأسطول إلى المحيط الهندى فى سنة ١٥٣٨.

ولكنه لم يتمكن من الاتصال بأسطول الزامورين، فعاد إلى مصر دون أن ينجح فى تحقيق أهدافه (٢٤) .

١ ـ وكذلك نجد الدولة الصفوية، التى كانت تركز قوتها فى شمال البلاد، بعيدًا عن منطقة الخليج ومشغولة بالحرب مع الدولة العثمانية، نتيجة للخلاف المذهبى بين الدولتين قد فقدت المساهمة أو مجرد المحاولة فى تلك الفترة لمقاومة البرتغاليين، وكان الخلاف بينها وبين العثمانيين لأتباع الأولى المذهب الشيعى والثانية المذهب السنى، بل إنها بدلاً من أن تسهم كدولة إسلامية فى مقاومة البرتغاليين حاولت التحالف معهم ضد العثمانيين(٢٥) وكانت القوى المحلية على الشاطئ العربى للخليج ، فقد كانت فى تلك الفترة خالية من أية قوة يمكنها مقاومة البرتغاليين، بل إن أماكن كثيرة فيه قد تعرضت لغزوات من الخارج.

وكانت مملكة هرمز تسيطر على أجزاء كبيرة فى بداية القرن ١٦ الميلادى(٢٦) ولكن لم يكن هذا استسلامًا من هذه القوى للبرتغاليين.

فلقد ثار أهل هرمز والبحرين وصحار ومسقط وقريات. بقيادة شيخ هرمز على البرتغاليين وهاجموها سنة ١٥٢٢.

وكان هذا الهجوم مفاجأة للبرتغاليين، الذين خسروا أرواحا كثيرة نتيجة للهجوم عليهم.

وسرعان ما وصل أسطول برتغالى من الهند ومر بصحار واستعاد هرمز مرة أخرى ومع ذلك لم تتوقف ثورات كثيرة من الأقاليم الأخرى ضد البرتغاليين المتصفين بالوحشية والقسوة (٢٧).

وأسس البرتغاليون إمبراطورية فى منطقة المحيط الهندى، كانت ذات أهداف تجارية وسياسية.

٢ ـ فقد أنشأوا قواعد فى قريات ومسقط وقيلات وصحار، إلا أن الاستعمار الإستيطانى لم يكن داخلاً فى حساباتهم وربما يرجع ذلك أساسًا لقسوة المناخ فى هذه المناطق ولكن لم يمنع ذلك إيجادهم لقواعد تكون مرفأ آمنًا، ومركزًا للتصدير ولجمع الضرائب، بل كانت نظرة البرتغاليين إلى السكان المحليين على أنهم مصدر للعمل والدخل أقلية منهم الخضوع والاستسلام وإلا فالقمع والحرق للجميع.

وقد اتصف البرتغاليين بالاستقلال والاحتكار التجارى وأصبح طابع إمبراطوريتهم فى الشرق وكان ذلك من سماتها المتميزة (٢٨).

وقد واجهت البرتغاليين بلا شك صعوبات كثيرة؛ إذ أنه لفرض سيطرة احتكارية تجارية على منطقة شاسعة كالمحيط الهندى من المهام الصعبة على دولة ذات إمكانات محددة كالبرتغال التى آلت ذاتها فيما بعد ومن عام ١٨٥٠ إلى ١٦٤٠ إلى الحكم الإسبانى. وكان نتيجة لهذه التبعية أن أهملت مصالح البرتغاليين (٢٩) ابتداءً من سنة ١٥٨٠ بوطرأ ضعف تدريجى على قوتها الاستعمارية، وظلت سياستها الخارجية فى فترة تبعيتها لإسبانيا تصرفها كما تشـــاء (٣٠) فقد كانت إسبانيا تتجه باهتمامها فى ذلك الوقت إلى العالم الجديد(٣١) مما كان له الأثر على الوجود البرتغالى فى الشرق، بالإضافة إلى تلك الفترة كانت تمثل هزيمة أسطولها الإمارامادا فى عام ١٥٨٨م (٣٢).

وكذلك تغيرت الظروف البرتغالية فى الشرق إذ لم تلبث أن وصلت إلى البحار الشرقية سفن أوروبية أخرى وذلك باقتراب القرن السادس عشر من الانتهاء، وقد أبت الدول الأوروبية إلا لتتقاسم فوائد التجارة الشرقية، فقد ظهر الهولنديون فى المياه الشرقية فى نهاية القرن، وصار الإنجليز على نهجهم (٣٣)، وصادف ذلك وجود الشاه عباس الكبير على عرش فارس، والذى كان يعتبر معاديًا للبرتغاليين.

ونلاحظ أنه لم يكن خضوع البرتغال لإسبانيا، وتعرضها لمنافسة الدول الأوروبية الأخرى، سببًا وحيدًا فى انحلال الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق، ولكن كانت سياسة الاستغلال والاحتكار التى اتبعتها البرتغال من ناحية، وفشلها فى كسب تأييد السكان المحليين لها، بل وإثارتها كراهية الشعوب لها من ناحية أخرى، وقد ساهم كل ذلك فى نهايتها بالإضافة إلى طول سواحل الإمبراطورية الممتدة لشعوب إلى كالبكوت وحاجتها الماسة إلى حاميات تعزيزية لم ينجح البرتغاليون فى توفيرها [٣٤].

هذا فضلا عن ثورة أهل البحرين ضد حاكم الجزيرة الموالى للبرتغاليين سنة ١٦٠٢، وهزيمتهم الحامية البرتغالية واستيلائهم على الحصن، وقد أرسل أمير شيراز قوة لتأييد الثوار، وسيطر على الجزر باسم فارس [٣٥] مستغلاً فى ذلك حالة الضعف التى وصل إليها النفوذ البرتغالى فى المنطقة من تدهور، وقد وصف أحد الرجال سنة ١٦٠٤ وضع البرتغاليين السيئ بأن سفنهم كانت أعجز من أن تحمل الإمدادات إلى رجالهم [٣٦] .

استغل شاه فارس، حالة الضعف التى اعترت البرتغاليين فى الخليج، فأغار على المستعمرات البرتغالية فى هرمز سنة ١٦٠٨م وطردهم من ميناء بندر عباس سنة ١٦١٥ [٣٧] ومن رأس الخيمة على الساحل العربى للخليج عام ١٦٢٠ [٣٨]، ونلاحظ أنه رغم استغلال شاه فارس لضعف نفوذ البرتغاليين فى الخليج العربى إلا أنه لم يعلن ذلك صراحة.

وأن يقر بضعفهم هذا بل استمر على علاقته الحسنة بهم ويبرر لى عليها البرتغال استيلاءه على البحرين بأنه استولى عليها من تابع ملك هرمز وليس من البرتغاليين [٣٩] ، وكذلك عقد فى سنة ١٦١٦ معاهدة مع نائب الملك البرتغالى فى جوا وكانت البرتغال لا تزال تحتكر تجارة الحرير فى ذلك الوقت، فأرسل مندوبًا عنه إلى إسبانيا لتصفية مشكلة هذا الاحتكار، وفى سنة ١٦١٧ استقبل سفيرًا برتغاليًا استقبالاً حسنا [٤٠].

وقد يكون ذلك التصرف من جانب شاه فارس، راجعًا إلى شعوره بعدم قدرته على مواجهة البرتغاليين صراحة، إذ أنه رغم الضعف الذى اعترى نفوذهم فى

المنطقة ما زالوا أقوى من أن يتحداهم بمفرده، بل بدأ يستعين بالقوى الأوروبية الأخرى التى بدأت تصل إلى المنطقة فى مواجهتهم.

وقد كان العامل الحاسم فى إضعاف النفوذ البرتغالى فى المنطقة وصول الهولنديين والإنجليز إليها.

إذ سارع الهولنديون بمجرد تخلصهم من الحكم الإسبانى فى سنة ١٥٨٨ إلى توجيه نشاطهم التجارى نحو الشرق.

فأسسوا الشركة الهندية الهولندية سنة ١٦٢٠.

وكان الإنجليز أيضًا قد بدأوا ينتبهون إلى أهمية ثروات الشرق، فأسسوا شركة الهند الشرقية الإنجليزية سنة ١٦٠٠ (٤١).

وقد اختلفت سياسة الوافدين الأوروبيين الجدد عن سياسة البرتغاليين، إذ أن سياستهم قامت على تكوين الإمبراطوريات الاستعمارية الواسعة، لاستغلال مختلف مواردها. أما فى البحار فلم تقم سياستهم على الاحتكار وقفل المنافذ وسد المسالك كل فعل البرتغاليون وإنما قامت على المشاركة والمنافسة، ومع الهيمنة السياسية والعسكرية لتأمين توافر الطرق البحرية وآلبرية، التى تصل بين الوطن ومستعمراته (٤٢)، وقد مثل الوافدون الجدد لطبقة البرجوازية، التى نجحت فى تكوين شركات احتكارية ربطت مصالح كثير من الأفراد بحركة الاستعمار أكثر إدراكًا للمصالح التجارية، بينما كانت السياسة الاستعمارية البرتغالية تقوم على احتكار الملك لتجارة السلع المربحة كالتوابل، وعدم إفساح المجال لنشاط الأفراد(٤٣) عملت القوتان الأوروبيتان الجديدتان فى ميدانين مختلفين فى الهند، إذ ركزت شركة الهند الهولندية جهودها فى جزر الهند الشرقية.

واهتمت جزر الهند الشرقية البريطانية بشبه جزيرة الهند، ولكن ذلك لم يمنع كلتا الشركتين من أن توسع نشاطهما فى جميع السواحل المؤدية إلى مناطق امتيازاتهما، وكان الإنجليز أقرب إلى منطقة الخليج، بحكم تواجدهم فى شبه جزيرة الهند، كما أن اتصالاتهم بفارس سابق على تأسيس شركة الهند

الشرقية[٤٤] وقد رغب الإنجليز فى المشاركة فى تجارة الشرق المربحة، ولكن عدم قدرتهم على تحدى البرتغاليين جعلهم يحاولون الاتصال بالشرق عن طريق روسيا وبحر قزوين، وحققوا نجاحًا محدودًا خلال القرن السادس عشر، وفى سنة ١٥٨١ أنشأوا «شركة تركيا والشرق الأدنى » لتصدير الحرير الفارسى عن طريق البصرة وبغداد وحلب ثم البحر المتوسط [٤٥].

وقد نجح الإنجليز فى بداية القرن السابع عشر فى إقامة علاقات مباشرة مع فارس من خلال جهود الإخوة شيرلى Sherely.

ففى نفس السنة ١٦٠٠م وصل إلى فارس مغامر إنجليزى يدعى السيد أنطون شيرلى Sir Anthony Sherely ليصحبه أخوه روبرت شيرلى مع ستة وعشرين رجلاً. وإقناع الشاه بالانضمام إلى القوة الأوروبية ضد العثمانيين [٤٦].

استقبل الشاه السير شيرلى بحفاوة، ومنحه فرماناً يضمن حماية التجار الأوروبيين الذين يتاجرون مع فارس، وحماية ثرواتهم وحريتهم فى ممارسة طقوسهم الدينية، بل كلّفه الشاه بأن يكون رسولاً من قبله إلى ملوك أوروبا، لإقامة علاقات ودية بينهم وبين فارس، واقتراح نوع التعاون معهم ضد العثمانيين[٤٧]

وقد بدأت شركة الهند الشرقية التجارة من الهند بعد سنوات قليلة، عجزت السوق الهندية عن استيعاب كمية فائضة من الجوخ، من المقر التجارى فى سورات تبدأ رجال الشركة فى البحث عن سوق جديدة وقد أشيع أن فارس هى السوق الجديدة، نظرًا لطبيعة مناخها الذى يتطلب الحاجة للملابس الثقيلة لفترة تستمر نصف السنة تقريبًا.

وصل إلى فارس سنة ١٦١٥ كل من ريتشارد ستيل وجون كراوثر للحصول على معلومات أكثر عن وضع التجارة.

والحصول على المزيد من الامتيازات من الشاه، ومعرفة أفضل الموانئ المناسبة للسفرعلى الساحل الفارسى، وقد نجحت البعثة فى الحصول على فرمان من الشاه بحسن معاملة الإنجليز فى أى وقت تصل فيه سفنهم إلى الموانئ الفارسية

[٤٨] وقد أعطى الشاه عباس شركة الهند الشرقية الإنجليزية امتيازات تجارية كبيرة، ويبدو أنه كان يرى من وراء ذلك الاستعانة بالشركة فى محاولاته لطرد البرتغاليين من المنطقة، كما شجعه أن الإنجليز الذين وصلوا إلى فارس، كانوا تجارًا وليسوا قوات ممثلة لدولتهم.

كما فى حالة البرتغاليين، الذين كانوا عبارة عن جيش ممثل للملك البرتغال وبالتالى فقد رأى أنه لا خطر من الإنجليز على بلاده.

وفعلاً نجحت السفينة الإنجليزية جيمس James سنة ١٦١٦ فى الإفلات من الأسطول البرتغالى إلى ميناء جاسك على الساحل الفارسى، وكانت بذلك أول سفينة تجارية إنجليزية تسهم فى تجارة الحرير فى الخليج [٤٩].

وفى سنة ١٦١٩ تأسست أول وكالة إنجليزية فى فارس مقرها جاسك [٥٠].

تخوف البرتغاليون من نجاح الإنجليز فى مساعيهم مع فارس، كما تأثرت بذلك حياة الرخاء التى كانت قائمة فى ميناء هرمز.

لذلك بدأ الأسطول البرتغالى فى التحرش بالسفينة الإنجليزية، وحاول منعها من دخول ميناء جاسك. وأدى هذا التحرش أن يلتقى الأسطولان الإنجليزى والبرتغالى فى ديسمبر سنة ١٦٢٠، وانتهت بانتصار الأسطول الإنجليزى [٥١].

وكان البرتغاليون قد حاولوا من قبل، فى سنتى ١٦١٢/١٦١٥، مهاجمة سورات حيث توجد الوكالة الإنجليزية، إلا أن محاولاتهم تلك قد باءت بالفشل [٥٢]، وفى عام ١٦٢١ عمل الشاه عباس على استعادة هرمز من البرتغاليين خاصة وأنه كان على وفاق مع الدولة العثمانية منذ سنة ١٦١٨، كما أن فارس قد حققت ازدهارًا وقوة فى عهده. فأوعز إلى حاكم إقليم فارس (إمام قولى خان) بأن يقود حملة لاسترداد الجزيرة من البرتغاليين [٥٣]:

ووصل إلى جاسك أسطول إنجليزى قادم من سورات فطلب منه الحاكم الفارسى المساعدة العسكرية، وأوضح إنه إذا لم يستجب الأسطول لطلبه فإن الإنجليز سوف يخسرون الامتيازات التجارية التى حصلوا عليها والتى كانت سببًا فى إثارة حفيظة البرتغاليين[٥٤]:

وقد تردد ممثلو الشركة فى الموافقة، إذ إن فكرة تأييد الفرس المسلمين ضد البرتغاليين المسيحيين لم تروق لبعض القباطنة الإنجليز. كما أنهم كانوا يخشون من معاقبة الملك James ملك إنجلترا، لقيامهم بالحرب ضد البرتغال التى كان يعيش معها فى سلام فى ذلك الوقت [٥٥] يضاف إلى ذلك أنه لم تكن لديهم تعليمات من قبل قادتهم للتورط فى مثل تلك العمليات [٥٦]، ولكن ترددهم لم يدم طويلاً، فحرصًا على مصالحهم التجارية، وبعد إعطاء الفرص لتفوق البرتغاليين، وافقوا على مساعدة الحاكم الفارسى. إذا وافق الشاه على شروط الشركة.

وأهم هذه الشروط:

(أ) هو تقسيم الغنائم بالتساوى بين الشركة والحكومة الفارسية.

(ب) تسليم أسرى الحرب المسيحيين إلى الإنجليز.

(ت) أن تسلم القلعة البرتغالية فى هرمز إلى الإنجليز.

(ث) أن تقسم الرسوم الجمركية فى الجزيرة بالتساوى بين الإنجليز والفرس.

(ج) إعفاء التجارة الإنجليزية فى هرمز من الضرائب[٥٧].

وافق الشاه على شروط الشركة، وانتهت العملية العسكرية الإنجليزية الفارسية بنجاح فى بداية سنة ١٦٢٢، وتم الاستيلاء على هرمز[٥٨]، ورغم أن تلك الحملة قد تكلفت الكثير، إلا أن فوائدها كانت أكبر، إذ عززت مركز الإنجليز فى المنطقة وحصلوا على ميناء أكثر ملاءمة من ميناء جاسك[٥٩].

وتأكدت امتيازات سنة ١٦١٧ الممنوحة لهم، وزاد عليها منحهم الحق فى شراء أية كمية من الحرير الفارسى من أى ميناء فارسى دون رسوم [٦٠] جمركية.

ولما كان اهتمام شركة الهند الشرقية فى تجارتها مع منطقة الخليج منصبًا على السوق الفارسية، سواء من ناحية التصدير إليها أو الاستيراد منها فقد رأت أهمية إقامة مقر للشركة فى بندر عباس بدلاً من هرمز، التى لم يبق فيها شيء بعد تدميرها سوى قلعتها.

وسمح الشاه للإنجليز فى سنة ١٦٢٣ بأن يشغلوا بيتين فيها، ولكنه لم يسمح لهم بإقامة مبنى خاص لهم تحويله إلى قلعة [٦١] حصينة. شكل طرد البرتغاليين من هرمز ضربة قاصمة لنفوذهم فى منطقة الخليج، ولكن لم يؤد ذلك إلى انفراد الإنجليز بالسيطرة عليها إذ ظل البرتغاليون يحتفظون بمسقط المحصنة تحصينًا قويًا، كما كانوا يمتلكون أسطولاً قويًا يغير على الشواطئ الفارسية والعربية.

وقاموا بعدة حملات غير ناجحة لاستعادة هرمز وهزموا من أسطول إنجليزى هولندى مشترك فى سنة ١٦٢٥[٦٢].

وإن كان الوجود السياسى البرتغالى، قد زال من منطقة الخليج فى منتصف القرن السابع عشر، إلا أن ذلك لا يعنى زوال وجودهم التجارى من المنطقة.

إذ بقيت السفن التجارية تتردد على موانئ الخليج العربى واستمرت خلال القرن الثامن عشر تتردد على الوكالة البرتغالية فى جزيرة كنج [٦٣] وظهر ذلك بين الإنجليز والفرس، لرفضه الإنجليز طلب الفرس المتكرر لمساعدتهم فى استعادة مسقط من البرتغاليين[٦٤].

وكذلك الخلاف على تقسيم الدخل الجمركى العائد من بندر عباس [٦٥].

كما ظهرت منافسة خطيرة للإنجليز من قبل الهولنديين، الذين أخذ مركزهم يزداد فى الخليج العربى.

وانتهزوا فرصة سقوط هرمز، وأسسوا مركزًا تجاريًا لهم فى بندر عباس، وكان الهولنديون قد تحالفوا على الإنجليز حول الامتيازات والاحتكارات التجارية فى المنطقة [٦٦].

وقد قدم الرحالة جان فان هوتن Janvan Linse Hoten معلومات بالغة الأهمية عن تجارة الهند الشرقية فى نهاية القرن السادس عشر، وقد وضع الملك الإسبانى فيليب الثانى، الذى حكم فى الفترة من ١٥٥٨ إلى ١٥٩٨ عقبات أمام الهولنديين لمنعهم من إجراء أى اتصال على المستعمرات البرتغالية فى الشرق مباشرة، فزاد عدد أساطيلهم المتوجهة إلى الشرق، حتى بلغ عددها بين سنتى ١٥٩٨/ ١٦٠١ حوالى خمسة عشر أسطولاً[٦٧].

بل فكرت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى فارس فى إغلاق وكالاتها التجارية بها لشدة منافسة الهولنديين خوفًا من أن يقتلهم الهولنديون ويحل محلهم الفرس، كما رفض الهولنديون دفع أية ضرائب جمركية فى بندر عباس، رغم اجتماع الوكالة الإنجليزية الشركسية مع فارس فى تحصيل الضرائب(٦٨).

وحاول الهولنديون زيادة نفوذهم فى فارس بشتى الطرق، فاتبعوا أساليب الرشوة، ودفعوا أثمانًا مرتفعة فى البضائع الفارسية، وباعوا السلع الأوروبية بثمن أقل من التكلفة.

ووصل النفوذ الهولندى من القوة لدرجة أن شركة الهند الشرقية تفامر بطلب عقد اتفاقية جديدة خاصة بالحرير، برغم حاجتها لمثل هذا العقد، خوفاً من أن يسبقها الهولنديون ويفوزوا بالعقد(٦٩).

ونلاحظ أنه فى سنة ١٦٤٥ أن الهولنديين قد أخذوا فى العمل على تثبيت نفوذهم فى فارس مستخدمين فى ذلك مختلف الوسائل بما فيها القوة العسكرية فقد أرسلوا أسطولاً ضخمًا إلى المنطقة، يقوده الكومادور بلوك.

وكان الهدف من وراء ذلك، Commodore Blook أشاع الخوف والهلع فى قلوب السلطات الفارسية، وإيضاح قوة الأسطول الهولندى أمامها(٧٠)، وأمل الهولنديون فى عقد اتفاقية مع فارس، تعطيهم مزيد من الامتيازات التجارية، وعندما لم يصلوا إلى اتفاقية ترضيهم، هاجموا جزيرة قشمة على ١٦٤٥.

ورغم فشل الهولنديين فى احتلال قشمة سنة ١٦٤٥ سارع الشاه بطلب الهدنة والإذعان إلى مطالبهم، وحصل بلوك بالفعل على امتياز يعطى للهولنديين الحق فى تصدير الحرير من أى ميناء فارسى، والإعفاء من دفع الضرائب(٧١).

وبمرور الوقت ازداد النفوذ الهولندى فى فارس ووصل إلى مرحلة اضطراب شركة الهند الشرقية الإنجليزية أن تنقل ممتلكاتها فى يونيو سنة ١٦٤٥، من بندر عباس. إلى البصرة ضمانًا لسلامتها(٧٢)، بل نجد الهولنديين يطاردون النفوذ الإنجليزى فى كل مكان فى الخليج، حتى أنهم أرسلوا أسطولاً من ثمانى سفن إلى البصرة، ونجحت هذه الحملة فى تحطيم الوكالة الإنجليزية بها(٧٣).

ونلاحظ أنه أثناء الصراع القائم بين الإنجليز والهولنديين للسيطرة على مناطق نفوذ بالخليج واحتكار تجارته، كان هناك صراع آخر دائر في المنطقة بين عرب عمان والبرتغاليين.

وكان العمانيون يهدفون إلى تحرير الساحل العربي البرتغالي[٧٤].

لقد اشتغل العرب في منطقة الخليج بالتجارة الشرقية، ولكنهم أضيروا كثيرًا من كشف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واحتكارهم ودفعهم العرب إلى مياههم الداخلية بالإضافة إلى معاملتهم بالقسوة والعنف[٧٥]. ولكن بسقوط هرمز مُنِيَ البرتغاليون بضربة قاتلة وحتى يعوضوا ما أصابهم، اتجهوا إلى مسقط على الساحل العربي من الخليج وتمركزوا فيها وقاموا بتحصينها أقاموا مركزًا للتبشير المسيحي ثم حولوه إلى مركز تجاري[٧٦].

وعجز الفرس عن متابعة مطاردتهم للبرتغاليين، خاصة بعد أن رفضت شركة الهند الشرقية مساعدتهم في استخلاص مسقط من أيدي البرتغاليين[٧٧].

إلا أن العثمانيين قد غيروا سياستهم من البرتغاليين، حيث استعان حاكم البصرة العثماني بالبرتغاليين في الدفاع عنها ضد الفرس.

وحصل البرتغاليون على امتيازات اقتصادية وسياسية مهمة في جنوب العراق[٧٨].

عندما عجز الفرس عن طرد البرتغاليين، وتخلى العثمانيون عن سياستهم السابقة بوصفهم حماة العالم الإسلامي من الغزو الأيبيري، في الغرب أو الشرق، وقع على عرب عمان مهمة إتمام المرحلة المهمة والختامية في تحرير المنطقة من فلول البرتغاليين[٧٩] وتهيأ الحال لظهور دولة اليعاربة فيَ عمان، التي توحدت مناطقها تحت قيادة القائد العماني اليعربي ناصر بن مرشد[٨٠].

وقد حصل ناصر بن مرشد اليعربي على البيعة بالإمامة في عمان سنة ١٦٢٤، وأمضى سنوات الحكم الأولى في توحيد البلاد.

ثم بدأ في توجيه جهوده ضد الحاميات البرتغالية في المنطقة باعتبارها أخطارًا خارجية تهدد بلاده[٨١]، واستطاع تحرير جلفار (رأس الخيمة).

والاستيلاء على حصنين قويين كانا بها.

أحدهما كان به حامية من البرتغاليين والآخر كانت به حامية من الفرس وبذلك واجه قوتين معاديتين (البرتغاليين والفرس)[٨٢].

ثم وجه ناصر بن مرشد حملة إلى صحار فى سنة ١٦٣٣ م تحت قيادة حافظ ابن سنان، للاستيلاء عليها وإقامة حصن عمانى بها.

وقد نجحت الحملة فى تنفيذ هدفها، أعقبها بحملة أخرى إلى صور، بقيادة ابن عمه سيف بن سلطان، فاستولى عليها وبذلك تم الاستيلاء على قريات[٨٣].

اتجه ناصر بن مرشد إلى مسقط فى حرها سنة ١٦٤٨م وأرغم قائدها البرتغالى على الرضوخ لشروطه، التى تضمنت حرية الملاحة للعرب، وإخضاع البرتغاليين لنظام الجزية[٨٤].

واعتبر البرتغاليون هذه الشروط إهانة لهم، فأصدر الملك البرتغالى تعليماته من أوروبا بتوجيه كل الجهود للمحافظة على مسقط[٨٥] ، ووصلت تعليمات ملك البرتغال متأخرة بينما زادت هجمات العرب على مسقط فى نهاية سنة ١٦٤٩.

وفى عام ١٦٥٠ سلمت قلعة مسقط، وغادرتها الحامية البرتغالية[٨٦] وقد تم ذلك فى عهد السلطان ابن سيف، الذى نجح فى طرد البرتغاليين من بلاده ثم تابعهم فى ممتلكاتهم بشرق إفريقيا والهند[٨٧].

بلغ النفوذ الهولندى فى فارس ذروته، فأراد الإنجليز مقاومة ذلك النفوذ بإقامة تحالف مع عمان.

ففى سنة ١٦٥٠ أرسل رئيس مجلس الهند الشرقية فى سورات، الكولونيل رينزفورد-Rainsford للتفاوض مع سيف بن سلطان على عقد معاهدة بين عمان والإنجليز إلا أن وفاة المبعوث الإنجليزى رينز فورد الفجائية، أدت إلى انهيار الاتصالات بينهما[٨٨]. لمس الإنجليز قوة الأسطول العمانى فرغبوا فى التحالف مع عرب عمان، فى عهد الإمامين ناصر بن مرشد وسيف بن سلطان.

وبفضل قوة هذا الأسطول ، طارد العمانيون السفن البرتغالية فى شرق إفريقيا وسواحل الهند[٨٩]، ويقول هاملتون Hamilton: إن هذا الأسطول تمكن من مهاجمة المراكز البرتغالية فى ديو Diu دامون Gamaun فى الهند[٩٠].

وأصبحت القوة البحرية العمانية أكبر قوة بحرية محلية منذ أواخر القرن السابع عشر وشكلت خطورة على القوى البحرية الأخرى العاملة فى الخليج، وتنبأ وكيل شركة الهند الشرقية فى بندر عباس بأن العمانيين سوف يصبحون خطرًا على الهند مثلما الجزائريون على أوروبا[٩١].

٢ - الغزو البرتغالى والمقاومة العربية فى البحر الأحمر:

فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى نجحت البرتغال فى الوصول بحرًا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحت فى احتكار التجارة الشرقية بعد الوصول إلى الهند بزمن قليل.

وأدى تحول تجارة الشرق إلى الطريق البحرى المباشر إلى حرمان العرب من مصدر مهم من مصادر ثروتهم.

فأدى هذا بدوره إلى ضعف بنائهم الاقتصادى التقليدى وإلى انهيار نظمهم السياسية القائمة. حاول العرب منذ البداية مقاومة هذا الغزو الأوروبى واسترداد مقاومتهم على نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب إلا أن محاولتهم فشلت وتم للبرتغال احتكار تجارة الشرق، وقد حاول المماليك فى مصر مهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند نفسها.

ولكنهم فشلوا هناك فالتجأوا إلى خطة الدفاع عن حدود إمبراطوريتهم التى كانت تشمل مصر والشام والحجاز، وخاصة عندما شعروا باقتراب الخطر البرتغالى من حدودهم الجنوبية فى البحر الأحمر.

أدت سياسة المماليك الدفاعية إلى التصادم مع حكام اليمن وإلى احتلال السواحل اليمنية لغلق مدخل البحر الأحمر الجنوبى أمام زحف البرتغاليين، بينما انتصر العثمانيون على المماليك فى جبهة أخرى عند الحدود الشمالية

لدولة المماليك مما أدخل الشرق العربى تحت السيادة العثمانية ولكن بتوضيح كيف تم للبرتغاليين احتكار تجارة الشرق.

تمثل العامل الدينى والعامل الاقتصادى كأنهما عاملان دفعا البرتغاليين إلى الشرق ويرجع العامل الأول إلى اصطدام الصراع بين المسيحيين والمسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا فى فترة العصور الوسطى، وتسبب صغر مساحة البرتغال ووقوعها على ساحل المحيط الأطلنطى أن حتمًا عليها أن يكون توسعها بحريًا وليس بريًا فى داخل شبه جزيرة أيبيريا الضيقة، ثم اتجهت البرتغال عندئذ إلى مطاردة المسلمين على ساحل إفريقيا الغربى..

أما العامل الآخر فهو العامل الاقتصادى فيعود إلى رغبة البرتغاليين فى المشاركة فى الحصول على أرباح تجارة الشرق، وكذلك إلى وقوعهم تحت تأثير أهالى جنوة.

وكانت البندقية قد نجحت قبل ذلك فى احتكار الأسواق المصرية، فاتجه أهالى جنوة إلى ملوك إسبانيا والبرتغال لتشجعهم على الوصول إلى الهند بحرًا للقضاء على ثروة البندقية عدوتهم اللدود.

توجهت أولى الحملات البحرية فى عهد الملك عمانيول الأول (١٤٩٥/١٥٢١) إلى الشرق وأوضح فى خطبته أغراض الحملة وهو اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند ونشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق[٩٢].

وزودت سفينة قائد الحملة وهو فاسكودى جاما بالموقع وعلم رسم عليه صليب ضخم، فكان رمز القادم الجديد المدفع والصليب[٩٣].

واعتبر بعض المحدثين أن رفع الستار الدينى واستعمال القوة الضارية ضد التجار العرب والمسلمين هو الذى دفعهم لوصف الكشوف برتغاليين بأنها حرب صليبية جديدة وأنها رد فعل لغزو المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا والحروب الصليبيين فى العصور الوسطى[٩٤].

ونلاحظ أن ضراوة البرتغاليين فى محاربة المسلمين ترجع إلى العداوة التاريخية المستمدة من العصور الوسطى بقدر ما ترجع حرص البرتغاليين على السيطرة على تجارة الشرق.

واستمرت جهود البرتغاليين للوصول إلى الهند، وكانت أول تتويج لجهود البحر، على الساحل العربى لإفريقيا على يد الأمير هندى الملاح الذى سبق استيلاؤه سنة ١٤١٥، ثم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٧ م على يد بارتلمودياز. كانت هناك جهود أخرى اتسمت بالسرية لجمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق ومعابر وطرق هذه التجارة عبر العالم العربى، وكذلك عن أنواع البضائع الشرقية وأسعارها ومهد لذلك ملك البرتغال[٩٥] بإرسال اثنين من أتباعه إلى بيت المقدس فى موسم الحج لجمع بعض المعلومات.

ولكنهما عادا كما ذهبا لجهلهما اللغة العربية فأرسل الملك خادمه الخاص بيرودى كوفلهام ومعه رسول آخر إلى الشرق، وكان دى كوفلهام يجيدعدة لغات ومنها العربية منذ أسره فى المغرب[٩٦].

وحدد لهم الملك مهمتهم فى ثلاث نقاط:.

١ ـ جمع المعلومات عن الحبشة التى كانت تسمى فى أوروبا مملكة القديس جون أو يوحنا.

٢. معرفة المصادر الأصلية للتوابل.

٣. معرفة طرق هذه التجارة عبر البلاد العربية حتى تصل إلى البندقية فى إيطاليا.

نجح الرسولان فى مهمتهما نجاحًا كبيرًا. إذ وصلا إلى القاهر ة فى منتصف سنة ١٤٨٧ بعد التخفى بزى تجار للعسل. تمكن الرسولان من أن يندسا ضمن جماعة التجار المغاربة حيث توجهوا جميعًا إلى عدن ثم افترق الزميلان فتوجه دى كوفلهام إلى الهند، وقصد دى بينا الحبشة ولكنه مات بعد قليل.

ثم تخفى كوفلهام على ظهر السفن العربية التجارية لزيارة الموانئ المهمة على ساحل الهند الغربى كما زار جزيرة هرمز التى كانت من أهم المراكز الإسلامية التجارية حينئذ ثم عاد إلى القاهرة، وكان ملك البرتغال قد أرسل فى أثره رسولين آخرين لمعرفة الأخبار التى جمعها فتقابل معهما فى القاهرة وسلم أحدهما تقريره الطويل عن رحلته السرية لتوصيله إلى البرتغال واصطحب الآخر إلى هرمز ليكتب بدوره تقريرًا عنها.

وكانت مهمة دى كوفلهام الجديدة والتى حددها له هذان الرسولان هى زيارة الحبشة وكتابة تقرير خاص عنها، نجح الرجل فى اختراق العالم العربى فاتجه إلى هرمز ثم عاد إلى جدة فقام بزيارة مكة والمدينة، ثم ذهب إلى سيناء فزار معالمها، وأخيراً اتجه إلى زيلع ثم توغل إلى داخل الحبشة فقابل النجا وسلمه خطابات من الملك البرتغالى.

وحكم على دى كوفلهام أن يبقى فى الحبشة حتى توفى بها حيث احتاط منه نجاش الحبشة ضمن الخطة المتمثلة فى الحيطة من الأجانب الذين يقدمون إلى بلاده.

أخيرًا أدت هذه الجهود المتواصلة إلى نجاح البرتغاليين فى الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، وإلى سرعة احتكارهم لتجارة الشرق بعد فترة قصيرة من وصولهم إلى مياه المحيط الهندى [٩٧].

واتسمت التجارة البرتغالية فى هذه المرحلة المبكرة ببعض الصناعات التى استمرت بعد ذلك حتى انهارت إمبراطوريتهم وسيطرتهم على التجارة الشرقية فى النصف الأول من القرن السابع عشر.

فنظرًا للظروف التى أحاطت بالرحلات منذ مراحلها الأولى، فقد أصبحت التجارة البرتغالية احتكارًا لملك البرتغال الذى كان يقوم باحتكار هذه التجارة والإشراف عليها بنفسه عن طريق لجنة ملكية خاصة.

ويعود حرص ملوك البرتغال على احتكار تجارة الشرق إلى ضخامة الأعباء التى تتطلبها هذه التجارة، حيث كانت هذه الأعباء فوق قدرة المشروعات الأهلية الخاصة، كما كانت أرباح هذه التجارة تغطى تكاليف الحملات البحرية الباهظة[٩٨] التكاليف. اتصف موقف البرتغاليين من العرب والمسلمين فى هذه المرحلة بالعداوة والعنف، وقد قامت السياسة البرتغالية حينئذ على مطاردة السفن وإغراقها أو الاستيلاء عليها، كما قامت أيضًا على مطاردة العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية.

واعتمد البرتغاليون فى تنفيذ هذه السياسة على قوة أساطيلهم البحرية، وعلى إقامة الحصون القوية إلى جانب مراكزهم التجارية، وقد استولى فاسكودى جاما أثناء رحلته الأولى للهند بمهاجمة إحدى السفن التجارية العربية واستولى على ما بها من بضائع، ثم أمر بإغراقها بما تحمل من ركاب(٩٩).

أكد البرتغاليون موقفهم من السفن العربية عندما قام جاما برحلته الثانية إلى الهند سنة ١٥٠١ فقد كلف أحد القادة بالإقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن العربية، ولمنع السفن الأخرى من الإبحار فى مياه المحيط الهندى إلا بتصريح خاص من البرتغاليين(١٠٠)حقق هذا القائد نجاحًا فى مهمته إلى حد كبير، فقد قام فى يناير سنة ١٥٠٣م بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها، كما قتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر(١٠١)، كما عمل البرتغاليون على إضعاف مركز التجار العرب فى المراكز التجارية، فأثاروا الحكام الهنود ضد رعاياهم من العرب والمسلمين، وحاولوا دفع الحكام إلى طرد هؤلاء الرعايا من بلادهم، ولكن كان الأمراء الهنود يرفضون دائمًا تنفيذ رغبة البرتغاليين، وذلك لأهمية العرب الاقتصادية فى هذه المناطق(١٠٢).

ثم اشتد عنف البرتغاليين ضد العرب بعد ذلك عندما جاء "البوكيرك" أشهر القادة البرتغاليين الذين ظهروا فى البحار الشرقية إلى مياه المحيط الهندى سنة ١٥٠٦ الذى أصبح نائبًا للملك فى آخر سنة ١٥٠٩.

لمس البرتغاليون منذ بداية هذه المرحلة ضخامة الأرباح التى يمكن لهم أن يحققوها من وراء اشتغالهم بتجارة الشرق فقد كانت لديهم قائمة بالفروق الضخمة بين أسعار التوابل فى أسواق الإسكندرية وبين أسعارها فى سوق كاليكوت.

أغرى البرتغاليون رخص أسعار التوابل الهندية فى مصادرها الأصلية على أن يواصلوا جهودهم لاحتكار تجارة الشرق ولانتزاعها من أيدى العرب، فحرصوا على إرسال حملاتهم البحرية سنويًا إلى هناك لتعود بالوفير من هذه البضائع.

ويدأ البرتغاليون منذ ذلك الحين يعرضون البضائع الهندية والإفريقية فى «لشبونة» بأسعار أرخص بكثير من أسعارها فى أسواق الإسكندرية أو البندقية نظرًا لرخص تكاليف نقل بضائع الشرق من الطريق البحرى الجديد والمباشر إلى لشبونة؛ فأدى ذلك إلى جذب تجار أوروبا إليها. وقد حقق البرتغاليون أرباحًا كثيرة من وراء تجارة الشرق رغم عرضها بأسعار رخيصة، وقد وصلت هذه الأرباح أحيانًا إلى خمسة أضعاف تكاليف الحملات التى كانوا يرسلونها (١٠٣).

وقد أدت هذه الأرباح إلى قيام نشاط رأسمالى كبير فى البرتغال بل وفى غرب أوروبا، فقد أسرع ملك البرتغال فى سنة ١٥٠٣ إلى افتتاح مستودع تجارى فى «انتورب» لتوزيع البضائع القادمة من الشرق، كما سارعت البيوت المالية فى «انتورب» إلى مد هذه الحملات فى شخص الملك بالمال اللازم لإعدادها(١٠٤). أدى تحول التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح إلى انهيار اقتصاديات البلدان العربية المشتغلة بهذه التجارة، ويدل على ذلك أن السفن البندقية كانت عاجزة ماليًا على شراء التوابل المكبوسة فى الإسكندرية فى سنة ١٤٩٨، وهى السنة التى بدأ فيها فاسكودى جاما رحلته إلى الهند، وبعد ذلك بثلاث سنوات فقط أى من سنة ١٥٠٢، لم تجد هذه السفن فى الإسكندرية ما تحمله من التوابل (١٠٥)، وكانت سفن التجارة لحكومة البندقية المؤلفة من ثلاث عشرة سفينة تأتى إلى مصر مرتين كل عام، هذا بالإضافة إلى سفن الأهالى التجارية التى ترد إلى الإسكندرية طوال العام، وتعود جميعًا محملة بالتوابل.

فتبدل الحال بعد اكتشاف الطريق البحرى وأصبحت القافلة الرسمية لا تزيد عن ثلاث سفن وتأتى كل عامين، وأصبح قدومها نادرًا. وذلك لأن تجار البندقية أصبحوا لا يجدون ما يحملونه من توابل ويرجع ذلك أساسًا للحصار البحرى الذى فرضه البرتغاليون حول الشواطئ العربية الجنوبية وإغراقهم لها فى المحيط الهندى.

وآل حال البندقية إلى ما صارت إليه المدن العربية فقد نصبت أسواقها من التوابل وغيرها من منتجات الشرق، وبدأت بذلك تفقد أهميتها التجارية فى أوروبا.

إذ كانت جمهورية البندقية تعتمد إلى حد كبير خلال العصور الوسطى على تجارتها على مصر فى بناء قوتها وإمبراطوريتها فى البحر المتوسط، ولذلك كانت البندقية تشارك العرب الحاشية إزاء ما يعرض هذه التجارة لأى خطر.

وعند اكتشاف الطريق البحرى الجديد كانت لديها قوة الحركة السريعة للتكيف على الوضع الجديد؛ فقد سارعت البندقية بإرسال رسلها سرًا إلى لشبونة لجمع المعلومات عن طريق حقيقة البرتغاليين ومشروعاتهم عقب عودة فاسكودى جاما من رحلتين إلى الشرق، بل أكثر من ذلك فقدعهدت إلى رسلها بمراقبة رحيل السفن إلى الهند، ومعرفة الطريق البحرى الذى اكتشفه البرتغاليون عهدت إلى هؤلاء أيضًا بالاتصال بالسفراء الهنود فى لشبونة لإبراز مكان البندقية التجارية بعكس لشبونة[١٠٦]، وأرسل رئيس جمهورية البندقية «الدوج» سفراءه إلى السلطان قنصوة الغورى فى مصر (١٥٠١/١٥١٧) لتوضيح حقيقة الاكتشافات البحرية أمامه.

فقدم إلى مصر بعثتان دبلوماسيتان إحداهما فى سنة ١٥٠٢م.

والأخرى سنة ١٥٠٤ م[١٠٧] ، وحاول البنادقة تشجيع السلطان الغورى على إرسال بعثة إلى أمراء الهند يطلبون منهم عدم التعامل مع البرتغاليين وطالبوا السلطان الغورى تخفيض الرسوم الجمركية المفروضة على التوابل حتى يتمكنوا من منافسة البرتغال التى بدأت فى إغراق سفارة أوروبا بالتوابل بأسعار رخيصة[١٠٨] عرضت سفارة البندقية سنة ١٥٠٤ مشروعًا جريئًا على السلطان الغورى بشق قناة عبر برزخ السويس ، ولكن لم يكتب لهذا المشروع التحقق.

وحاولت البندقية إنقاذ تجارة الشرق من الانهيار دون جدوى فقد استمر نمو النشاط التجارى البرتغالى وظلت الحملات البرتغالية البحرية تتجه إلى الهند بانتظام كل عام فتغمر الأسواق الأوروبية بالتوابل وغيرها من تجارة الشرق مما اضطر البندقية فى النهاية إلى شراء التوابل من سوق لشبونة مثل باقى الدول الأوروبية الأخرى[١٠٩].

٣- المقاومة المملوكية اليمنية للبرتغاليين فى المياه العربية والدولية

أدى الحصار البحرى الذى فرضه البرتغاليون على السواحل العربية الجنوبية إلى ضعف إيرادات السلطان اليمنى عامر بن عبدالوهاب فى اليمن والتى كانت ترد إلى موانيه من سفن تجارية تحصل منها رسوم جمركية تملأ خزائنه بالمال والذهب والفضة إلى وقت قريب من مجىء البرتغاليين إلى الهند[١١٠]. واضطربت أحوال سلطان اليمن ضعفت إيراداته المالية فأمر بتجهيز حملة بحرية فى سنة ١٥٠٧م لمحاربة البرتغاليين فى الهند ولكنها كانت حملة ضعيفة تعبر عن عدم إدراكه لحقيقة قوة الغازى الجديد الذى جاء إلى الشرق.

أعد السلطان أربع عشرة سفينة بها ستمائة يمنى، إضافة إلى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين.

غادرت الحملة عدن فى ١٥٠٧م فكانت فريسة سهلة للبرتغاليين، لأن هذه السفن لم تكن إلا سفن نقل عادية وليست من النوع الحربى الذى يمكن الصمود أمام الأسطول البرتغالى المجهز تجهيزًا عسكريًا قويًا[١١١].

ولم يستطع السلطان عامر إرسال حملة أخرى إلى الهند، بل عجز عن حماية سواحله أمام هجوم البرتغاليين عليها وذلك لضعف إمكاناته الحربية والبحرية والمالية.

أما موقف المماليك فى مصر فى مواجهة الغزو البرتغالى فكان أكثر من موقف اليمن.

فقد كانت الدولة المملوكية من أولى الدول التى تأثرت اقتصادياتها بتحويل طريق التجارة عن ممتلكاتها، إذ أدى هذا التحول إلى فقدانها للموائد والرسوم الضخمة التى كانت تأتيها من الموانئ فى مصر والشام والحجاز ومن هنا كان اهتمام المماليك لوقف أو عرقلة تحول التجارة إلى أيدى البرتغاليين.

ولكن كان المماليك أضعف من مواجهة هذه الدولة البرتغالية البحرية الناشئة، ولذلك كانوا عاجزين أمامها وهى عازمة على السير فى طريق تحويل التجارة، ولم تكن الدولة المملوكية دولة بحرية تقف ندًا للبرتغال بل كان المماليك فرسانًا

بالدرجة الأولى، وكان الخشب اللازم للسفن لا يعرفون أين يجلب فضلاً عن عدم توفر الصناع والمهندسين لهذه الصناعة[١١٢].

وإذا نظرنا لهذه الفترة من المواجهة نجد أن دولة المماليك كانت على وشك الانهيار حيث بلغت درجة كبيرة من الضعف لسببين:

الأول: قيام الاضطرابات الداخلية فيها باشتعال ثورتين إحداهما بالحجارة والأخرى فى «الكرك» بالشام.

ثانيًا:- بينما الأخطار الخارجية تتمثل كسبب مهم يأتى من البرتغاليين ولابد من إرسال قوات إلى هذه الجهات فى آن واحد «أواخر سنة ١٥٠٥م»[١١٣].

حاول السلطان قنصوة الغورى إنقاذ اقتصاد المملوكية، تجلى ذلك بإعداد حملة بحرية حربية لمواجهة البرتغاليين فى الهند تلبية لنداء الأمراء الهنود والتى تشجع بناء عليها لإرسال حملته الخارجية، كذلك حرص على استرجاع مركز مصر التجارى العالمى إلى ما كان عليه قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من الدعوات التى وصلت إلى مصر للاستنجاد بها ضد البرتغاليين دعوة سلطان كجرات التى كانت من أهم الممالك الإسلامية على ساحل الهند الغربى[١١٤].

طلب سلطان كجرات العدد والآلات والمدافع لمقاومة البرتغاليين، ولم يكن للهنود دراية فى ذلك الوقت بالمدافع والبنادق.

كذلك استنجد السامرى (بكاليكوت) بالسلطان الغورى وطلب منه المعونة[١١٥].

فقد كانت الدولة المملوكية فى نظر هؤلاء أقوى الممالك الإسلامية بينما هى فى الحقيقة فى مرحلة احتضار ويستعد الأتراك لأخذ مكانتهم فى زعامة العالم الإسلامى إلا أنهم كانوا يشعرون بضعفهم التام للبرتغاليين فالتمسوا ما لا علم لهم به من سلام من دولة المماليك والتى كانت لها مصالح اقتصادية مباشرة فى الهند والمحيط الهندى.

وعلى كل حال غادرت الحملة المملوكية البحرية مصر فى ٤ نوفمبر ١٥٠٥ بقيادة الأمير حسين الذى عرف فيما بعد باسم حسين الكردى، فتوجهت إلى السويس وأبحرت[١١٦] بالسفن منها وتألف جنودها من جنسيات متنوعة ومنهم

أبناء المماليك فى مصر وكانوا يعرفون بأولاد الناس وغيرهم من المغاربة والتركمان والأكثرية من المغاربة لمعرفتهم القوية بالبحر[١١٧].

وتكونت سفن حملة المماليك ضد البرتغاليين من حوالى ثلاث عشرة سفينة لتحقيق أهداف منها: تقوية نفوذهم فى أقاليم البحر الأحمر، وتحصين سواحل هذا البحر وذلك قبل التوجه إلى الهند، فتم تحصين ميناء (جدة) خاصة عندما أشاع البرتغاليون أنهم سيهاجمون المدن المقدسية الإسلامية وبمساعدة أهل الحرف المصاحبين للحملة من نجارين وبنائين شرع المماليك فى عمل سور ضخم ذى أبراج عالية بجدة بهدف المراقبة ثم توجه حسين الكردى بحملته إلى سواكية واستولى عليها وأقام بها بعض الحصون[١١٨].

ثم توجهت الحملة بجيزان ثم عدن فطلب المدد من المؤن لحملته من والى عدن المعين من قبل الطاهريين وأن هدفه هو التوجه إلى الهندلمحارية البرتغاليين فأمده الوالى باحتياجاته من عدن[١١٩].

أحرز الأسطول المصرى انتصارًا جزئيًا ضد البرتغاليين بعد فترة من وصوله إلى (ديو) وهى أهم موانئ سلطنة كجرات، ثم توجه الأسطول مع أسطول حاكم ديو (مالك إياس) إلى (كاليكوت) للاشتراك مع أسطول (السامرى) لمحارية البرتغاليين فى ساحل مليار ولطردهم من الهند[١٢٠]، وتقابل السلطان المملوكى والكجراتى أثناء الطريق بقرب أحد موانئ كجرات هو ميناء «شيول» بأسطول برتغالى من ثمانى سفن، فكانت معركة بحرية انتصر فيها الأسطول الإسلامى ١٥٠٨[١٢١] ثم عاد الأخير إلى «ديو» لإصلاح بعض السفن التى أصيبت.

أثار هذا النصر البرتغاليين وكان وصول الأسطول للهند مفاجأة لهم. واستشعر البرتغاليون الخطر من تحالف بحرى مصرى مع بعض الولايات على ساحل الهند مثل كجرات وكاليكوت وغيرها، سارع نائب الملك البرتغالى وهو «دا الميدا» على رأس تسع عشرة سفينة إلى «ديو» لدرء الخطر فانتصر البرتغاليون فى سنة ١٥٠٩م على سفن الحلف المصرى الهندى الإسلامى وتعمد أثناء المعركة أن يصيب البرتغاليون السفن المصرية فقط وهى الوحيدة المزودة

بالمدافع بين سفن الحلف وذلك للقضاء عليها نهائيًا[١٢٢]، حسين الكردى قدأعماه انتصاره فى «شيول» فاستهان بالبرتغاليين وقوتهم البحريةورفضه الانتظار فى ميناء ديو لحماية ظهور السفن وأصر على مواجهة البرتغاليين فى البحر فكانت الهزيمة. بعد هزيمة الأسطول المملوكى استطاع قائده حسين الكردى النجاة وعادإلى مصر، ثم عقد ملك إياس الصلح مع البرتغاليين بعد أن أرسل هدايا إلى قائدهم «دا الميدا» تعبيرًا عن طلبه للسلام فتأخر سقوط ديو فى أيدى البرتغاليين مؤقتًا إلى سنة ١٥٣٥م إذ اكتفى دا الميدا بسيطرة البرتغاليين فى مياه الهند ولكن تعيين «البوكيرك» نائبًا للملك فى كوشن بدلاً من «دا الميدا» كان سببًا فى استعجال الانتصارات البرتغالية. فهو مؤسس الاستعمار الأوروبى فى الشرق باحتلاله المراكز البحرية المهمة وإقامة الحصون القوية حتى يتم إحكام سيطرة البرتغال على مصادر التجارة فى المحيط الهندى فالهدف فى رأى «دا الميدا» كان احتكار التجارة التى تعمل على تقييم الأسطول البرتغالى لإحكام السيطرة على البحار[١٢٣].

بينما كان البوكيرك يرى إقامة القلاع والحصون فى كل المراكز التجارية بقصد حماية البرتغالية ودعم قوة البرتغاليين لغرض سيطرتهم على الحكام الوطنيين المحليين[١٢٤].

وتبدأ الفترة الأولى من حكم البوكيرك من سنة ١٥٠٦ وتبدأ الفترة الثانية من سنة ١٥١٥، وقد كون نظرة خاصة عن أوضاع المنافذ العربية الجنوبية لتجارة الشرق خلال الفترة الأولى ثم الحملة التى قادها لاحتلال جزيرة «سقطرة»[١٢٥]. بالقرب من مدخل البحر الأحمر لإغلاق هذا البحر أمام التجارة العربية واستطاع أن يقيم حصنًا بالجزيرة منذ ١٥٠٧م ورأى البوكيرك حشد بعض سفنه لمهاجمة السفن العربية عند مدخل البحر الأحمر جنوبًا باقى السفن تتجه إلى الهند.

سار البوكيرك بأسطول إلى بعض موانئ الساحل العمانى التى كانت خاضعة لسيادة هرمز فهاجمها وأشعل النيران كما أغرق السفن التى كانت راسية فيها، وواصل البوكيرك أعماله التخريبية على الساحل العمانى فهاجم مدينة مسقط

بالرغم من استعداد المدينة بلسان حاكمها لدفع الجزية التى كانت تدفع لملك هرمز إلى البرتغاليين، وأمر بضرب المدينة بالمدافع وإحراقها، بل أحرق مسجدها وجميع السفن بموانئها، واستولى على أسرى كثيرين اخذ بعضهم للخدمة فى السفن البرتغالية وقطع آذان وأنوف الآخرين[١٢٦].

واصل البوكيرك أعماله اللا إنسانية هذه مع طول الساحل العمانى حتى خور، ثم اتجه بعد ذلك إلى جزيرة هرمز نفسها، وأثرت أعمال القسوة الزائدة التى مارسها البوكيرك على موقف أهالى هرمز فقد استسلمت هرمز بعد أن كانت للمقاومة بعد معركة بحريةقصيرة وعقد الصلح فتمت سيطرة البرتغاليين على تجارة الخليج رغم قيام بعض الثورات من قبل الأهالى ودخلت هرمز بقبول ملكها الدخول تحت سيادة البرتغاليين ودفع جزية سنوية لهم.

وفى الوقت نفسه عدم دفع البرتغاليين، أما البضائع الأخرى يندفعون عنها مثلما يدفع أهالى هرمز أنفسهم.

وأقام البوكيرك حصنًا على الجزيرة ومنع سفن الأهالى من التجول فى الخليج إلا بتصريح من الحكام[١٢٧]، ثم ركز البوكيرك فى فترة عهده الثانية على أساس احتلال المراكز المهمة لتدعيم السيطرة البرية وهذا فى نظره أسهل من مطاردة السفن فى التجارة. وكذلك للسيطرة على الساحل والاستيلاء على هرمز والاستيلاء على عدن لإغراق البحر الأحمر أمام التحركات المصرية[١٢٨].

استولى البوكيرك على جوا فى سنة ١٥١٠م فأقام بها الحصون القوية، فنقل إليها مقر البرتغاليين فى الهند لتوسيط موقعها على ساحل الهند الغربى.

فقد أثر سقوط «جوا» فى أيدى البرتغاليين فى موقف باقى المماليك لهنديةعلى الساحل الغربى للهند، ووافقت سلطة كجرات عندئذ على أن يقيم البرتغاليون محطة تجاريةوحصنًا لهم فى «ديو». كما وافقت كاليكوت على عقد الصلح مع البرتغاليين وإقامة حصن بها[١٢٩]. ثم استمر البوكيرك فى خطته للسيطرة على المراكز التجارية المهمة بالاستيلاء على ميناء «ملقا» فى مايو سنة

١٥١١ الذى كان من أهم الموانئ التجارية فى العالم إذ كان يجمع الشرق فيها منتجات جزر الهند الشرقية وغيرها من مناطق الشرق الأقصى حتى الصين شرقًا.

وقد أدرك البوكيرك أهمية «ملقا» التجارية بالنسبة للتجارة العربية واتضح ذلك فى خطاب البوكيرك أمام جنوده بقوله: وإنى على يقين أننا لو التزمنا تجارة «ملقا» هذه من أيديهم لأصبحت كل من «القاهرة» و «مكة» أثر بعيد عنه ولذهب تجار البندقية إلى لشبونة لشراء التوابل منها(١٣٠).

٤ - العلاقة الحبشية البرتغالية فى البحر الأحمر:

تمت للبرتغاليين السيطرة على أهمية المراكز على ساحل إفريقية الشرقى منذ عهد البوكيرك، ففى سنة ١٥٠٩ كانت جميع مراكز التجارة الإسلامية المهمة قد خضعت للبرتغاليين من «سوفالا» جنوبًا إلى «براوة» شمالاً وكذلك جزر «زنجبار» و «موزمبيق» و «بمبا» و «مافيا»(١٣١).

كذلك تم فى عهدالبوكيرك الاتصال المباشر بين الحبشة وبين البرتغال، فقدأرسلت الإمبراطورة «هيلينا» الوصية على عرش ابنها الطفل فى الحبشة أحد أتباعها ويدعى «ماثيوس» إلى الهند ليعرض على نائب ملك البرتغال هناك التعاون بين البلدين فى إعلان الحرب العامةعلى المسلمين وخاصة المماليك فى مصر.

تمكن ماثيوس من مقابلةالبوكيرك فى سنة ١٥١٢ فأرسله الأخير إلى ملك البرتغال، بعد حصوله منه على معلومات ساعدته فى مهاجمة «نيلع» أثناء حملته على «عدن» والبحر الأحمر سنة ١٥١٣ ثم عاد ماثيوس إلى الحبشة ومعه أول سفارة دبلوماسية برتغالية إلى أباطرة الحبشة.

توفى «ماثيوس» بعد قليل من وصوله إلى الساحل الحبشى قبل أن يقابل نجاش الحبشة إذ تأخر وصوله لصعوبة الموصلات فى ذلك الوقت(١٣٢).

وكان دافع الإمبراطورة هيلينا الحقيقى لإرسال مبعوث إلى البرتغاليين هو أملها فى الحصول على مساعدتهم لوقف النشاط الإسلامى الذى يكنون له

العداء حول ممتلكاتهم، خاصة على يد مملكة «عدن» الذين تمكنوا من الاستيلاء على إقليم «هرر» بالإضافة إلى سيطرتهم على طرق الحبشة إلى البحر الأحمر.

كما عملت أنشطة المماليك فى البحر الأحمر على تشجيع المماليك والإمارات الإسلامية فى شرق إفريقيا فى تلك الآونة على محاربة الأحباش(١٣٣). امتدت مملكة «عدن» وسيطرت على الأراضى التى تطل على رأس القرن الإفريقى «رأس كارد أفورى» وامتدت المملكة لتضم ميناءى «زيلع» و «بربرة»، ولها علاقات وطيدة مع السلاطين والملوك فى اليمن ومصر وقع أشراف مملكة مكة المكرمة ويستمدون منهم السلاح فى حروبهم ضد الأحباش(١٣٤).

رحب البرتغاليون بإقامة مباشرة مع الحبشة وكانت رغبتهم عقد تحالف مع الحبشة لتطويق العالم الإسلامى من الجنوب، وكذلك لإيجاد مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الأحمر لمهاجمة الحجاز ومصر.

وتم على يد البوكيرك أول هجوم برتغالى على عدن والسواحل اليمنية وكذلك أول زحف برتغالى مباشر إلى داخل البحر الأحمر، وكذلك يكون البوكيرك قد نقل المعركة البحرية إلى داخل البحر الأحمر والحجاز ومصر، وكان الصراع العربى البرتغالى الذى مر بمرحلة جديدة مما ساعد على بروز العثمانيين عند وصولهم إلى البحر الأحمر حتى اليمن والحبشة جنوبًا فيما بعد.

إلا أنه لم يلبث أن ضعفت العلاقات البرتغالية الحبشية وانتهت بمصادمات وحروب أضعفت من النفوذ البرتغالى فى الحبشة، و لم يعد البرتغاليون الحلفاء الأوفياء لأباطرة الحبشة، وفقدت الثقة وطلب المساندة فيما بينهما، بل عمل الأحباش على التخلص منهم وطردهم إلى خارج الحبشة(١٣٥).

ويرجع أساس الخلاف إلى محاولة البرتغاليين ربط الكنيسة الحبشية الأرثوذكسية بالكنيسة البرتغالية الكاثوليكية لتدعيم نفوذهم فى الحبشة من خلال ذلك.

ولكن رفض أباطرة الحبشة تغيير عقيدتهم، وتطورت الخلافات الحبشية البرتغالية إلى مصادمات عنيفة كانت خاتمتها طرد البرتغاليين من الحبشة نهاية القرن السادس عشر الميلادى، وقد ساعد على ذلك الضعف البرتغالى بدخول

البرتغال نفسها فى حكم إسبانيا لمدة ستين عامًا من ١٥٨٠ إلى ١٦٤٠ نتيجة لتوحيد تاجى إسبانيا والبرتغال فى تاج واحد بتتويج فيليب الثانى ملك إسبانيا (١٥٨٠/١٥٩٨م) ملكًا للبرتغال فى الوقت نفسه ثم فقد البرتغال لبحريتها مع بحرية إسبانيا أمام الأسطول الإنجليزى فى سنة ١٥٨٨ عندما تحطمت «الأرمادا» أمام الشواطئ الإنجليزية وفقدت إسبانيا والبرتغال معًا سيطرتهما على البحار.

وكان هدف البوكيرك الأساسى من وراء زحفه إلى البحر الأحمر هو القضاء على قوة المماليك البحرية حتى لا يتعرض نفوذ البرتغاليين فى الهند نفسها للتهديد كما حدث سنة ١٥٠٩؛ فقد تمثل خطر المماليك ليهدد بقاء البرتغاليين فى الشرق منذ معركة ديو البحرية.

فقد ظهرت قوة المماليك ليست المادية فقط بل الجانب المعنوى منها فقد أصبح المماليك من وقتها رمز المقاومة عند الهنود. تأكد ذلك عندما أرسل البوكيرك إلى ملك البرتغال سنة ١٥١٢م ليستأذنه فى مهاجمة «عدن» والبحر الأحمر فقد أشار البوكيرك إلى أن الهنود ما زالوا يرددون أن هناك نجدة مملوكية آتية إليهم لتخلصهم من البرتغاليين، وأنه لا سبيل أمامه إلا القضاءعلى المماليك نهائيًا بتوجهه إلى البحر الأحمر، حتى يثبت أمام الهنود أنه لا وجودلتلك القوة التى ينتظرون مجيئها لنجدتهم.

وكان الهنود قد تعلقوا بالمماليك وقد اتضح عمليا ذلك أمام البوكيرك عندما شاهد مساعدة شاه مملكة «بيجابور» الإسلامية. إلى الجنوب من كجرات. لفلول المماليك بعد معركة «ديو» البحرية فقد دعا الشاه بقايا المماليك للإقامة فى بلاده، وأمدهم بالأخشاب والأدوات اللازمة لبناء بعض السفن، ونجح هؤلاء المماليك فى إزعاج البرتغاليين أمام ساحل الهند الغربى بعض الوقت حتى تمكن البوكيرك من القضاء على قوتهم بعد احتلاله لميناء «جوا» التابع لهذا الشاه بمملكة «بيجابور»[١٣٦] هدف البوكيرك من زحفه إلى البحر إلى البحر الأحمر من ناحية أخرى إلى الاستيلاء على عدن باعتبار ذلك جزءًا من خطة عامة وهى السيطرة على مصادر التجارة ومنافذها العربية البحرية.

كما أدرك البوكيرك أن الجزء الأكبر من التجارة الشرقية يتبع طريق البحر الأحمر وليس طريق الخليج.

وإن «عدن» هى أكبر مستودع تجارى هناك، وأنه يجب السيطرة عليها لتأمين طريقه حول طريق رأس الرجاء الصالح الذى طرقه البرتغاليون منذ قليل(١٣٧) واستعد البوكيرك للاتجاه نحو «عدن» فى فبراير سنة ١٥١٣ على رأس حملة بحرية ومن ألف وسبعمائة جندى برتغالى وثمانمائة جندى من الهنود جلبهم من ساحل مليبار(١٣٨) وأسرع أهالى عدن إلى الأمير مرجان الذى أرسل بدوره إلى السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهرى، واهتم السلطان بنجدة عدن وأمر باقى الأمراء باتخاذاللازم للدفاع عن موانئهم وقبل وصول أى مدد وصل البرتغاليون عدن واستولوا على البضائع فى السفن الراسية فى مينائها.

وأنزل البوكيرك رجاله إلى البر قدرات معركة كبيرة استبسل فيها الأهالى مدافعين عن عدن مما اضطر البرتغاليون للانسحاب إلى السفن بعد مقتل العديد من رجالهم(١٣٩)، وأحرق البوكيرك حوالى ٤٠ سفينة كانت راسية فى الميناء واتجه إلى باب المندب ودخل البحر الأحمر حتى وصل إلى جزيرة «كران» فاستولى عليها ١٥١٣ وخربها وردم آبارها حتى لا يستفاد منها خاصة وأنها تعتبر محطة بحرية مهمة بين جدة وعدن، وحاول البوكيرك الاتجاه إلى جدة لكن الرياح اضطرته للعودة(١٤٠) ثم اتجه إلى زيلع فضربها بالمدافع وأحرق السفن الراسية(١٤١) ثم عاد لعدن مرة أخرى فضربها بالمدفعية خمسة عشر يومًا ثم اتجه إلى الهند فى أغسطس ١٥١٣، ورغم فشل البوكيرك فى الوصل إلى جدة أو الاستيلاء على عدن إلا أنه أوضح الطريق إلى البحر الأحمر لخلفائه من بعده.

وعن أهمية عدن أرسل البوكيرك لملك البرتغال خطابه المؤرخ فى٢٠ أكتوبر ١٥١٤ ذكر فيه ضرورة الاستيلاء على عدن وإقامة حصن قوى بها للبرتغاليين، وأن بها ميناءً صالحًا لرسو السفن للبرتغاليين وتعتبر البوابة الحقيقية للبحر الأحمر وفى خطاب آخر صمم على العودة إلى البحر الأحمر للقضاء على قوة السلطان القاهرة فى البحر الأحمر ولتخريب مكة(١٤٢)، واستعد البوكيرك للمجىء إلى البحر الأحمر بحملة بحرية مكونة من ست وعشرين سفينة و ألف

وخمسمائة برتغالى وسبعمائة هندى من ساحل «مليار» وغدر الهند فى فبراير ١٥١٥ متجهة إلى البحر الأحمر إلاأنه علم بأحداث «هرمز» فاتجه إليها فقضى على ثورتها وأعاد السيادة البرتغالية عليها، ثم اشتد به المرض هناك فعاد إلى «جوا» حيث توفى فى ١٥ ديسمبر ١٥١٥ بعد وصوله إلى جوا[١٤٣]، وبذلك اتضحت أمامنا مرحلة الغزو البرتغالى للشرق وخاصة فى البحر الأحمر، وكان البوكيرك منفذها فتم فى عهده السيطرة على مصادر التجارة فى الهند وجزر الهند الشرقية وساحل إفريقية الشرقى ونجح البرتغاليون فى نقل المعركة البحرية إلى المياه العربية سواء فى الخليج العربى أو فى البحر الأحمر، وأوضح البوكيرك ذلك فى خطاب توصية إلى الملك مؤكدًا على أنه بسط السيادة إلى البرتغاليين على مصادر التجارة الشرقية على خلفائه سد منافذ المضايق العربية وبذلك يبين البوكيرك الطريق أمام البرتغاليين للقضاء على العرب وتجارتهم[١٤٤].

الهوامش

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربى دراسات لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول ص١٠.

(٢) د. صالح أوزيران: البرتغاليون والأتراك العثمانيون فى الخليج العربى ص ٨٠٦ ترجمة د. عبدالجبار ناجى، منشورات مركز دراسات الخليج العربى، جامعة البصرة ١٩٧٩.

(٣) سليمان نصر الله، الخليج العربى مستودع ثروات هائلة، مجلة قافلة الزيت، العدد الخامس مجلد ٦٩ يونيو/ يوليو ١٩٧١، ص١١.

(٤) د. أحمد عزت عبدالكريم، تقديم كتاب أ. د صلاح العقاد «الاستعمار فى الخليج الفارسى» ، القاهرة ١٩٥٦ ـ ص١.

(٥) جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربى ـ دراسات لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ـ القاهرة ١٩٦٦، ص ٢ ـ٤.

(٦) محمد متولى، حوض الخليج العربى ص٢ ص٤٦٢.

(٧) عبدالفتاح إبراهيم على طريقة الهند، بغداد سنة ١٩٣٥ ص١٢.

(٨) جمال حمدان د. استراتيجية الاستعمار والتحرير، القاهرة ١٩٦٨ ص٦٣.

(٩) ترجمة عبدالعزيز توفيق القاهرة ١٩٦٢ ص١٥.

(١٠) محمود الدواد (دكتور): الملاقات البرتغالية مع الخليج العربى. مجلة كلية الآداب عدد ١٩٦ ص٣٢.

(١١) جمال حمدان المرجع السابق ص٥٦.

(١٢) Kuman. O. P. Cit., P. 1.

(١٣) جمال زكريا. دولة البوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٦ ـ ١٧.

(١٤) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخى ج١ ص٥.

(١٥) محمود على الداود ـ المرجع السابق ص٢٣٤.

(١٦) Kuman. O. P. Cit., P.g.

(١٧) عبدالأمير محمد أمين (دكتوراه) المصالح البريطانية فى الخليج العربى،.

(١٨) ترجمة هاشم كامل ـ بغداد ١٩٧٧ ص٩.

(١٩) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدرى قلعجى بيروت ١٩٦١.
(٢٠) صلاح العقاد (دكتوراه)، التيارات السياسية فى الخليج العربى. القاهرة ص٥٨ ـ١٩٦٥. ص١٨.
(٢١) جاكلين بيرين، المرجع السابق ص٥٧.
(٢٢) Serjeant, the Poraguese off The South.
(٢٣) Arabian coast, Oxford, 1963. P. 15 .
(٢٤) Ibid. p. 15.
(٢٥) بانيكار. المرجع السابق ص٥٠ . ٥١.
(٢٦) صلاح العقاد، التيارات السياسية ص ٥٠.
(٢٧) صلاح العقاد، التيارات السياسية ص ٥٢.
(٢٨) لوريمر، دليل الخليج ج١ ص٩.
(٢٩) يلاحظ عدد سكان البرتغاليين كان محدودًا (حوالى مليون نسمة)، انظر جمال حمدان. المرجع السابق ص٦٨ وانظر.
Skeet. Ian, muscat And Oman, The E nd of An Erai London 1974. p.34
(٣٠) جمال زكريا وآخرون، العلاقات العربية الإفريقية، القاهرة ١٩٧٧ ص٧١ لندن، المرجع السابق ص٢٧.
(٣١) محمود على الدواد، العلاقات البرتغالية على الخليج العربى ص٢٣٩.
(٣٢) Kuman. Op. Cit.., 10
(٣٣) عبدالأمير محمد، المصالح البريطانية ص١.
(٣٤) محمود على الدواد، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربى، ص٢٤٢.
(٣٥) المرجع نفسه ص٢٤٥.
(٣٦) Belgyare. Op. Cit., P.9
(٣٧) لوريمر «دليل الخليج. ج١ ص٣٣ . ٤٠.
(٣٨) جمال زكريا. استقرار العرب فى ساحل إفريقيا، حوليات كلية الآداب. جامعة عين شمس. المجلد العاشر سنة ١٩٦٧ ص٣٢٩/٣٣٠.
(٣٩) Belgrave. The Pirate Coast, London 1966 P.
(٤٠) لوريمر، دليل الخليج ج١، ص٢٣.
(٤١) جمال زكريا قاسم، دولة بوسعيد ص١٩.
(٤٢) أحمد عزت عبدالكريم، تقديم لكتاب الاستعمار فى الخليج الفارسى ص٧.
(٤٣) صلاح العقاد، التيارات السياسية ص٢١.
(٤٤) المرجع السابق ص٢٧.

(٤٥) عبدالأمير محمد أمين، المصالح البريطانية فى الخليج ص١٠.
(٤٦) المرجع السابق ص١١.
(٤٧) عبدالأمير محمد أمين، المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص١٢.
(٤٨) المرجع السابق ص١٣/ ١٤.
(٤٩) Balgrave. Op Cit,. P.10.
(٥٠) محمود على الدواد. محاضرات عن تاريخ الخليج العربى. العلاقات الدولية. القاهرة ١٩١٦م ص١٦.
(٥١) لوريمر، دليل الخليج ج١ ص٣٦.
(٥٢) Marlowe. Johı The Persıon Gulfin The Twentıeth Centuryi London., 1962: P., 7
(٥٣) عبدالأمير محمد أمين، المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص١٥.
(٥٤) Belgrave. Op. Cıt., P.11
(٥٥) Ibıd, P. 120
(٥٦) عبدالأمير محمد أمين، المرجع السابق.
(٥٧) عبدالأمير محمد أمين، المصالح البريطانية فى الخليج العربى ص ١٥.
(٥٨) Belgrave Dp. cit.p.11.
(٥٩) Ibid p.120.
(٦٠) عبدالأمير محمد أمين، المرجع السابق.
(٦١) محمود على الدواد، المرجع السابق ص ٢٤٥/٢٤٦.
(٦٢) عبدالأمير محمد ـ المرجع السابق ص ١٦.
(٦٣) لوريمر، دليل الخليج جـ ١ ص ٦٣.
(٦٤) Belgrore, op. cit. p.13.
(٦٥) احمد مصطفى أبو حاكم «تاريخ الكويت. ج ١ ص ٥١.
(٦٦) لوريمر. المرجع السابق ج ١ ص ٤٨/٤٩.
(٦٧) عبدالأمير محمد أمين ـ المرجع السابق ص ٢١.
(٦٨) محمود على الدواد المرجع السابق ص ٢٤٧.
(٦٩) محمود على الدواد تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربى
(٧٠) مجلة كلية الآداب بغداد سنة ١٩٦١ عدد كانون الثانى ص ٢٦٢/٢٦٣.
(٧١) لوريمر: دليل الخليج ص ٦٤.
(٧٢) محمود على الداود. المرجع السابق ص ٢٦٥.
(٧٣) لوريمر. دليل الخليج ج ١ ص ٦٦.
(٧٤) المرجع السابق ص ٦٥.

(٧٥) محمود على الدواد . المرجع السابق ص ٢٦٦ .

(٧٦) أحمد عزت عبدالكريم، تقديم لكتاب الاستعمار فى الخليج الفارسى ص ٥ .

(٧٧) skeet op. cit p.13.

(٧٨) صلاح العقاد التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٢٦ .

(٧٩) صلاح العقاد التيارات السياسية ص ٢٦ .

(٨٠) جمال زكريا قاسم دولة بورسعيد ص ٢٠ .

(٨١) صلاح العقاد المرجع السابق ص ٤٨ .

(٨٢) Badger. History of the Emame And seyyids of oman. By salil Binrazikl.p.66.

(٨٣) Ibid pp.67 -69

(٨٤) صلاح العقاد، المرجع السابق ص ٤٨ .

(٨٥) لوريمر – المرجع السابق ج ١ ص ٦١ .

(٨٦) محمود على الدواد – المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٨٧) جمال زكريا – دولة بو سعيد ص ٢١ .

(٨٨) Skeet.op.cit.p.38

(٨٩) جمال زكريا . الأصول التاريخية لقضية عمان، المجلة التاريخية المصرية ١٩٦٥/٦٤ ص ١٦٩ .

(٩٠) Low History of the Indian Navy. p.p. 311 - 312.

(٩١) أحمد مصطفى أبو حاكة، تاريخ الكويت، ج ١ قسم ٢ ص ١٢٨ .

(٩٢) Edgar prestage the pertnguesepioneers. pp. 267.268.

(٩٣) K.M.Panikkar: Asia and westerm - Dominance, Asurvey of vasco do Goma

(٩٤) Epoak of Asian History. 1489 -1945.. p32.

(٩٥) R.B. serjeant: The portuguese off the south arabian coast p.2

(٩٦) يوحنا الثانى (١٤٨١/١٤٩٥).

(٩٧) Kammer Albert: La Mer Rouge abyssinie et l,Aralie depuis l. antiquite. Tme l.p.87.

(٩٨) Panikkar. K.M: Asia and western - Dominance.pp 44 .45 .

(٩٩) Kammere,r A: L.amer Rouge ib.p 96.

(١٠٠) Serjeant . R. R. The poreaugue of the south - Arabian Coast - p.41 Al-shihyi (5ib)

(١٠١) زين الدين المليارى: تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين ص ٤٦ .

(١٠٢) K.ammer Albert : La Mer Rouge abyssinie et l.Aralie depuis L. antiquite. Time L.p.90.

(١٠٣) شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبدالكريم وآخر ص ١٤٦ .

(١٠٤) كانت أنتورب مركزًا تجاريًا أوروبيًا منذ ق ١٥ إلى نهاية ق ١٦ .

(١٠٥) Kammer Aibert La Mer Rouge

(١٠٦) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ص ١٤٧.

(١٠٧) kammer Albert: la me Rouge p.141.

(١٠٨) ibid p. 144.

(١٠٩) شارل ديل . البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ص ١٥٣.

(١١٠) ابن الربيع «الفضل المزيد على بقية المستفيد فى أخبار مدينة زين» مخطوطة ص ٣١ب.

(١١١) المرجع السابق ص ٤٢ ب.

(١١٢) Stripling., GW.F The Otroman Turksand the Arabs, 1511-1574, p.310.

(١١٣) محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، ج٤ ص ٨٢.

(١١٤) قطب الدين، البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة ص ٤).

(١١٥) زين الدين المليارى: تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين، ص ٤٠.

(١١٦) ابن إياس بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

(١١٧) المرجع السابق ص ٨٤/٨٥.

(١١٨) المرجع السابق ص ٩٦.

(١١٩) عيسى بن لطف الله: روح الروح (مخطوط) ج١ ص ٥٨ب.

(١٢٠) Barbosa, D. The East African and Malabar Coasts, p.61.

(١٢١) Kammer Albert:LamerRouge P.141.

(١٢٢) زين الدين المليارى تحفة المجاهدين. المرجع السابق ٤٠/٤١.

(١٢٣) Kammer Albert: La Mer Rouge

(١٢٤) Sir Arnold wilson:The Persion Gulf. P.112.

(١٢٥) Serjeant, R.B. The Portugesse of the south Arabian coat. P.43.

(١٢٦) Wilson A: The persian Gulf, P. 114

(١٢٧) Ibid: P.116 - 118.

(١٢٨) I bid p. 119

(١٢٩) زين الدين المليارى. تحفة المجاهدين المرجع السابق ص ٤١ . ٤٣.

(١٣٠) Pankar, K.m. Asıand western Dominance, p. 49.

(١٣١) Serjeant, R.B. The portugesseof the south Arabian coast. p. 14.

(١٣٢) Alvakez. F: narrative of the Portug Em ues, basay to Abyssinia, 1520-1527-, P.P.390-391.

(١٣٣) Tome I,p.248 Kammer Albert: La Mer Rouge

(١٣٤) Alvakez. F:narrative of the portug-Em ues

(١٣٥) Wilson A: the persian gulf. P118.

(١٣٦) Barbosa. D. The East African and Malabar coasts, p. 75/7.

(١٣٧) Trephens. H: porugr l,p.p.190-200.

(١٣٨) Wilson A: The Persian Gulf, p. 118.

(١٣٩) بومخرمة: قادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (مخطوطة) جـ ٣ م٢، ص٤، ١١٩. ١١٩٥.

(١٤٠) ابن البديع الفضل المزيد على بقية المستفيد فى أخبار مدينة زبير.

(١٤١) بومخرمة المرجع السابق ج٣م٢ ص ١١٩٥.

(١٤٢) Wilson A: The Persian Gulf, p. 120.

(١٤٣) Ibid p. 121.

(١٤٤) Wilson A: The Persian Gulf. p. 121.

الفصل الثانى

علاقة الدولة العثمانية بالبرتغاليين

١ ـ الدولة العثمانية ومحاولة تأمين البحار العربية.

٢ ـ علاقة أسرة الأفراسياب فى البصرة بالبرتغاليين والقوى الأخرى فى المنطقة.

١ - الدولة العثمانية وتأمين البحار العربية

وجد العثمانيون أنفسهم عقب استيلائهم على مصر ١٥١٧م مضطرية لإكمال الخطة التى وضعتها حكومة المماليك لتأمين البحر الأحمر فى مواجهة البرتغاليين الذين كانوا قد هددوا الأماكن المقدسة من وقت لآخر[١]، وكذلك فإن البحار الشرقية كانت تشكل بالنسبة للدولة العثمانية منطقة استراتيجية مهمة وذلك لاتصالها بحدود مملكتها الجنوبية[٢]، وقد وجه الوالى العثمانى بمصر سليمان باشا الخادم نظير دولته إلى أهمية منطقة الخليج الاستراتيجية وخاصة ميناء البصرة بجنوب العراق، وأنها تشكل الخطوط الأمامية فى وجه الغزو البرتغالى.

كما أن فتح العثمانيين للعراق فى سنة ١٥٣٤م أدى إلى ازدياد اهتمام السلطان سليمان القانونى بالمعركة الدائمة بالبرتغاليين ويرجع ذلك لسببين:

١ ـ وصول النفوذ العثمانى إلى سواحل الخليج العربى الشمالية فأصبحوا فى مواجهة البرتغاليين مباشرة حيث دخل أمراء البصرة والقطيف والبحرين فى طاعة العثمانيين بعد فتح بغداد[٣].

٢ ـ وصول معلومات تؤكد مساعدة البرتغاليين للفرس وإمدادهم بالفنيين فى صناعة المدافع الكبيرة وتدريبهم على كيفية استخدام هذه المدافع[٤].

ازداد اهتمام السلطان سليمان بإرسال حملة بحرية كبيرة إلى الهند بعد وصول مندوب سلطان كجرات لطلب المساعدة فى سنة ١٥٣٧م أثناء قيام سليمان باشا الخادم بإعداد الأسطول فى السويس حيث حضر الرسول من قبل بهادور شاه وقابل السلطان سليمان القانونى الذى كان فى «أدرنه» فى ذلك الوقت وطلب الإمداد العسكرى إلى كجرات حتى تتمكن من الصمود أمام البرتغاليين الذين استولوا على ميناء ديو بالقوة وحتى لا تضطر كجرات إلى عقد صلح مع البرتغاليين إلا أن السلطان سليمان علم بعد قليل أن البرتغاليين قد قتلوا السلطان بهادور، وذلك قبل أن يكتمل بناء الأسطول فى السويس، أثار مقتل سلطان كجرات السلطان بهادور حماسة السلطان سليمان القانونى الدينية، وصمم على نصرة الإسلام والمسلمين فى الهند[٥]، خاصة وأن المناطق الإسلامية فى الهند فى حالة ضعف شديد، فقد تعرضت كجرات أهم الولايات الإسلامية على الساحل الغربى للهند فى أواسط ١٥٣٥م لهجوم مغولى من قبَل «همايون أكبر» سلطان المغول عليها، مما أدى إلى ضعفها وتمزقها، وزاد الأمر سوءًا أنه أمام هذا الهجوم المغولى اضطر بهادور شاه حاكم كجرات أن يطلب مساعدة البرتغاليين ضد هجوم المغول عليه فدفع ثمنًا غاليًا لهذه المساعدة فقد سمح لهم ببناء حصن فى ميناء ديو، كما جعل لهم نصف إيرادات هذا الميناء، ثم تآمر البرتغاليون على قتل السلطان بهادور لاتهامه بمراسلة العثمانيين سرًا واستغاثته بهم ضد البرتغاليين، وأقاموا حاكمًا أجنبيًا من قبلهم «لديو» كذلك ضعفت مقاومة «كاليكوت» أمام الغزو البرتغالى، حيث اضطر السامرى فى أحيان كثيرة إلى عقد الصلح مع البرتغاليين.

وكان قد سمح لهم من قبل ببناء حصن، فى كاليكوت، وبالاشتغال بالتجارة فى بلاده ،وقد ترتب على ضعف موقف السامرى من البرتغاليين ضعفه من حليفه سلطان كجرات حيث رفض مساعدته ضد البرتغاليين[٦].

لقد أثر ضعف الجبهة الهندية فى فشل حملة سليمان باشا الخادم عند وصولها إلى الهند بعد ذلك.

عمومًا استعد العثمانيون لمجابهة البرتغاليين بتشكيل حملة بحرية كبيرة تتألف من ثمانين سفينة متنوعة الأحجام ووضعوا عليها عشرين ألف جندى من جنود الشام ومصر ومنهم سبعة آلاف جندى انكشارى[٧].

وتعبر ضخامة هذه الحملة عن قوة العثمانيين البحرية أنه فى سنة ١٥٣٨ غادر سليمان باشا الخادم «السويس» على رأس هذه الحملة وفى الوقت نفسه كان خير الدين بارباروس قائد الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط يغادر بوغاز الدردنيل إلى جزر الأرخبيل لإخضاعها للسيادة العثمانية[٨].

وتدور بعض الاتهامات عن شخصية سليمان باشا باتهامه بأنه لم يكن الشخصية التى تصلح فى الحقيقة لقيادة هذه الحملة البحرية الكبيرة لولا أنه كان من مماليك السلطان الأول المقربين إليه.

وكان قد تجاوز الثمانين من عمره - بدين الجسم يحتاج لأربعة رجال ليتمكن من النهوض من مجلسه[٩]، ويتهم كذلك بأنه كان سفاكًا للدماء عديم الرأى والفضل واشتهر بالغدر أثناء ولايته لمصر ومن ذلك قتله غدرًا بعض رجال من مصر مثل حاتم الحمزاوى وابنه يوسف أمير الحج وذلك بعد تلفيق تهم خروجهما على السلطة العثمانية[١٠]، وقد اتهم سليمان باشا أنه كان من الخصيان الذين تربوا فى السراى السلطانى بين الحريم أى لم يكن جنديًا فى الانكشارية ويعتبر من مماليك السلطان سليم الخاصة، كما لم يكن له علاقة بالشئون البحرية. وقد تعين سليمان باشا حاكمًا لمصر فى يوليو ١٥٢٥م بعد عزله عن ولاء دمشق مباشرة، وظل واليًا لمصر لعشر سنوات ثم غادرها إلى العراق للاشتراك فى فتح «بغداد» بعد ذلك، ثم بدأت ولايته الثانية لمصر فى ١٥٣٧ واستمر بها حتى خرج على رأس الحملة البحرية من السويس فى يونية سنة ١٥٣٨م[١١].

اتجهت الحملة إلى «عدن» فى أغسطس ١٥٣٨م واتبع سليمان باشا الخادم أسلوب الغدر للاستيلاء على ميناء عدن. وكان عامر بن داود قد أحسن استقبال الحملة عند وصولها وفتح أبواب المدينة ليحصل الجنود على حاجتهم من الطعام

والمؤن بناء على طلب سليمان باشا، وكان سليمان باشا، قد كلف جنوده بقيادة الصوباشى فرحات بإتمام عملية الاستيلاء على عدن فور دخولها مباشرة، فقام الجند ببعض أعمال السلب والنهب، فى الوقت الذى اتجه فيه عامر بن داوود ومعه ستة من كبار أتباعه لاستقبال سليمان باشا على ظهر سفينتين احتفالا به.

وأحسن سليمان باشا استقبالهم حتى إذا علم بتمام استيلاء جنوده على المدينة أمر بشنق عامر بن داوود ومن معه على صارى سفينته وتركهم معلقين لمدة ثلاثة أيام كاملة[١٢]، وتم للعثمانيين الاستيلاء على «عدن» بعد خمسة أيام من وصولهم وعين حاكم عليها من قبله هو الأمير بهرام وترك معه خمسمائة جندى[١٣].

وقد حاول سليمان باشا إخفاء أسلوبه الغادر عن المسئولية العثمانية فى إستانبول، فذكر فى رسالته إلى السلطان أنه أخذ عدن قهرًا وافتتحها بالقوة[١٤].

وقد سليمان باشا من يمتدح طريقه فى الاستيلاء على عدن بدون حرب[١٥]، إلا أن ذلك قد فقد العثمانيين ثقة أهالى هذه المناطق وضيع على العثمانيين إيجاد صيغة للتحالف لتكوين جبهة إسلامية فى البحار العربية والمحيط الهندى لمواجهة الغزو البرتغالى حيث أثر ذلك على موقف مسلمى الهند من الحملة العثمانية، ثم اتجهت الحملة العثمانية، بعد الاستيلاء على عدن إلى «ديو» لتحقيق الجزء الثانى من خطتها فوصلت إليها فى سبتمبر ١٥٣٨م إلا أن الحملة فشلت فى تحقيق شىء يذكر فى الهند لأسباب من أهمها:

- ضعف شخصية قائدها وللظروف التى أحاطت بها مثل ضعف جبهة حلفائها الهنود فى سلطنة كجرات أو فى باقى سلطان ساحل الهند الغربى وظهر للبعض أن الهدف الرئيسى للحملة هو فتح السواحل اليمنية وليس محاربة البرتغاليين فى الهند، وربما يرجع ذلك إلى أن هذه الحملة قد عملت على إتمام الاستيلاء على تلك السواحل بعد عودتها من الهند، وكانت الحملة العثمانية قد واجهت صعوبات فى الوصول إلى ميناء «ديو» فى بداية الأمر لأسباب طبيعية منها: معاكسة الرياح لها فأنزلت إلى الغرب منه حوالى أربعمائة جندى وبعض

المدافع الكبيرة لمعاونة حاكم «ديو» القلعة البرتغالية بها من ناحية البر، ثم تقدم الأسطول العثماني بعد قليل إلى «ديو» وبدأ في حصار القلعة البرتغالية من ناحية البحر في ٥ أكتوبر ١٥٣٨م ولكن الحصار لم يستمر طويلا إذ أصدر سليمان باشا أمرًا إلى الجنود العثمانيين بالعودة إلى السفن للإقلاع إلى الشواطئ العربية[١٦]، ويرجع سبب انسحاب سليمان باشا إلى وقوع خطاب برتغالي في يده يوضح أن هناك نجدة لقائد حصن «ديو» فكان قرار الانسحاب ورفع الحصار للتوجه إلى الجنوب لمواجهة الأسطول البرتغالي القادم من «جوا» قبل وصوله إلى «ديو» إلا أنه عاد وقرر الانسحاب نهائيًا والعودة إلى الشواطئ العربية رغم إلحاح قائد كجرات الخواجة صفر بتأجيل الانسحاب لعشرة أيام أخرى لقرب سقوط القلعة البرتغالية لكن سليمان باشا أصر على الانسحاب من «ديو» ورفع الحصار[١٧]. عند اقتراب الحملة العثمانية من الهند اتجه الخواجة صفر لتجهيز جيش لتطهير شبه جزيرة «ديو» الصغيرة من الجيوش البرتغالية المنتشرة بها ولإحراز بعض الانتصارات وأجبر البرتغاليين هناك على التحصن في قلعتهم الرئيسية التي تقع بالقرب من الميناء، وقد قيل إن الخواجة صفر هو الذي زور خطاب القائد البرتغالي بوصول نجدة برتغالية إلى «ديو» وأنه تحيل حتى يقع الخطاب في يد سليمان باشا ليتخلص الهنود منه بعودته إلى بلاده[١٨]، أشاع سليمان باشا الخادم عند وصوله إلى ميناء الشجر في نوفمبر ١٥٣٨م أنه لم يلق أية معاونة من جانب الهنود في كجرات وأنه لم يمد بالمئونة اللازمة تبريرًا لسرعة عودته من الهند بدون تحقيق شيء من النجاح[١٩]، ويرجع البعض تلك الصعوبات التي وجدها سليمان باشا لغدره بعامر بن داود حاكم عدن فكان نفورهم من حملتين وظهر ذلك من امتناع الخواجة صفر عن مقابلة سليمان باشا الخادم على سفينتين، والاتصال به عن طريق المبعوثين[٢٠]، بينهما، وكان البرتغاليون قد عرفوا كيف يستغلون حادثة قتل السلاطين عامر بن داوود في عدن لإثارة الفتنة بين العثمانيين وسلطان كجرات وساعدت عدة أحداث من نفور أهالي وحكومة كجرات من العثمانيين منها الإشاعة بأن سليمان باشا سيقابل مساعده محمود له بالإساءة والغدر[٢١]، وزاد الطين بلة أن سليمان باشا الخادم

قد أساء بالفعل معاملة رسول السلطان محمود شاه الذى أرسله إليه، كما أن الجنود العثمانيين الذين نزلوا للبر لمعاونة الخواجة صفر أساءوا معاملة حلفائهم الكجراتيين وعاملوهم بطريقة خشنة فضلا عن أحداث النهب والسلب فى الممتلكات العثمانية الخاصة بالكجراتيين [٢٢] وفضلا عن ذلك كله فقد كان من أهم أسباب فشل الحملة العثمانية على الهند هو ضعف الجبهة الهندية وتفككها.

أخيرًا عادت الحملة متجهة إلى مصر وفى طريقها أخضعت ميناء «جيزان»، ثم وصلت جدة فى ١٣ مارس ١٥٣٩ ومن جدة أرسل سليمان باشا الخادم بأخبار حملتين «إستانبول» وأمر رجال أسطوله بالتوجه إلى ميناء السويس وتوجه هو لأداء فريضة الحج ثم سافر برًا إلى مصر ثم إستانبول كذلك.

عندما وصل السلطان سليمان باشا إلى العاصمة التركية أحسن السلطان العثمانى استقباله وغير وزير فى ديوانه[٢٣]، وكان سليمان باشا قد بالغ فى نجاح أعماله فى الهند واليمن تغطية لفشلها الفعلى وعمد إلى إرسال بعض رءوس بعض قتلى البرتغاليين من الأسرى فى «ديو» أو فى «الشحر» إلى العاصمة العثمانية إستانبول ليبرهن للسلطان على أنه قد أجهز على البرتغاليين فى الهند تمامًا، وبهذه الحملة تم للعثمانيين إخضاع السواحل اليمنية وتحقيق النجاح كذلك على السواحل من جيزان شمالا إلى «عدن والشحر» جنوبًا، أما أقاليم اليمن الداخلية فقد ظلت كما هى تحت زعامة الزيديين برئاسة الإمام شرف الدين، ولكنه انتزع عدن من أيدى الطاهريين وأخضعها للعثمانيين وانتزع الأقاليم الداخلية من أيدى المماليك إلى أيدى موظفين عثمانيين نتيجة للمعلومات الخاطئة التى أشاعها السلطان خاصة وأنه ادعى أن الإمام شرف الدين دخل فى طاعة العثمانيين فكان الباب العالى يفسر الصداقة بين الزيديين وبين العثمانيين على خروج عن طاعة العثمانيين واستعمال القسوة فى قمع الثورات اليمنية بدلا من استخدام الوسائل السلمية فى حل الخلافات، كما بدأ العثمانيون يتخذون سياسة دفاعية أكثر منها هجومًا أمام البرتغاليين[٢٤]، بتقوية سواحل البحر الأحمر وتطهير الموانئ العربية من الجيوش البرتغالية وفاتهم تكوين جبهة عربية إسلامية فى المنطقة بزعامتهم وذلك قبل أو بعد توجيههم إلى

الهند لتكون هناك مواجهة مستمرة لمقاومة البرتغاليين، ومع ذلك فيما يتعلق بالخليج فإن الوالى العثمانى فى مصر سليمان باشا الخادم قد وجه لأول مرة نظر دولته إلى أهمية منطقة الخليج وخاصة ميناء البصرة جنوب العراق باعتبارها تمثل الخطوط الأمامية فى مواجهة الغزو البرتغالى للشرق.

بعد هذه الحملة العثمانية على اليمن اتجه السلطان سليم إلى التفكير فى إقامة دولة إسلامية تشمل العالم العربى والإسلامى بأسره، فتوقف عن الفتوحات فى أوروبا واتجه إلى الشرق للقضاء على الصفوية حيث كانت العداوة بسبب الخلافات المذهبية، كما أن الشاه إسماعيل كان قد استقبل فى بلاده بعض الأمراء الطامعين فى العرش العثمانى، اتجه السلطان سليم الأول لمحاربة الصفويين لتحقيق حملة فى إتمام وحدة العالم الإسلامى ولكنه مات فى سنة ١٥٢٠، وواصل خلفاؤه محاربة الفرس والانتصار عليهم فى سنة ١٥٣٤م فكان الحافز للفتوحات الشرقية وللقضاء على البرتغاليين الذين كانت لهم السيطرة على الخليج والمحيط الهندى، ومن أهم دوافع السلطان سليمان بالجبهة الشرقية به وقع البصرة والعراق تحت حكمهم كما خضعت القطيف لهم فمواجهتهم للقوات البرتغالية المتمركزة فى هرمز والخليج، وكذلك تحالف الشاه الصفوى مع شارل الخامس، وتعهد الأخير بمد الشاه، بالمعدات الحربية والخبراء الفنيين لتدريب الجيش الفارسى وتعليم صناعة المدافع الثقيلة والسفن الحربية.

وظهرت الدولة العثمانية بعد استيلائها على العراق كقوة كبرى يتطلع إليها الحكام المحليون فى الخليج لتنقذهم من سيطرة البرتغاليين الذين عاملوا المسلمين بقسوة ووحشية وفرض القيود على تحركهم فى البحار فاستعان بهم حاكم هرمز شرف الدين من ظلم البرتغاليين بأن أرسل إلى الوالى العثمانى فى بغداد يطلب مساعدة الدولة العثمانية للمسلمين فى هرمز الذين يلقون الإهانة من البرتغاليين والجنود العاملين معهم، ولكن البرتغاليين أسرعوا فى عزل شرف الدين بناء على مكيدة من الشيخ راشد بن أحمد، وقد شعر البرتغاليون بقلق من ظهور العثمانيين فى الخليج خاصة بعد استيلائهم على عدن والسيطرة على سواحل الخليج مما يهدد طرق التجارة أمامهم[٢٥].

وحاولت قوة بحرية عثمانية عام ١٥٤٦ متابعة البرتغاليين فى مسقط ووصلت فعلا إلى الميناء وقذفت بالمدافع حوالى شهر وكانت القوة من أربع سفن إلا أن رجالها لم ينزل أحدهم إلى البر فكان عملها محدودًا، ولذلك انسحبت القوة، ولكن البرتغاليين توغلوا شمالا إلى البصرة عام ١٥٤٩ حيث كان الميناء قد تركه العثمانيون للحكام المحليين فاستعان أحدهم عند خلافته على الدولة العثمانية فتغلب عليه النزعة القبلية، وطلب المعونة من البرتغاليين ليعود إلى ولاية البصرة مقابل منح البرتغاليين قلعة داخل الأراضى من ميناء البصرة فضلا عن امتيازات أخرى فى شط العرب[٢٦]، وفى سنة ١٥٤٦ أيضًا وقع اضطراب فى القطيف التابعة لأمير هرمز وثار الأهالى ضد حاكم الجزيرة وسلموا قلعة القطيف للعثمانيين بعد إعلانهم الطاعة لهم مما أغضب البرتغاليين فى هرمز فى ذلك الوقت «أنطونيودى ثروتها» فأعد أسطولا بحريًا من ١٩ سفينة عليها ١٢٠٠ رجل، وذلك عام ١٥٥٠ للتنكيل بالأهالى ومساندة حاكم البصرة المنشق على الدولة العثمانية فاتجه البرتغاليون أولاً إلى القطيف فدمروا القلعة وأحرقوا المدينة بعد نهبها[٢٧]، ثم توجه الأسطول البرتغالى إلى البصرة إلا أنهم عجزوا عن احتلال الميناء حيث أقنع والى البصرة الجديد القائد البرتغالى بعدم ضرب الميناء فعادت الحملة إلى جزيرة هرمز وربما يرجع فشل البرتغاليين إلى أسباب أخرى منها: حصانة ميناء البصرة وعدم سهولة سقوطه وخشية القائد البرتغالى من طول الحصار وتمرد جنوده عليه، ولكن العثمانيين اعتبروا العدوان البرتغالى عدوانًا عليهم وعلى ممتلكاتهم لتبعية هذه المناطق لحكومة الأستانة[٢٨]، لقد عانت منطقة الخليج من اضطهاد الحكام البرتغاليين والإسبان مما كان دافعًا لتطوير بعض رجال البحرية العثمانية لمقاومة الأسبانيين فى البحر الأبيض المتوسط، وفعل ذلك أيضًا بحارة آخرون فى الخليج باسم الجهاد الدينى ومن أشهر هؤلاء الرجال العثمانية بيريك الذى اختارته الدولة العثمانية لقيادة حملة بحرية انتقامية مما زاد فى الهجوم البرتغالى على القطيف والبصرة عام ١٥٥٠م فتجهز بأسطول من ثلاثين سفينة تحمل ١٦ ألف رجل[٢٩]، سمع البرتغاليون بالحملة فسادت مستعمراتهم وحصونهم حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، فأرسل

القائد البرتغالى فى هرمز «أنطونيو ثورتها» بعض سفنه الاستكشافية لتحديد مواقع السفينة العثمانية للقضاء عليها قبل وصولها إلى أهدافها، ولكن عدم استقرار السفن العثمانية فى مكان واحد لمدة طويلة جعلها تفلت من تلك المتابعة إذ كانت خطة العثمانيين مفاجأة الحاميات البرتغالية والاستيلاء على ما فى حوزتها من معدات ومواد غذائية تم الانتقال بسرعة إلى أماكن أخرى لنفس الهـــدف[٣٠]، ثم اتجه الأسطول العثمانى إلى مسقط معاصر لها وهى الميناء الثانى بعد هرمز للبرتغاليين وضع المؤن والذخائر عنها وكانت الحامية البرتغالية قد أحاطت وأجلت العائلات البرتغالية من قاعدة مسقط إلى هرمز وظل الجنود وعددهم ستون جنديًا بقيادة جوادى لزيوا Joade lisboa فى القلعة الحصينة فصمدوا أمام قذف المدفعية العثمانية والقنابل لمدة ثمانية عشر يومًا. وبعد أن فقد البرتغاليون الأمل فى وصول الإمدادات إليهم ونفد طعامهم وذخيرتهم استسلموا وقبض العثمانيون على رجال الحامية وأطلق سراح البعض مقابل فدية[٣١]، واستخدم القائد البرتغالى وبعض جنوده فى تسيير السفن ولكن القائد البرتغالى جوادى لزيوا استطاع الهرب بعد أن نصح بيريك بالتوجه إلى البصرة وذلك عند وصول الأسطول إلى البحرين فكان ذلك سببًا فى استدعاء بيريك إلى القسطنطينية ومحاكمته والحكم عليه بالقتل فيما بعد وذلك بالإضافة إلى أسباب أخرى تم إدانته فيها. وكان بيريك قد توجه بأسطوله إلى جزيرة هرمز، وقد عمل القائد البرتغالى دى الفاروزى الاحتياطات الكاملة للدفاع عن القلعة برجاله البالغ عددهم تسعمائة رجل ومعهم مقادير الأسلحة والمواد الغذائية والمياه الكافية لمدة طويلة، وعندما وصل الأسطول العثمانى إلى جزيرة هرمز بادر رجاله بالنزول إلى البر وأخذوا يقذفون القلعة من كل اتجاه لمدة عشرين يومًا إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، بل تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات، وأخيرًا انسحبوا إلى جزيرة قشمة.

وصف فاريا سوسا هذه المعركة وصفًا شيقًا بقوله: «عند وصول العثمانية من جزيرة هرمز، رست سفنهم ونزل جنودهم إلى البر، ثم رفعوا بطاريات المدفعية وثبتوا مدافع كبيرة وأخذوا يطلقونها بعنف ودون توقف لمدة شهر واستمر حصار

القلعة مدة عشرين يومًا، ولكن العثمانيين يأسوا من إخضاع القلعة بجانب أنهم تكبدوا خسائر كثيرة فى جنوده وأسلحتهم».

ثم اتجه الأسطول العثمانى إلى جزيرة قشمة متعقبين البرتغاليين هناك، فأحدثوا فيها ما أحدثوا فى مسقط وهرمز، ثم انسحبوا منها بعد أن سمع بيريك من تحرك أسطول برتغالى من جوا فاتجه إلى قاعدته فى البصرة ليستطيع الصمود أمام أسطول العدو القادم من الهند ومعرفة حجمه.

كانت هناك نظرتان متباينتان من قِبَل أهالى منطقة الخليج للعثمانيين، النظرة الأولى تعتبرهم حماة العالم الإسلامى ضد أطماع البرتغاليين المسيحيين، ونظرة ضيقة كانت تعتبر العثمانيين لا يقلون خطرًا عن البرتغاليين(٣٢)، وعندما شعر البرتغاليون فى الهند بتهديدات العثمانيين لمستعمراتهم ونشاط بيريك البحرى ضد حامياتهم فى منطقة الخليج. أعد القائد البرتغالى «فيسروى نورنها» أسطولا وخرج به من جوا فى سبتمبر ١٥٥١م لإنقاذ جزيرة هرمز، وبوصوله إلى هناك كان العثمانيون قد انسحبوا من المنطقة فعاد القائد البرتغالى بأسطوله إلى جوا دون قتال ولكن العثمانيين كرروا حملاتهم على الحاميات البرتغالية فى الخليج مرة أخرى بقيادة مراد بك الذى كان قائدًا للحامية العثمانية بالقطيف(٣٣)، كان مراد يطمع فى أن يستعيد ثقة السلطان به ويثبت جدارته فى الحروب بعد إخفاقه فى الحفاظ على قلعة القطيف العثمانية، وكانت حملة مراد بك مكونة من خمس عشرة سفينة أبحرت من ميناء البصرة إلى جزيرة هرمز، ولكن البرتغاليين كانوا قد نصبوا لها كمينًا فى وسط الخليج بقيادة القائد البرتغالى ديجودى نورونها، فالتقى الأسطولان ودارت بينهما معركة لم تسفر عن نتائج حاسمة بالنسبة لأى من الطرفين، فعاد مراد بك أدراجه إلى البصرة(٣٤)، ورغم النكسات المتتالية التى أصابت الحملات العثمانية فى مياه الخليج إلا أن السلطان العثمانى قد ازداد تصميمًا على مواجهة البرتغاليين فى الأماكن الإسلامية، ففى عام ١٥٥٣م جهزت حكومة الأستانة حملة أسندت قيادتها إلى البحار مشهور، هو على شلبى الذى سبق أن تمرس على المعارك البحرية فى البحر المتوسط تحت قيادة خير الدين برباروس وتمتع بسمعة طيبة

فى الحروب البحرية، علاوة على موهبـــة طبيعـــية ثقافية شمرية[٣٥]، ووصــل على شـلبى إلى البصرة وأعد أســطوله وعندما علم القــائد البرتغالى فرناند دى مــنــزى Fernandez de manezet بنبأ هذه الحملة، وتأكد له أن العثمانيين يشكلون خطرًا على المستعمرات البرتغالية فى الخليج وشرق آسيا على وجه العموم، دبر خطة للقضاء على هذا الخطر القادم توجه فعلا على سبكى إلى جزيرة هرمز[٣٦]، فاقبل أسطول برتغالى من الهند للمواجهة وانتشر جواسيس البرتغال فى كثير من الأماكن وقد تخفى معظمهم فى زى صيادى السمك ونقلت الأخبار إلى القائد البرتغالى أخبار الحملة العثمانية فأرسل سفنه الحربية الكبيرة إلى مسقط وترك فى عرض الخليج أربعين سفينة لمراقبة تحركات الأسطول العثمانى، وعندما علم القائد البرتغالى أن العثمانيين اتجهوا إلى مسقط سار خلفهم وبعد ما أجبر الأسطول العثمانى الحامية البرتغالية على الانسحاب إلى الداخل وألحق بهم خسائر كبيرة إلا أن وصول البرتغاليين بسفنهم ألحقت خسائر فادحة وأغرق معظم السفن العثمانية مما جعلهم ينسحبوا إلى سورات فى الهند، وكانت هذه المعركة[٣٧]، من أكبر المعارك التى دارت بالمنطقة بعد أن استطاع البرتغاليون فيما قبل تحطيم قلاعهم فى مياه الخليج، وبذلك حقق القائد البرتغالى فرناندى منزى إحراز نصر عظيم على العثمانيين فعادت الثقة للبرتغاليين بأنفسهم، وخضعت لهم المنطقة بأسرها مرة أخرى بعد أن كان قد تزعزع مركزهم واستطاعوا قمع الحركات التى كانت تقوم ضدهم من الأهالى، فساد الهدوء النسبى لفترة قصيرة إلا فى البحرين التى استمر فيها ظهور حركات المقاومة بين وقت وآخر، وربما يرجع ذلك لبعدها عن جزيرة هرمز، وللوحدة الداخلية بين أهلها[٣٨]، عمل البرتغاليون على القضاء على العثمانيين فى الخليج نتيجة لهذا الانتصار الذى تحقق أمام مسقط فأعدوا حملة بحرية كبيرة فى سنة ١٥٥٦ واتجهوا بها إلى البصرة القاعدة العثمانية البحرية المهمة، وذلك بحجة تبعية الميناء لجزيرة هرمز ولكن لرداءة حالة الجو فشلت حملتهم وعادت إلى هرمز دون تحقيق نجاح فى البصرة، ورغب العثمانيون فى الاستفادة من حركات المقاومة المحلية، فوجهوا حملة إلى البحرين سنة

١٥٥٩م لإدراكهم تحركات الريس مراد، وكان يتبع أمير هرمز وتحت إمرته حامية مكونة من ٣٠٠ فارس، تصدى للعثمانيين ومنعهم من احتلال بلاده، واستنجد بالقائد البرتغالى فى هرمز، فجاءت نجدة بحرية اشتبكت مع العثمانيين فى معركة حامية ولكن تغلب العثمانيون على البرتغاليين وبلغ عدد قتلاهم سبعين رجلا، أرسل البرتغاليون أسطولاً إلى البحرين بعد سماعهم بما حدث لحاميتهم فى البحرين على يد العثمانيين الذين حاولوا الانسحاب ولكن البرتغاليين لحقوا بهم وجرت مفاوضات بموجبها ينسحب العثمانيون سالمين بعد دفع عشرة آلاف دوقة وتسليم الأسرى البرتغاليين وترك الأسلحة. ولكن حرص العثمانيين على الاحتفاظ بمواقع إقدام فى البحر الأحمر على الأقل، فعهد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤م) بحملة بحرية بقيادة سنان باشا إلى اليمن فى عام ١٥٦٩م لاستعادته من أيدى المطهر ابن الإمام شرف الدين الذى كان قد نجح فى إخراج العثمانيين من جميع ممتلكاتهم فى اليمن ما عدا الزبير، وقد بين السلطان سليم الثانى أنه يرغب من حملته للحفاظ على ميناء عدن صونًا للحرمين الشريفين من الكفار الملاعين[٣٩]، وترتبط رغبة العثمانيين على البقاء فى اليمن بحرصهم وإدراكهم ذلك بالتواجد العثمانى عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى، وارتباط ذلك بالتواجد العثمانى فى البلاد العربية بوجه عام. وقد امتد نضال العثمانيين ضد البرتغاليين إلى الساحل الشرقى لإفريقيا فقد أرسل السلطان العثمانى مراد الثانى (١٥٧٤ - ١٥٩٥) القائد البحرى ميرال بك Mirale Bey فى سنة ١٥٨٨م بقوة لتخليص البلاد الإسلامية على الساحل الشرقى لإفريقيا من السيطرة البرتغالية، وقد قوبل القائد العثمانى بابتهاج من قبَل سلطان الإمارات الإسلامية فى «غشقر وبراو وقسيما يد» إذ نظروا إليه نظرة المخلص من يد الأجنبى وفضلوا الخضوع للعثمانيين المسلمين عن الولاء للبرتغاليين لم يستطيعوا أن يحتفظوا بهذه البلاد بقوات تثبت وجودهم وتحمى السكان من إغارات البرتغاليين الذين ما لبثوا أن استعادوا سلطاتهم وانتقموا من السكان الذين أظهروا ولاءهم للعثمانيين، وقد فشل العثمانيون فى تشكيل اتحاد عربى إسلامى لمقاومة البرتغاليين، كما أهملوا

قواعدهم فى الخليج العربى مما أتاح الفرصة للعرب هناك بالاحتفاظ باستقلالهم[٤٠].

وفى عام ١٥٨١ جهز العثمانيون آخر حملة لاستعادة مسقط، وقد أعد هذه الحملة والى اليمن مرآة الزمان، وكان إيطاليًا واعتنق الإسلام، وأسند قيادتها إلى مير على بك، الذى أغار على مسقط وسلط عليها المدافع الثقيلة من البحر بينما الأهالى المسلمون يشاركون فى الهجوم على الحامية البرتغالية من البر، وبذلك تحقق النصر ضد البرتغاليين، إلا أن العثمانيين انسحبوا فجأة من عدن خوفًا من قدوم أسطول برتغالى إلى الميناء[٤١]، وتعتبر هذه المعركة خاتمة الحلقات التى خاضها العثمانيون ضد البرتغاليين فى الخليج فى القرن السادس عشر، واستطاع على بك تحطيم قوة البرتغاليين والاستيلاء على إحدى سفنهم التى كانت ترسو[٤٢]. على ضوء هذا يمكن تلخيص أوضاع العثمانيين البحرية فى البحار العربية فى النقاط التالية:

١ ـ قيدت حركة العثمانيين فى إرسال حملات كبيرة للقضاء على البرتغاليين فى الهند أو المحيط الهندى أو البحار العربية، وأصبح نشاطهم محدودًا لا يتعدى منطقة مدخل البحر الأحمر الجنوبى، وأصبح مهمتهم إغلاق البحر الأحمر لحماية الحرمين الشريفين وباقى السواحل العربية داخل هذا البحر.

٢ ـ ازدياد أهمية اليمن العثمانية باعتبارها قاعدة دفاعية أمامية للدفاع عن ممتلكاتهم فى البحر الأحمر، ولتعويض ضعف قوتهم البحرية، مما دفعهم إلى تدعيم سيطرتهم على اليمن، كما حدث من إرسال حملة سنان باشا الكبيرة التى أشرنا إليها، وكذلك اهتمامهم بإرسال الإمدادات إلى ولاتهم فى اليمن.

٣ ـ استهدفت خطة العثمانيين فى المياه الشرقية غلق البحر الأحمر من قطع الاتصال بين الحبشة والبرتغاليين، وتطهير السواحل العربية الجنوبية من الجيوب البرتغالية.

٢ - علاقة أسرة الأفراسياب فى البصرة بالبرتغاليين والقوى الأخرى فى المنطقة

تعتبر أسرة الأفراسياب إحدى القوى العربية المحلية التى حققت استقلالاً فعليًا عن كل العثمانيين والفرس، وللطبيعة الجغرافية فى البصرة موقع هذه الأسرة لم يكن مجال للاحتكاك العسكرى بينها وبين البرتغاليين.

وتركز النشاط البرتغالى فى هرمز ومسقط والبحرين على سياسة السيطرة العسكرية بينما اقتصرت على الناحية التجارية وبناء الأديرة لطائفة الكرملين والأغسطنين بالبصرة، وقد زادت أهمية هذه المنطقة للبرتغاليين عندما تدهور حالهم فى الخليج، فكانت فكرتهم فى التحول بتجارتهم الشرقية إلى الطريق القديم فى مسقط فالبصرة ومنها بالقوافل عبر وادى الفرات فالصحراء إلى حلب. وقد عرف الأوروبيون هذا الطريق بعد أن سلكه البرتغاليون، ولكن البنادقة كانوا أسبق إليه قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فلم يكن جديدًا تمامًا على أوروبا.

وكانت البصرة كبقية المدن العراقية تابعة للباب العالى، إلا أن سيطرة الدولة العثمانية على هذه المدينة لم تكن كاملة(٤٣) وقد قدم أفراسياب عام ١٦١٢ إلى ميناء البصرة وكان يعمل ضابطًا بالجيش العثمانى، واشترى البصرة من الباشاوات المحلية وأعلن نفسه حاكمًا عليها مستقلاً فى إدارتها وخلفه أبناؤه وأحفاده، وقد رفض التعامل مع البرتغاليين فى أول الأمر، ومنع السفن البرتغالية من دخول الميناء، ولكن جرت اتصالات بين مسقط والبصرة منذ عام ١٦٢٣ عند اتساع القاعدة البرتغالية فى مسقط(٤٤) وجرى أول اتصال بين البرتغاليين وعلى باشا حاكم البصرة فى ٣٠ إبريل ١٦٢٣م أى بعد سقوط هرمز بحوالى سنة عن طريق بعثة الكرملين التى أرسلت من أصفهان إلى هناك برئاسة القس فرانسسكوا لجمع الصدقات والتبرعات، بعد أن تهدمت أديرتهم فى هرمز، وقد منحهم الباشا مساعدات مالية كبيرة تعويضًا عما فقدوه فى فارس، فلم يكتف القس لايزن بالمساعدات المالية بل طلب من الباشا السماح لهم ببناء الأديرة

والكنائس وحق إقامة الطقوس، ووعده الباشا بتحقيق رغباته خاصة إذا ما اتصل لايزيد بنائب الملك فى جوا ليبلغه بترحيبه بالسفن البرتغالية إذا توجهت إلى البصرة، ولم تشاهد بعثة الكرملين فى هذه المرحلة وجود أية سفينة برتغالية فى ميناء البصرة فى هذا الوقت.

إلا أن مصادر الأساقفة الأغسطنين تشير إلى وجود اتصالات قبل تلك الفترة حيث لاحظوا وجود عدز من السفن البرتغالية وربما يرجع ذلك لتطوير الملاقات فوجدت بضائع فى البصرة واردة من مسقط، وقد شوهدت السفن البرتغالية الراسية فى ميناء البصرة فى ١٩ أغسطس ١٦٢٣م(٤٥)، وربما رأى على باشا فى هذه الاتصالات مع البرتغاليين وإنشاء وكالات ومؤسسات تجارية فى مينائه هو السبيل المؤدى إلى ازدهار مدينة ونهوضها. كما يرجع سروت بقدوم البرتغالهين استجابة لطلبه منهم المساعدة ضد الغزو الفارسى أو العثمانى لبلاده، وكان الخلاف قد نشأ بين فارس والدولة العثمانية عقب سقوط هرمز حيث اتجه الشاه عباس بعد فتح قندهار عام ١٦٢٣ لإخضاع العراق لنفوذه فخشى على باشا أفراسياب من احتلال فارس لبغداد، حيث سيكون للفرس فرصة التحكم فى جميع أنحاء العراق وروافد أنهاره، فتفقد البصرة أهميتها، وسيكون كذلك للفرس إيقاف القوافل التى تربط البصرة بحلب، وكان للطريق البرى شهرته التاريخية منذ قديم الزمان، إلا أن على باشا لم يدخل فى الصراع القائم بين العثمانيين والفرس والاستفادة بنتائج المعارك بين الطرفين، ولكن بعث حاكم فارس رسالة إلى على باشا فى عام ١٦٢٣ يطلب فيها أم يعلن تبعيته لفارس بعد أن خضعت لهم بغداد، وحذره من التعامل مع البرتغاليين أو السماح لسفنهم بارتياد ميناء البصرة فخشى الباشا من التهديدات الفارسية ضده، فطلب المساعدة من البرتغاليين ضد التهديد الفارسى للبصرة فأرسل القائد البرتغالى روى فراير نجدات عسكرية تشتمل على خمس سفن بحرية(٤٦)، ولكن قبل وصولها إلى البصرة وقف أمامها على باشا رغم قيادة حاكم فارس نفسه للحملة وأثبت شجاعة وصد هجوم الفرس على بلاده رغم الحصار الذى فرضه حول المدينة، وعند وصول السفن البرتغالية اضطر حاكم فارس للانسحاب مؤقتًا. انتشرت أنباء أهمية ميناء البصرة فى التجارة البرتغالية بعد سقوط هرمز، وفى

الوقت نفسه أرسل وكيل شركة الهند الشرقية فى مارس ١٦٢٤ م تقريرًا إلى وكيل الشركة فى سورات ورد فيها «إن البرتغاليين حصلوا على امتيازات من على باشا حاكم البصرة، حيث سمح لهم بإنشاء عدد محدد من الأديرة والكنائس وشرعوا فى بناء قلعة برتغالية حصينة هناك[٤٧]، وكذلك بعث نائب القنصل الهولندى فى حلب رسالة إلى أمستردام ذكر فيها إن ميناء البصرة هكذا بالنسبة للبرتغاليين، وإن سفنهم التجارية تتوالى على هذا الميناء بصفة مستمرة وذلك فى سنة ١٦٢٥م».[٤٨]

ونرى سرعة نمو الاتصالات والعلاقات بين البرتغاليين والأفراسياب كانت نتيجة طيبة لدرء الأخطاء التى عرضت لها هذه الأسرة فى ميناء البصرة المهم وتلك الأطماع التى واجهتها من الدولة العثمانية والفرس على السواء إلا أن الخطأ هو الاستعانة بدولة مسيحية ضد أطماع الدولتين الإسلاميتين، وقد وجد البرتغاليون الفرصة بعد سقوط هرمز ورغبتهم فى اتخاذ البصرة مركزًا لعبور بضائعهم الشرقية التى ترد من الهند عن طريق مسقط إلى حلب عبر الطريق البرى مع اعترافهم بتبعية البصرة للدولة العثمانية مع تمتعها بنوع من الاستقلال. وعدم الرغبة فى الدخول فى صراع مع الدولة العثمانية، وزادت وتوالت السفن التجارية البرتغالية فى الوصول لميناء البصرة ووجود رغبة قوية عند الباشا وحماسه لاستقبال البرتغاليين والترحيب بهم بإطلاق المدافع فى إبريل ١٦٢٥م تحية لاثنتى عشرة سفينة وصلت الميناء[٤٩]، ولكن الشاه عباس حاول حرمان البصرة من هذا النشاط الاقتصادى الذى قد يضر بالموانئ الفارسية بإغلاق هذا الطريق حيث لاحظ ازدهار ميناء البصرة خلال فترة قصيرة نتيجة لإقبال السفن البرتغالية لسلك الطريق الصحراوى من البصرة إلى حلب بالقوافل، فبذل جهدًا كبيرًا فى تحريض البدو القاطنين على جانبى الطريق ضد القوافل البرتغالية إلا أنهم رفضوا مطالب الشاه، لرغبتهم فى استمرار حصولهم على الأتاوات والضرائب على القوافل التجارية المارة بمناطق نفوذهم[٥٠] لجأ الشاه إلى المسئولية فى شركة الهند الشرقية بعد فشله فى كسب ود البدو لخطته طالبًا مساندته لاحتلال البصرة وضرب المصالح البرتغالية، وقدم الطلب لمندوب الشركة فى بندر عباس سنة ١٦٢٥م رفض الإنجليز مساندة

الشاه بحجة أنهم مكلفين بضرب القواعد البرتغالية فى هرمز من قبل ملك إنجلترا وعدم التدخل فى البصرة أو شط العرب والحفاظ على العلاقات القائمة بين الإنجليز والعثمانيين، مما أدى إلى غضب حاكم فارس فحرم السفن الإنجليزية من المرابطة أمام شواطئ هرمز مستندًا إلى نصوص اتفاقية بين الإنجليز والفرس سنة ١٦٢٢م وتم الصلح بين البرتغاليين وفارس عام ١٦٢٥ وبموجبه سحب البرتغاليون سفنهم الحربية من البصرة وامتنعوا كذلك عن تقديم المساعدات الحربية لحاكم البصرة، وانتهز حاكم فارس فرص تخلى البرتغاليين عن على باشا حاكم البصرة فجهزوا حملة بقيادة قلى خان لإخضاع المدينة فى أوائل عام ١٦٢٩ ولكن تمكن على باشا من الصمود أمام الغزاة لميناء البصرة ولحسن الحظ توفى الشاه عباس أثناء حصار الفرس لميناء البصرة وصدرت تعليمات القائد الفارسى إلى قواته بالانسحاب والعودة إلى بلاده ثانية[٥١]، وقد ظفرت الشركات الأجنبية الأوروبية بامتيازات جديدة من حاكم فارس الجديد فى يناير ١٦٢٩م حيث عقدت فى ديسمبر ١٦٣٠م[٥٢] اتفاقية تجارية بين فارس والبرتغاليين لإقرار اتفاقية ١٦٢٥م التى حصل البرتغاليون بموجبها على تسهيلات كبيرة فى ميناء كنج، وربما رغب الفرس بهذه الاتفاقية إلى تحويل التجارة وعبورها من الساحل العربى والبصرة إلى الساحل الفارسى ولكن الضمانات التى منحها حاكم البصرة للسفن البرتغالية باتفاقية ١٦٣٠م حيث أنشأ البرتغاليون العديد من المؤسسات التجارية فى البصرة يصعب إهمالها، كما أن عدد السفن التى كانت راسية أمام ميناء البصرة فى أغسطس ١٦٣٠ بلغ خمسًا وعشرين سفينة، وفتحت أسرة الأفراسياب أبواب البصرة وممراتها المائية لوكلاء الشركات الأجنبية وأساطيلها التجارية على اختلاف جنسياتها بالرغم من تهديدات الدولة العثمانية والفارسية لحاكم البصرة الذى صمد أمام هذه التهديدات مدة طويلة مما أدى إلى ازدهار الحركة التجارية فى الميناء، وإن كان ذلك يأتى فى أهمية بعد ميناء بندر عباس وقد وصف فيلبس تريناني الذى زاره عام ١٦٣١م، ثم كرر الزيارات عام ١٦٤٠ فقال: إن مدينة كنج قد تغيرت واتسعت وبعد أن كانت تعتمد فى المعيشة على صيد السمك، إذا بها ذات أهمية تجارية عظيمة[٥٣].

الهوامش :

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور): الفتح العثمانى الأول لليمن ص ٩٧ .

(٢) عباس الغزاوى تاريخ العراق بين الاحتلالين، ج٤ ص ٤٤ .

(٣) Richard Knolles: The Turkish history, from the original of that nation to the Growth of the Otoman Empire, Vol, 1, p. 451.

(٤) Hammar, J.: History de L. Empire otoman, Tome 5, p. 310.

(٥) زين الدين المليارى: تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين، ص ٥٨ .

(٦) المرجع السابق، نفس المكان.

(٧) بجوى إبراهيم باشا، تاريخ بجوى «اللغة التركية» ج ١، ص ٢٢٠ .

(٨) J. De Hammar, 1.: Histoere de L. Empire Otreman: Depuis sonorigine Jnsq, .anos jours,

(٩) قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة) ص ١٥ ب .

(١٠) انظر محمد بن أبى سرور البكري: المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (مخطوطة) ص ٥٢ .

(١١) زين الدين النحريرى الحنفى: فى مدح الوزير محمد (مخطوطة) ص ٢١ .

(١٢) انظر عيسى بن لطف الله: روح الروح (مخطوطة) ج ١، ص ٧٠ ب.

(١٣) قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوط، ص ١٨ أ).

(١٤) Serjeant, R. b. ibid, p. 59, (unidentified manuscript).

(١٥) قطب الدين: المرجع السابق، ص ١٨ ب.

(١٦) بجوى إبراهيم باشا، تاريخ بجوى (باللغة التركية) ج١ ص ٢٢٢ .

(١٧) Ross E. Denison: The prougesein India and Arabia, J.R.A.S., part: January 1922, p. 17.

(١٨) قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوط، ص ١٨ أ).

(١٩) Serjeant, R.B. Ibid, p. 95, (unidentified manuscript).

(٢٠) قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى.

(٢١) Haji Khalifeh: The History of the Haritime were of the turks, p. 66.

(٢٢) Ross E. Dension: the porugesein India and Arabia, J.R.A.S., January, 1922, p. 17.

(٢٣) قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى.

(٢٤) وليام لانجر، الموسوعة التاريخية، ج٤، ص ١٢٦ .

(٢٥) سيد مصطفى يالم (دكتور) المرجع السابق، ص ١٤٧ .

(٢٦) لوريمر، دليل الخليج ج١، ص ١٧ .

(٢٧) لونكريك: تاريخ الطرق الحديثة، ص ٤٠ .

(٢٨ – ٢٩) بريسيهاى تاريخى السنة الثانية عشرة، العدد ٣ .

Sarta do vicarin Dindia, no. 160.

(٣٠) بريسيهاى تاريخى السنة الثانية عشرة – العدد الثانى، ص ٤٥ .

(٣١) Wilson op.cit., p. 125.

(٣٢) محمود على الدواد (دكتور) المرجع السابق، ص ٧ .

(٣٣) Belgrave, op. cit., p. 8.

(٣٤) Dennis R. obock, Musc at, Bauchaire, Barsarah, Paris, 18, p. 127, London 1883.

(٣٥) عباس إقبال «قسمى ازماجراى خليج فارس، مجلة باركلر/السنة الرابعة، العدد الثالث ص ١٩

(٣٦) Sidi Alireis: The Travels and Adventures, p. 9.

(٣٧) Ibid: 11-12-14.

(٣٨) Mile S.b. The countries and p. Tribes of the persian Gulf, p. 177.

(٣٩) قطب الدين: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوطة)، ص ١٥٣ .

(٤٠) Couplad R. East of rica and its Indaders, p. 59.

(٤١) صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ٢١ وعباس إقبال، المرجع السابق، ص ١٢١ .

(٤٢) Serjeant, R.B. Tortugese off the south Arabian coast, p. 111. (86-61).

(٤٣) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٢٠٤.

(٤٤) Landjvigg (Stephen, Four Coniures of Mondern trag p.p.97, 101.

(٤٥) Chreoniche of the Cormelites in Persis and the Papai rission of the 17 The and 181.

(٤٦، ٤٧) صلاح العقاد (دكتور) التيارات السياسية فى الخليج العربى ص٢٥.

(٤٨) Ereensgeand. of. cit p.356

(٤٩) Enghish factariesin Persia,1 624 - 290 p.p. 42 - 45.

(٥٠) Ibid. 624 - 290 p.p. 42 - 45.

(٥١) دائرة المعارف الإسلامية ج٣ ص ٥٧٨.

(٥٢) محمد عبد إبراهيم بيكن، جلوش شاه صفوى ص ٤٥١، مخطوط فارس ٥٥ Add.

(٥٣) Steensgard. Op. cit. p.356.

الفصل الثالث

علاقة الدولة الصفوية وهرمز بالبرتغاليين فى الخليج

١ - الدولة الصفوية وعلاقتها بالبرتغاليين فى الخليج.

٢ - هرمز بين التواجد البرتغالى والتحرير.

الدولة الصفوية وعلاقتها بالبرتغاليين فى الخليج:.

ينتسب الصفويون إلى جدهم الأكبر الشيخ صفى الدين الأردبيلى (١٢٥٣ - ١٣٣٤م) وقد اتجه فى شبابه إلى حياة الزهد والتقوى واعتنق المذهب الشيعى الجعفرى واتخذ التصوف دعوته، فالتف حوله مريدون عديدون فى إيران وآسيا الصغرى والعراق والشام، وكوّن من أتباعه فرق الدراويش التى انتشرت فى العالم الإسلامى وأخذت تدعو إلى اعتناق المذهب الشيعى وسلوك طريقة مؤسسها الشيخ صفى الدين فى التصوف، ومن بين أهداف هذه الجماعة محاربة الفساد الذى انتشر فى إيران أيام حكم المغول لها. وتزعم مقاومة تلك الدعوة أسرة أمة قويونلو السنية والدولة العثمانية، ولكنها وجدت أرضًا خصبة فى إيران نفسها حيث ينتصر أهل تلك البلاد لآل البيت منذ فجر الدعوة الإسلامية، لذلك تقبلوا المذهب الشيعى وتمسكوا به، نتيجة لسوء الأوضاع فى بلادهم من ناحية وانتشار دعاة الخلافة الفاطمية فى البلاد من ناحية أخرى، وبمرور الوقت تحولت تلك الدعوة الدينية إلى كتلة سياسية قوية أسست دولة امتدت من (١٥٠٢م - ١٧٣٦م) وبلغت قوتها فى عهد الشاه إسماعيل الأول الذى وجه اهتمامًا كبيرًا للأمور السياسية والشئون العسكرية معًا، وتوج ملكًا على إيران عام ١٥٠٢ ولقب بالشاه وهو أول من لقب بملك فى هذه الدولة[1]، استمد الشاه إسماعيل القوة للوصول إلى العرش من أتباع والده من القبائل التركية التى انضمت إليه، فألف منهم جيشًا قويًا مكونًا من سبعة آلاف مقاتل، أطلق عليهم القزلباش، وفى بداية حكمه

اشتبك مع أسرة سنية محلية استقرت فى إقليم ديار بكر وامتد نفوذهم إلى جنوب فارس والخليج، وغربًا حتى بغداد. وقد قضى الشاه إسماعيل على هذه الأسرة واستولى على ممتلكاتها وعاصمتها تبريز سنة ١٥٠٣م واتخذ من تبريز مقر الحكم، وفرض المذهب الشيعى على الإيرانيين بالقوة، وبلغ من تعصبه فى تنفيذ ذلك إلى درجة القتل والتعذيب والتنكيل لكل رافض للتشيع، بل طلب من السلطان العثمانى السماح لأتباعه بنشر المذاهب فى الأقاليم التركية، فظهرت الخلافات فى إيران بين السنة والشيعة وكثرت حركات الانفصال فضلاً عن الخلاف مع الدولة العثمانية وهجرة أعداد من الإيرانيين من السنة إليها[٢] ساد التوتر فى العلاقات بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية ولكن انشغل الشاه إسماعيل مؤقتًا بالأوضاع الداخلية فى إيران مما ساعد على اتجاه الفتوحات العثمانية إلى أوروبا فى عهد بايزيد العثمانى فاستغل الشاه إسماعيل الفرص لمحاربة منافسين فى الداخل والقضاء عليهم[٣] لم تستمر العلاقات الطيبة طويلاً بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية إذ وصل إلى بايزيد أن الشاه إسماعيل يحاول التحالف مع سلاطين مصر ضد الدولة العثمانية، كما سمع بالمعارك الحامية بين الصفويين والأمة قويونلو الذين فقدوا دولتهم ومناطق نفوذهم لصالح الدولة الصفوية، مما زاد العلاقات سوءًا الاضطهاد الواقع على أهل السنة فى إيران نفسها لإجبارهم على الدخول فى المذهب الشيعى ولكن الخلاف لم يتسع فى عهد بايزيد إذ استجاب الشاه لطلب بايزيد بمعاملة السنة بأسلوب أحسن[٤] ولكن عندما تولى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٢م تغيرت الأحوال حيث بدأ التحرش بالشيعة فى آسيا الصغرى وطلبه الجهاد ضد سياسة شاه إيران وأعد جيشًا والتقى مع الإيرانيين فى شالديران فى ٢٣ أغسطس سنة ١٥١٤م ودار القتال بينهما وانتهى بهزيمة الجيش الفارسى.

وانقسم أهل الخليج نتيجة لهذا الصراع بين سنة وشيعة ولجأ كل فريق إلى إحدى القوتين الزعيمتين للعالم الإسلامى السنة للدولة العثمانية والشيعة للشاه إسماعيل وبذلك تأصلت الانقسامات المذهبية فضلاً عن السياسة مما أضعف قدرة سكان الخليج فى مقاومة البرتغاليين فكانت بلادهم فريسة سهلة لهؤلاء

الغزاة وقد عاصر التواجد البرتغالى وجود الدولة الصفوية فى إيران وكان المتوقع أن تتصدى هذه الدولة القوية للغزو الأجنبى قبل غيرها من القوى المحلية الأخرى إلا أنها منطقة الخليج، ولكن بعد احتلال البرتغاليين لجزيرة هرمز سنة ١٥٠٧م أرسل الشاه إلى أمير هرمز يطلب منه دفع الخزانة ويعترف بتعيين هرمز إلى فارس، فما كان من أمير هرمز إلا أن سلم رسالة الشاه إلى القائد البرتغالى البوكيرك الذى رد بأن هرمز أخذت بقوة البرتغاليين وأنها تابعة لعرشهم، وهدد الأمير بعدم دفع الجزية للإيرانيين وإلا سيكون مصيره العزل من حكمه، وطلب من الأمير أن يرسل للشاه بعض طلقات المدافع والبنادق ويخبره أن الخراج الذى يدفعه ملك البرتغال هو ذاك، وأبلغ الشاه أنه بعد أن يكمل بناء القلعة البرتغالية فى هرمز، فستنتقل قوات البوكيرك إلى الموانئ الفارسية نفسها، ثم يطالب الشاه نفسه بدفع الجزية للبرتغاليين[٥]، ولكن لم يطمئن البوكيرك إلى تواجد قواته فى هرمز نهائيًا بسبب تمرد ضباطه وظلت قواته حتى عام ١٥٠٨م فى حالة استنفار تام مما أرهق الجيش فانتقل إلى جوا حيث عين قائدًا عامًا، ونائبًا للملك بالهند فى نوفمبر ١٥٠٩م [٦] بعد إقالة الميدا الذى سبق أن خسر جوا التى استردت وأصبحت عاصمة فى الشرق للإمبراطورية البرتغالية[٧] بعد أن رحل البوكيرك طلب الشاه إسماعيل من أمير هرمز إعلان تبعيته لفارس ودفع الجزية ووعده بالمساعدة ضد البرتغاليين فاستجاب أمير هرمز، وعندما علم البوكيرك بهذا التحول وهو فى طريقه إلى عدن بحملته التى سبق الإشارة إليها اتجه إلى هرمز حيث وصلته المعلومات من مسقط التابعة للبرتغاليين فى ذلك الوقت فاستطاع أن يقضى على الثورة فى هرمز التى تزعمها (رئيس حامد) فى الجزيرة وأخضعها ثانية للحكم البرتغالى سنة ١٥١٥م[٨]. عرض الشاه إسماعيل على البرتغال الصلح لعدم الرغبة فى الدخول فى حرب معهم وفضل تحسين علاقاته بهم فأرسل رسولاً إلى البوكيرك يهنئه بإعادة فتح هرمز ورغبته فى إقامة علاقات ودية بين الطرفين حيث أراد الشاه من وراء ذلك التفرغ للقضاء على حركة العصيان فى مكران وطلب المساعدة من البرتغاليين ضد العثمانيين فاستجاب البوكيرك وتم الصلح.

بشروط من أهمها:

١ ـ تساند البحرية البرتغالية القوات الفارسية فى استيلائها على البحرين والقطيف.

٢ ـ تعاون البرتغال الشاه فى القضاء على حركات الانفصال فى إقليم مكران.

٣ ـ قيام تحالف عسكرى بين البرتغال وفارس ضد الدولة العثمانية.

٤ ـ إعادة توران شاه إلى هرمز نائبًا للملك البرتغالى[٩].

تولى الشاه طهماسب الأول بعد وفاة الشاه إسماعيل فاتجه إلى الدخول فى الحروب ضد القبائل الإيرانية التى تحاول الانفصال عن الدولة كالأزبك فيما وراء نهر جيحون الذين استولوا على تبريز، كما انشغل بالحرب ضد الدولة العثمانية، ونتيجة لذلك لم يفكر فى مقاومة البرتغاليين الذى استعادوا هرمز واحتلوا عددًا آخر من الموانئ الفارسية لتفوُّق قواتهم البحرية أمام عجز القوة البحرية الفارسية[١٠]، ولكن فى أواخر القرن السادس عشر فقدت البرتغال استقلالها وضمت إلى إسبانيا سنة ١٥٨٠م فى عهد الملك فيليب الثانى. ومع ترك إسبانيا للبرتغاليين إدارة ممتلكاتهم فيما وراء البحار كما كانت قبل تلك التبعية إلا أن ذلك فى حد ذاته قد شكل نقطة مهمة كبداية لنهاية الإمبراطورية البرتغالية، ولكن فيليب الثانى ملك إسبانيا كانت لديه رغبة فى إنقاذ المستعمرات البرتغالية فى الشرق، فطلب من حاكم الهند أن يبعث رسولاً لمقابلة الشاه محمد خدابنده، حاملاً معه الهدايا، ورغبة الملك فى زيادة الروابط بين الدولتين ويطلب بعض الامتيازات فى أراضيه، ومن ذلك السماح بإقامة مراكز للتبشير بالديانة المسيحية فى كل أنحاء إيران، وأعرب هذا المبعوث عن رغبة حكومته فى الوقوف بجانب فارس ضد الدولة العثمانية. ويقول الأستاذ الدكتور عبدالعزيز نزار فى كتابه «تاريخ الشعوب العربية» ج١ص٥٨ «إن هذه السفارة وممثلها هو «سيمون مورالس» قد تمخضت عن نتائجه مهمة بالنسبة للبرتغاليين، حيث إن الشاه وافق على جميع الاقتراحات التى قدمها السفير الإسبانى، وعلاوة على ذلك فإنه أوفد من قبله سفيرًا إلى مدريد وإلى البابا فى روما، مؤكدًا بذلك حسن نواياه، إلا أن

السفينة التى كانت تنقل السفير قد غرقت أمام الشواطئ الشرقية لإفريقيا، ولذلك تجمدت العلاقات بين الطرفين مدة من الوقت، إلا أن أمراء القزلباش لم ترضهم سياسة الشاه محمد خدابنده واستسلامه للبرتغاليين فثاروا ضده فى سنة ١٥٨٧ وأجبروه على التخلى عن العرش فخلفه ابنه ميرزا عباس، عباس الأول، الذى يعتبر بحق من أعظم ملوك الأسرة الصفوية فى قوته وذكائه واستطاع أن يدعم سيطرته على قبائل فارسية أخرى غير القزلباش، واستعان بالأخوين الإنجليزيين أنتونى وروبرت شيرلى اللذين وضعا نفسيهما فى خدمة الشاه وذلك لتنظيم جيشه(١١) كما أن الشاه عباس استطاع أن يقضى على ثورة الأزبك واسترد بعض الأراضى الإيرانية التى احتلتها القوات العثمانية، إلا أن السير أنتونى شيرلى نصحه بأن يبعث مبعوثًا إلى كل الدول المسيحية فى أوروبا للتحالف بينه وبينها جميعًا. ولكن وصل إلى فارس مبعوث من السلطان العثمانى محمد الثالث، وعرض على الشاه الرغبة العثمانية فى التصالح بين الدولتين إلا أن الشاه قد رفض مجرد مقابلة المبعوث العثمانى(١٢) للتحالف مع الأوروبيين واختار لهذه المهمة «حسين على» وهو أحد المقربين لديه ليكون مبعوثه إلى أوروبا ومعه أنتونى شيرلى وذلك عام ١٥٩٩م وكل ذلك استجابة لنصيحة السير أنتونى شيرلى، وكذلك فقد أراد الملك فيليب الثالث أن يظهر حسن نواياه للفرس فطلب من حاكم الهند أن يرسل رسولاً آخر إلى الشاه الفارسى واختار لتلك المهمة أنتونى دوجوا Antoni de Gowea عام ١٦٠٢ فالتقى بالشاه فى مشهد، ورحب به الشاه ورحب بالتعاون مع الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية وبعد اطمئنانه على حسن نواياه واتفاق مصالحهما فى مخاصمة الدولة العثمانية فقرر إعلان الحرب على تلك الدولة(١٣)، ولكن قوات الشاه كانت تنقصها الأساطيل البحرية، وكان جزء كبير من جيشه مرابطًا على الحدود الإيرانية التركية. لذلك فكر فى التحالف مع دولة أوروبية أخرى تملك أسطولاً بحريًا قويًا تستطيع التصدى للبرتغاليين الذين اعتبرهم غزاة يجب طردهم(١٤)، واتضحت نوايا الشاه حين وافق على رأى أحد قواده وهو معين الدين باحتلال البحرين، وكان هذا القائد صديقًا لحاكمها ركن الدين مسعود فلمس منه الرغبة فى خروج بلاده عن التبعية لهرمز وبالتالى التخلص من الحكم البرتغالى البغيض، وقد قام بهذه المهمة إمام

قلى خان الذى كان يحكم أقلية فارس نيابة عن أبيه. وتم استيلاء الفرس على البحرين، عندما أصدر إمام قلى خان أميرو بأن تتوجه قوات إيرانية كانت متواجدة بقيادة الأمير يوسف شاه إلى البحرين لمساندة الخواجة معين الدين ولى وبذلك احتل الفرس البحرين فى ١٠١٠هـ ١٦٠١، وأعقب ذلك اشتباكات على الشاطئ الإيرانى بين البرتغاليين من جهة والإيرانيين من جهة أخرى وهاجمت الأخيرة كثيرًا من المواقع فى ميناء «جيرون وبندر عباس» وحاصرتها عدة مرات أخرى، وكان الحصار لتخفيف الضغط على البحرين التى حاولت القوات البرتغالية استردادها من الفرس، كما أن الفرس قد استطاعوا تحرير كـيش[١٥]، وأخيرا وصل السفير المبعوث الإسبانى أنتونى دوكواه Antoin de Gourea إلى إيران وطلب رفع الحصار عن جيرون وإعادة البحرين إلى التبعية البرتغالية، وتظاهر الشاه عباس بالقبول ولكنه أضمر ألا يستجيب لمطالب تضر بشخصه كحاكم مسلم[١٦] عندما شعر الملك الإسبانى فيليب الثالث بنهاية المستعمرات البرتغالية فى الشرق أراد إنقاذ الموقف المتدهور، فبعث بمبعوث آخر عام ١٦١٧ فوصل إلى فارس عن طريق جوا، برئاسة دون جارسيا Don Garcia de solvag وقد تواجد فى الوقت نفسه عدة سفراء أوروبيين آخرين منهم باركـر Barker السفير الإنجليزى، فسلم الشاه رسالة من الملك الإسبانى يعرض عليه إعادة العلاقات بين الطرفين إلى ما كانت عليه مقابل شروط قاسية، لا يعرضها إلا من كان يملك قوات بحرية متفوقة، ولعل ملك إسبانيا كان مستندًا إلى الحاميات البرتغالية العديدة المتناثرة فى الخليج ومن هذه الشروط:

أولاً: أن يرد الشاه عباس جميع الموانئ والمدن التى حررتها القوات الإيرانية من الاحتلال البرتغالى.

ثانيًا: أن يحتكر البرتغاليون تجارة الحرير الفارسى.

ثالثًا: ألا يمنح الشاه امتيازات تجارية إلى أية دولة أخرى غير البرتغال[١٧].

أخيرًا غير الشاه سياسته فانتهت حروبه مع الدولة العثمانية ومع الإنجليز وعدم التحالف مع الإسبان[١٨]، ورأى التحالف مع الإنجليز كقوة أوروبية قوية

جديدة فى المنطقة وبذلك انتهت البعثات والسفارات الإسبانية والبرتغالية إلى البلاط الفارسى حتى تم تحرير جزيرة هرمز[١٩] من أيدى البرتغاليين.

كانت هرمز أهم معقل برتغالى فى الشرق الأوسط بعد جوا فى الهند إلا أن أوضاع هرمز الداخلية كانت مؤشرًا بعدم دوام بقائها فى التجارة لحسابهم فى الوقت الذى عمل فيه القادة البرتغاليون فى التجارة لحسابهم الخاص، فجمعوا أموالاً طائلة خلال الفترة المحددة لهم بثلاث سنوات فى تلك المواقع، وأصبح لبعضهم سفن تجارية ضخمة تعمل لحساب مالكيها بجنوب المنطقة بين البحار الشرقية وأوروبا باستخدام الموظفين الحكوميين والجنود البرتغاليين المخصصين لحماية الجزيرة بينما يحصلون على مرتباتهم من حكومة لشبونة، كل ذلك أدى لاشتداد المنافسة لتولى المناصب القيادية فى جزيرة هرمز، بل كان الضباط والموظفون يسعون لشراء الوظائف ودفع الرشاوى، وأصبح الحكام شبه مستقلين ولا حاجة لهم للرجوع إلى نائب الملك فى الهند أو إلى لشبونة، فقد ذكر الفارودى نورونها Alvaro de Noronhe الذى كان قبطانًا لهرمز سنة ١٥٥١ أن القائد الذى سبقه وهو ليما Lima استطاع أن يجمع خلال فترة عمله مبلغ (مائة وأربعين بردوسًا) - عملة برتغالية - وجمع الأخير ضعف ما جمع سابقه على الأقل باتباعه أسلوب الظلم والإجرام[٢٠].

ومن عام ١٥٨٠ بدأ ازدياد التنافس على وظيفة حاكم هرمز لارتفاع دخل الحاكم ارتفاعًا هائلاً نتيجة لاتساع دائرة الأنشطة التجارية وفقدان الإمبراطورية استقلالها مما ساعد على حرية القادة وظهور عوامل ضعف وانحلال الإمبراطورية البرتغالية، ووصل دخل القائد عام ١٦١٩ إلى ثلاثمائة ألف بردوس، وكثرت السرقات والنهب وسادت الرشوة، وانعدم الشعور بالمسئولية بين المسئولين، فانخفضت الصادرات والواردات الجمركية حيث نهبت الضرائب والإيرادات بواسطة القواد بهرمز نفسها، فقد ذكر أن سفينة قدمت من دبهول Dabhol دفعت مبلغ أربعين ألف دكانة ضريبة جمركية، إلا أن الحصيلة ذهبت إلى جيوب القائد ومساعديه[٢١]، وكانت وظيفة حاكم هرمز تشترى حيث صدر مرسوم ملكى فى عام ١٦١٥ إلى حكومة الهند يجيز فيه

بيع مثل هذه الوظائف بالمزاد العلنى، بشرط دفع دخلها فى ميزانية الدفاع ضد هولندا، بل وامتد الأمر إلى غير ذلك من الوظائف[٢٢]، واعتمد الموظفون فى هرمز على جمع المال بطرق ملتوية[٢٣] دون الاعتماد على الرواتب المخصصة لهم فى الحكومة، واعتبرت وظيفة قيادة هرمز من أكثر الوظائف المربحة بعد موزمبيق، فقد امتلك القائد ومساعدوه أساطيل وسفناً تجارية عديدة تنتقل بين هرمز وجوا وبنجال وغيرها من المناطق التابعة كمستعمرات برتغالية[٢٤]، واشتد القادة فى معاملتهم للأهالى بعدم السماح لهم ببيع أو شحن أو تفريغ أية بضاعة قبل تصريف القادة لبضائعهم والأولوية لمدى صلة الأهالى بالقواد والتى تتحقق عادة بالرشاوى، لقد تمتع القواد بسلطات وامتيازات عظيمة فى هرمز لم تكن قانونية، بل كانت تخالف قوانين المستعمرات، إلا أنهم منحوها أنفسهم لضعف الحكومة المركزية وظهور بوادر الانهيار، كما كانت شعوب تلك المستعمرات مغلوبة على أمرها ولا حول لها ولا قوة[٢٥]، والصلة بينها وبين ملك البرتغاليين فى لشبونة ونائبه فى الهند مقطوعة إلا عن طريق هؤلاء القادة الفاسدين مما جمد شكواهم بل وقتل من يجرؤ على الشكوى أو يتم تعذيبه، وإذا قدر ووصلت شكوى فإنها تحول لمجلس خاص لا تجد فى نهاية الأمر طريقًا للتنفيذ.

ووصل إلى الجزيرة من قبل حكومة مدريد الرحالة لويسليتاكوتنهو Lvisleita Coutinho سنة ١٥٩٨، وبعث خطابًا للملك يشرح مشاهداته وحال الجزيرة من تدهور وانحطاط مؤكدًا أنه لا يتم شىء نيابة عن الملك أو لصالح الإمبراطورية، فقد وصلت قسوة القادة على الأهالى إلى حد تأليههم، وإن القادة تركوا واجباتهم الحقيقية فى هرمز واتجهوا إلى مزاولة التجارة وكسب المال وحذر الملك من خطورة الموقف المتدهور[٢٦]، ونلاحظ أن ذلك كان مخالفًا لنصوص الأوامر الملكية التى صدرت بشأن المستعمرات الشرقية والتى توجب على أن الحامية البرتغالية فى هرمز يجب أن تضم خمسمائة وستين رجلاً بما فيهم القادة وخدمهم إلا أن المشتغلين فى الحامية لم يزد عن ثلاثمائة شخص، حيث نشر تقرير فى سنة ١٥٩٦م بأن الجنود المكلفين بالدفاع عن جزيرة هرمز لا يقومون بواجباتهم ولا

يتواجدون فى الأماكن المخصصة ولا يقومون بدوريات مستمرة. هذا بالإضافة إلى أنهم لم يكونوا مسلحين تسليحًا جيدًا فقد كانت الأسلحة والذخائر الحربية فى حوزتهم قديمة وغير صالحة[٢٧]، يتضح من ذلك كله أن المسئولين البرتغاليين فى جزيرة هرمز تركوا جميع الشئون الداخلية للحامية، وانصب اهتمامهم على العمل فى التجارة وكسب الأموال فى الوقت الذى كانت فيه الأخطار تهدد الجزيرة من كل جانب، وفى الوقت الذى ظهرت فيه بوادر المقاومة الفارسية والعربية التى تتحين الفرصة لمشاركة البرتغاليين فى التجارة الشرقية، كما احتلت فارس البحرين سنة ١٦٠١[٢٨]، سمح للسفن الإنجليزية بالتردد على الموانئ الفارسية، باعتبارهم ضيوف فارس وليس علينا إخراجهم من بلادنا؛ لأنهم لم يسيئوا إلى فارس، وقد ورد ذلك فى رد الشاه عباس على طلب البرتغاليين منه سنة ١٦١٩م بمعاداتهم بواسطة السفير الإسبانى دى كارسيا دوسيلافيكو من قبل الملك فيليب الثالث.[٢٩] وأوضح الشاه أن إيران انتقلت إلى مرحلة الانفتاح على جميع دول العالم وأمام التجار من جميع الجنسيات.

وزادت انتصارات الشاه ضد البرتغاليين فى البحرين وجمبرون فى تحرير هرمز وإعادتها إلى السيادة الفارسية، وزادت حدة التوتر وبينهم وبين الإسبان على الرغم من المساعى التى بذلت فى عاصمتى الدولتين، لإزالة الخلافات القائمة بينهما بواسطة السفير شيرلى الإنجليزى الذى عينه الشاه سفيرًا له فى البلاط الإسبانى، وفيجورا السفير الإسبانى فى أصفهان.

فشل السفيران فى عمل أى شىء يصلح من العلاقات بين إسبانيا وفارس ومما شجع على اتخاذ هذا الموقف من البرتغاليين أن الحرب بينه وبين العثمانيين قد توقفت وعقد الصلح بين الطرفين عام ١٦١٨، وتم إخضاع الأوزبك السنية، وبادر بالاتصال ببعض القبائل العربية لتتعاون معه ضد البرتغاليين، فوجد استجابة طيبة من العرب النازلين بإقليم لار فأعلنوا تأييدهم للشاه والتعاون معه ضد العدو فى مياه الخليج، وكانت لديهما إمكانات تجارية وعسكرية تفوق الإمكانات البرتغالية، فكان هذا مما شجع الشاه على السير فى خطة، وحظيت الشركة الإنجليزية بثقة الشاه.

واخذ كل من الشاه عباس وفيليب الثالث ملك إسبانيا يعد العدة لخوض المعركة المقبلة. ففى عام ١٦١٨م بعث ملك إسبانيا إلى نائبه فى جوا يأمره باتخاذ الإجراءات الضرورية اللازمة للوقوف فى وجه التهديد الفارسى، وإقامة التحصينات الكاملة لحماية هرمز والمناطق التابعة لها. ووضع القوات الإسبانية والبرتغالية المكلفة بالدفاع فى حالة استنفار دائم لمواجهة الحوادث المتوقعة.

مقدمات المواجهة الفارسية البرتغالية

فى عام ١٦١٨ م أخذ كل من الشاه عباس وفيليب الثالث ملك إسبانيا يعد العدة لخوض المعركة المقبلة. فبعث ملك إسبانيا إلى نائبه فى جوا يأمره باتخاذ الإجراءات اللازمة للوقوف فى وجه التهديد الفارسى. وإقامة التحصينات الكافية لحماية هرمز والمناطق التابعة لها. ووضع القوات الإسبانية والبرتغالية المكلفة بالدفاع فى حالة استنفار دائم لمواجهة الحوادث المتوقعة. استعد نائب الملك فى جوا لاتخاذ الاستعدادات الكافية لصد أى هجوم فارسى على هرمز حتى من قبل وصول الأوامر العسكرية الملكية إليه[٣٠] فى وقت كان فيه فيليب الثالث يعمل على إيجاد حل سلمى فأرسل لإعادة العلاقات بين مدريد وأصفهان بدلاً من خوضه معركة غير مضمونة العواقب فأرسل خطابًا آخر إلى الشاه يحاول أن يستميله ويقنعه بفتح باب الحوار مرة أخرى لإزالة الخلافات القائمة بينهما، وضمن خطابه بعض المطالب السياسية والعسكرية من الصعب قبولها، ومن تلك المطالب مرابطة أسطول برتغالى فى منطقة الخليج لسد مضيق باب المندب وبالتالى غلق البحر الأحمر فى وجه السفن العثمانية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية من التجارة الهندية، وبهذا عودة إلى التحالف الإسبانى الفارسى ضد الدولة العثمانية، كما أصر الملك فيليب الثالث على عودة البحرين وجمبرون إلى الإمبراطورية البرتغالية الإسبانية، وطالب أيضًا باحتكار الحرير الفارسى لرعاياه دون غيرهم من الأوروبيين[٣١]، وفيما يتعلق بتجارة الحرير ذكر فيليب فى رسالته أنه يجب على التجار الإيرانيين من مسلمين ومسيحيين أن ينقلوا بضائعهم إلى هرمز، فإذا لم يمكنهم بيعها هناك فإنها ستنقل إلى المركز

التجارى البرتغالى فى جوا أو لشبونة وحتى لو طالبوا إعفاءهم من الضرائب الجمركية. أما إذا انتقلت إلى أماكن أخرى غير تلك المناطق الثلاث فإننا سوف نتخذ الإجراءات اللازمة لمنعهم من مزاولة التجارة [٣٢] وقد نسب الملك فيليب الاقتراح الأخير إلى روبرت شيرلى، الذى سمح لنفسه أن يعمل ضد البلاد التى مثلها وقد أرفق مع خطاب آخر للملك آخر من روبرت شيرلى يؤكد فيه للشاه عباس صداقة إسبانيا ووقوفها إلى جانبه ضد الدولة العثمانية، وأن الملك فيليب بعث أسطولاً إلى الخليج لمساندة فارس، ثم زاد على ذلك بأن حرض الشاه على الإنجليز، إذا يشيد بألا يعقد أية اتفاقيات تجارية معهم. وأن يعمل على إخراجهم من فارس والخليج، ذاكرًا أن الإنجليز على علاقة طيبة مع الدولة العثمانية، أى انهم لا يصلحون لأن يكونوا حلفاء للشاه، وكانت النتيجة أن غضب الشاه لما ورد فى الرسالتين، وقال للأسف: «برد أن تاوة الذى حملها: أننا لن نتخلى عن شبر من الأراضى الفارسية حيث إن البحرين كانت تابعة لأمير هرمز الذى كان بدوره تابعًا لإقليم فارس، ثم هدد بأنه سوف يقوم بحملة لتحرير هرمز وإعادتها إلى السياسة الفارسية. أما عن الأسطول الإسبانى الذى أبحر إلى الخليج فإن الشاه قال: إننا لسنا بحاجة إلى المساعدات الإسبانية البرتغالية إذ أننا قد عقدنا الصلح مع الدولة العثمانية[٣٣]. وتحرك الأسطول الإسبانى البرتغالى المكون من خمس سفن إسبانيا قاصدًا الخليج فى إبريل عام ١٦١٩م، وهدفه الظاهرى إغلاق مضيق باب المندب فى وجه التجارة العثمانية، وكان بقيادة روى فراير، أما الهدف الحقيقى فهو تخويف الشاه عباس من القيام بأى عمل عدائى ضد المواقع البرتغالية، والقضاء على السفن الإنجليزية التى أرادت أن تثبت أقدامها فى المنطقة. وأخيرًا وصل الأسطول فى يونيو سنة ١٦٢٠م عن طريق جوا، مستغرقًا فى رحلته أربعة عشر شهرًا بسبب سوء الأحوال الجوية والملاحية[٣٤]، وكانت تعليمات الملك إلى القائد رو فراير. أنه إذا وافق الشاه على المطالب الإسبانية ووقع على اتفاقية احتكار تجارة الحرير الفارسى، فعليه أن يتوجه إلى البحر الأحمر للقيام بالمهمة التى ذكرناها. أما إذا رفض الشاه ذلك فعليه أن يساند القوات البرتغالية الإسبانية المرابطة فى هرمز، وإعادة ميناء

جمبرون وجزيرة البحرين وتأديب أهالى نخيلو الذين قاموا بأعمال عدوانية ضد القوات البرتغالية[٣٥]، ثم أمره ببناء قلعة حصينة فى جزيرة قشمة[٣٦] بعد وصول الأسطول البرتغالى إلى هرمز، كانت العلاقات قد انقطعت بين الدولتين فحدث انشقاق خطير داخل القيادة البرتغالية الإسبانية فى هرمز حول كيفية اتخاذ الخطوات الضرورية الفعالة لمواجهة الموقف فى المنطقة عقب مجىء النجدات العسكرية، ففريق من الأساقفة البرتغاليين والإسبان الذين يرتبطون بالطائفة الكاثوليكية الكرملية والإغسطانية كانوا تواقين إلى الحرب، وعلى رأس هؤلاء القائد روى فرايرِ، أما الحاكم البرتغالى لهرمز وزملاؤه من القواد القدامى الموجودين فى الجزيرة فرأوا أنه من الضرورى إيجاد حل سلمى بين هرمز وفارس واقتراح الحاكم أن يبعث إلى الشاه عباس السفير الإسبانى الذى كان موجودًا بالجزيرة فيجورا، والذى يتمتع بشهرة دبلوماسية طيبة لفتح باب الحوار بين فارس وهرمز بعد أن توقفت الاتصالات بينهما، إلا أن روى فرايرِ الذى كان مؤيدًا من رجال الدين المسيحى من أغسطانيين وكرمليين فى فارس، استعد للدخول فى الحرب ومنع جنوده من النزول إلى اليابسة والبقاء فى السفن لمواجهة التطورات التى يمكن أن تقع، إلا أنه عدل عن رأيه بعد أن تسلم تعليمات من السلطات العليا فى مدريد تقضى بالتريث فى اتخاذ قرار الحرب[٣٧]، أما الحاكم البرتغالى لوزى دى سوزا Don Louis dsasa فكان يرى ضرورة إيجاد حل سلمى لإزالة المشاكل القائمة بين الدولتين. وكان هذا الرأى نابعًا من دراسته الكاملة. لظروف المنطقة عمومًا، ومن الإمكانات الدفاعية الموجودة لديه إذا ما قورنت بما عند الطرف الآخر. فإن الحل العسكرى فى نظره ليس هو الحل الأمثل. وربما كان موقف دى سوزا منبعثًا من مصلحة شخصية، فهؤلاء الحكام كانوا يشتغلون بالتجارة، والذى يعينهم بالدرجة الأولى هو الاستمرار فى التعامل التجارى وجمع الأموال، ثم إن هذه المستعمرات التى من الناحية الاسمية لا غير، أما من الناحية الفعلية؛ فقد كان الحكام والقواد يباشرون جميع الشئون دون الرجوع إلى السلطات العليا فى مدريد أو جوا على أن الأسباب الحقيقية التى دعت الأساقفة الأغسطانيين والكرمليين إلى تفضيل الحرب ضد الشاه، حتى أن

أية مباحثات معه ستكون عديمة الجدوى بسبب تصلبه وقطعه كل المفاوضات التى جرت بينه وبين السفراء الأجانب. ولو أنهم فتحوا باب المناقشات مرة أخرى فسوف يلقون المصاعب. وقبل الوصول من هذا النقاش إلى نتيجة، وردت الأنباء بقرب وصول أسطول تجارى إنجليزى إلى جاسك فى عام ١٦٢٠، وقد شرح روى فرايز لزملائه خطورة الموقف فى المنطقة إذا وصل الأسطول الإنجليزى للميناء، وأثر ذلك على جميع المستعمرات البرتغالية فى الشرق، بعث فرايز رسالة إلى الملك فيليب الثالث شرح فيها الأوضاع فى المنطقة والأخطار التى ستواجهها هرمز ومياه الخليج قريبًا وأوضح أنه لكى تستمر البرتغال فى السيطرة على الخليج والتجارة الشرقية وخاصة الحرير الفارسى، فإن ذلك لا يتأتى إلا إذا منعنا السماح للإنجليز من الدخول إلى ميناء جاسك، وعدم السماح بإنشاء مراكز تجارية على سواحل الخليج، والقضاء على وجودهم فى المنطقة، وكان روى فرايز يعتقد أنه إذا نجح فى منع الإنجليز من الاتصال بفارس، فإن هذا سيجعل الشاه يتراجع، ويقود العلاقات الفارسية البرتغالية إلى سابق عهدها، وتماشيًا مع خطة فى اتباع الأساليب العسكرية، أخذ فى تحصين قلاع هرمز، وفى الوقت نفسه أرسل إلى الشاه عباس يطمئن من أن عليه ألا يخاف من تحصين المراكز البرتغالية، وأن استعدادات الأسطول البرتغالى الموجه ضد الإنجليز لم يغير موقف الشاه إزاء استعداد البرتغاليين، بل ازداد سخطه على التحصينات الكثيرة سواء فى مياه الخليج أو فى الجزر التابعة له واحتلتها القوات البرتغالية ومع ذلك فإنه كان حذرًا من اتخاذ أى قرار نهائى رغم كراهية البرتغاليين وتصميمه على تحرير هرمز وترددهم فقد أعلن أنه لن يحذ القرار النهائى بالنسبة لعودة العلاقات الفارية الإسبانية إلا بعد ظهور نتيجة المواجهة المتوقعة بين القوتين المتصارعتين الإنجليزية والإسبانية ويعلق الرحالة الإيطالى دلافال على هذا القرار أننى لا أشك فى أن مسألة الحرب أو السلام بين البرتغاليين والفرس تعتمد على ما سيحدث بين الإنجليز والإسبان خلال هذه السنة [٣٨]، ولكن البرتغاليين لم يقدروا قوة الأسطول الإنجليزى حول التقدير ونظروا لقوتهم على أساس تفوقها على السفن المحلية العربية والفارسية أو السفن الإنجليزية

المتفرقة، ولم يكن لديهم الاستعداد الكافى لخوض المعارك ضد السفن البرتغالية المجهزة لأغراض القتال. ومما يؤكد صحة هذا القول إنه عندما أرسل الإنجليز سفنًا من نوع جديد تغير الموقف العسكرى تمامًا. إذا أنه فى الشهر الأخير من عام ١٦٢٠ استطاعت القوات البحرية الإنجليزية أن تلحق بالبرتغاليين خسائر فادحة فقد أرسلت شركة الهند الشرقية سفينتين فى نوفمبر عام ١٦٢٠ م فتصدى لها البرتغاليون واضطروهما إلى العودة إلى سورات فما كان من الشركة إلا أن سيرت معهما قطعًا حربية لحراستهما ولفتح الطريق إلى جاسك حيث كانت الشركة تمتلك وكالة تجارية وللبضائع مخزنًا فى جاسك منذ عام ١٦١٦ عقب رحلة استيل ولكن عند اقتراب السفن البريطانية من هذا الميناء فى ٢٨ ديسمبر ١٦٢٠ حاول البرتغاليون منعهما من الدخول إلى الميناء فدارت المعركة أمام شواطئ جاسك وانتهت بفوز الإنجليز[٣٩] فانزلوا حمولة سفنهم من البضائع ثم شحنوا الجرير الفارسى وغادروا الميناء بعد أن حقق الإنجليز انتصارهم رغم أن عدد سفنهم كان يقل عن سفن البرتغاليين بنسبة أربع إلى خمس سفن، كما أن السفن الإنجليزية هى فى الأصل مراكب تجارية تحمل المدافع الحديثة فى حين أن السفن البرتغالية نحو ألف فقد منهم مائة وستون قتيلاً، وخسر الإنجليز ثمانية رجال فقط فى المعركة[٤٠]، ورغم انتصار الإنجليز الساحق على القوات البرتغاليية إلا أن القائد البرتغالى روى فراير رفض أن يعترف بهزيمته وصمم على التصدى للقوات الإنجليزية حينما تغادر الميناء، ولكن سفنه المصابة عجزت عن مقاومة السفن الإنجليزية التى تمكنت من العودة سالمة إلى مقلاها سوارات[٤١] شجع انتصار الإنجليز على البرتغاليين فى جاسك الفرس والعرب، وكانت فيه الشاه عباس متجهًا إلى إرسال حملة لهرمز لتحريرها من المحتلين البرتغاليين وها هم هزموا، وأمل فى ذلك قبل وصول تعزيزات لهم من جوا أو لشبونة، ولكن الشاه لم يفصح عن موقفه عندما اجتمع بمندوبى شركة الهند الشرقية الإنجليزية الذين قدموا له الهدايا سنة ١٦٢١م واتجهت المباحثات حول احتكارتجارة الحرير الفارسى وإنشاء وكالات تجارية للشركة فى إيران وكذلك لم يكشف للإنجليز عن نواياه الحقيقية اتجاه البرتغاليين أو رغبته فى تحرير

هرمز[٤٢]، وحاول مندوب الشركة عقد اتفاقات تجارية مع الشاه للحصول على فرمانات بخصوص احتكار الحرير إلا أنه لم يدع له مجالا للبحث فى هذا الموضوع بحجة أن الموقف غير مناسب لعقد مثل هذه الاتفاقات التجارية بسبب وجود الأساقفة الأغسطانيين والكرمليين هناك[٤٣]، أما عن الموقف فى هرمز فقد عاد روى فراير من جوا وأخذ يستعد للدفاع عن الجزيرة لمواجهة الإنجليز والفرس. وكان لديه تعليمات من ملكة باحتلال جزيرة قشمة التابعة لفارس وإنشاء قلعة حصينة هناك ليضمن إمداد هرمز بمياه الشرب، وصارت قشمة بمثابة شريان الحياة بالنسبة للبرتغاليين بعد فقدوا قواعدهم على الساحل الفارسى وقد أدى احتلال قشمة وإقامة التحصينات بها إلى خروج. الشاه عن تردده، وثار غضبه إزاء تلك الإجراءات غير القانونية، واعتبرها عملاً استفزازيًا وبناء عليه أبلغ مونكس وكيل شركة الهند الشرقية فى فارس بأنه يقدم محاربة البرتغاليين وتحرير هرمز وإعادتها إلى السيادة الفارسية، وذكر أنه سوف يعطى للشركة حق إنشاء وكالات تجارية هناك متى تم طرد البرتغاليين من هرمز [٤٤] نهائيًا، كان العرض الفارسى مجزيًا بالنسبة للشركة من الناحية الاقتصادية؛ لأنه يمكنها من تأمين طرق التجارة بين الهند وفارس، ومن أجل الحفاظ على مصالح الشركة، لابد من وجود قوة إنجليزية دائمة فى المنطقة. فطلب الشاه من إدارة الشركة أن تبعث بست سفن صغيرة حمولة مائة طن وأربع سفن كبيرة مجهزة بأحدث المعدات الحربية للمرابطة فى مياه الخليج، ويبدو أن الإنجليز كانوا على علم بمطالب الشاه قبل أن يبلغها إلى مونكس، وعلموا أن هرمز سوف تدمر نهائيًا بعد طرد البرتغاليين منها، وأن المراكز التجارية سوف تنقل إلى بندر عباس وأثناء إجراء الاتصالات بين الإنجليز وفارس قام الشاه بمحاولة أخيرة لتجنب الحرب ضد البرتغاليين، ولعله فعل ذلك من قبيل المناورة، فقد كان يعلم أن العدو مصمم على ضرب فارس واحتلال سواحلها وإن كانوا قد اطمأنوا بأنهم لا يريدون ذلك، فاجتمع الشاه بالأساقفة الأغسطانيين وشرح لهم موقفه تجاه الاستحكامات البرتغالية فى جزيرة قشمة، وذكر أنه يعتبرها عملا عدائيًا موجهًا ضده، وأرسل أحد الأساقفة فى شهر يونيو سنة ١٦٢١. إلى هرمز لينتقل وجهة

نظره، وللتأكد من نوايا المسئولين هناك، وهل يريدون الحرب أم الدخول فى مباحثات لكن الأسقف الأغسطينى الأب نيكولاريه الذى كان تواقًا إلى نشوب الحرب أملاً فى انتصار البرتغاليين قد اجتمع بالقواد المسئولين فى الجزيرة، ونصحهم بأن يختاروا الحرب فى اجتماع سرى ثم عاد إلى أصفهان حاملاً معه ردالبرتغاليين بأنهم عازمون على القتال[٤٥].

أعاد البرتغاليون التفكير فى موقفهم من الحرب، فبادروا بإرسال مندوب إلى أصفهان فى وقت لاحق من رحيل الأسقف الأغسطينى ليوضح للشاه وجهة نظرهم فى تحصين قشمة حيث إنهم لا يريدون سوى ضمان وصول مياه الشرب إلى هرمز، إلا أن المبعوث البرتغالى جاء متأخرًا؛ لأنه بمجرد أن عاد الأسقف المذكور وأبلغ الشاه بنوايا المسئولين، أمر الشاه بأن تتحرك القوات الفارسية المكونة من عشرة آلاف جندى تحت قيادة إمام قلى خان لقتال البرتغاليين، وما أن علم هؤلاء بتحرك الجيش الفارسى إلى سواحل الخليج حتى استخدموا وسائل العنف والوحشية كعادتهم المتأصلة فيهم ضد سكان السواحل[٤٦]، وارتكبوا أفظع الجرائم فى الموانئ والقرى الفارسية والعربية فقتلوا الرجال العزل والنساء والأطفال، ونهبوا وسلبوا المناطق القريبة من قواتهم وكان هدفهم من ذلك هو إلقاء الرعب والفزع فى نفوس الفرس، وخاصة المكلفين بتحرير هرمز واعتقدوا أن الشاه [٤٧] سوف يسحب قواته من المنطقة ويطلب الصلح، إلا أن الشاه ظل مصممًا على القتال، بعد أن جهز الجيش الفارسى بالسلاح الذخيرة مما جعله متفوقًا على القوات البرتغالية بهرمز من حيث الحجم، بالإضافة إلى القيمة القتالية التى اكتسبها الجنود بعد مرانهم فى المعارك. عندما استطاعت القبائل العربية بساحل عمان أن تستولى عام ١٦٢٠ م على حصن برتغالى كبير فى رأس الخيمة «جلفار» تشجع الشاه ومضى فى طريقه لقتال البرتغاليين[٤٨]، كانت هناك ضرورة للتعاون العربى على الساحل العمانى والفارسى حتى يفقد العدو مصادر تموينه خاصة مياه الشرب، وقد عانت هرمز فصلاً من قلة مياه الشرب بعد طرد البرتغاليين من رأس الخيمة[٤٩] وحصار قشمة لكن الشاه كان يبحث عن شريك لقلة إمكانات قواته عند محاصرة هرمز بمفردها، إضافة إلى ضرب

الحصون البرتغالية بالمدافع، وكذلك عدم وجود قوة مؤثرة تسند عملية إنزال الجنود إلى البر، فاتجه نظر الشاه لشركة الهند الشرقية الإنجليزية حيث تملك قوة بحرية تقرب من قوة البرتغاليين إن لم تكن تفوقها[٥٠]. عرض الشاه عباس على وكيل الشركة فى أصفهان وكان هو مونكس مساندة سفن الشركة للجيش الفارسى فى عملية الغزو، وضغط فى سبيل ذلك ليجر الشركة إلى جانب فارس، وأنه فى حالة رفض الشركة ستفقد الشركة جميع امتيازاتها التجارية فى فارس[٥١]، وسيتوقف نقل القوافل من أصفهان وسيغلق أسواق فارس التى تعد من أكبر الأسواق المستهلكة للبضائع الإنجليزية وخاصة الصوف، لم يكن من السهل على الشركة أن تتنازل عن مكاسبها وقد حصلت عليها بعد جهد عظيم، واختار الشاه لهذا الهدف شهر نوفمبر ١٦٢١م لبدء موسم الشتاء، وفيه يتجمع الحرير الفارسى فى أصفهان ثم ينقل بالقوافل إلى الساحل وهو موسم تصريف المنسوجات الصوفية الإنجليزية، وأما العرض الفارسى فوافق عليه وكيل شركة الهند مبدئيًا حتى لا تتوقف قوافل التجارة والتى تحمل البضائع الإنجليزية وفى الوقت نفسه ليجرى الاتصالات اللازمة، فأرسل خطابات إلى إدارة الشركة فى سوارات سجل فيه العرض الفارسى وأنه وافق مبدئيًا عليه[٥٢] وبين الأضرار التى قد تصيب الشركة إذا لم يتم التعاون مع الشاه، وترددت الشركة فى أول الأمر فى قبول العرض الفارسى والدخول فى الحرب بجانب فارس ضد البرتغاليين، لأن شركة الهند هى شركة تجارية قامت على أكتاف تجار ذات صفة شخصية، وليست لها أطماع سياسية[٥٣]، ويهم الشركة تحقيق الربح قبل كل شىء، ومع أن سفن الشركة كانت تتعرض لغارات البرتغاليين فى مياه الخليج وسواحل الهند، إلا أن الشركة لم تفكر فى إعلان الحرب على البرتغال وفعلا أمر ملك الإنجليز بتشكيل لجنة لمحاكمة مدير عام الشركة بعد تمام التحالف ودافع الأخير عن نفسه بأنه كان يريد زيادة الحركة التجارية لصالح بلاده، وأنه وقع الاتفاقية نتيجة تهديدات تلقاها من حاكم إقليم فارس إمام قلى خان، وأنه لم يكن من السهل على الشركة فى الامتيازات التى حصل عليها من فارس، وصدر حكم بتغريم الشركة عشرين ألف جنيه قبل التشاور مع المسئولين فى لندن[٥٤]، وكان

الملك جيمس راغبًا فى علاقة الصداقة بين بلاده والامبراطورية الإسبانية رغم قناعته بوجاهة حجج مسئولى الشركة[٥٥]، وأرسل المسئولون فى سورات خمس سفن وأربعة زوراق كبيرة بقيادة ريتشارد بليت وجون رودل، وخول القائدان سلطة اتخاذ القرارات التى يراها مناسبة، مع أوامر بالهجوم على السفن الإسبانية البرتغالية إذا اعترضت طريق الأسطول الإنجليزى[٥٦]، وكانت تلك أوامر استيل مدير الشركة Thomas Rastell، وما أن علم مونكس وكيل الشركة بقدوم السفن الإنجليزية حتى أسرع لميناء جاسك ليحث القواد على اتخاذ موقف حاسم ضد البرتغاليين، واعتبر هذا الموقف دفاعًا عن مصالح الشركة، وتحقق توقعه عندما منع الفرس السفن الانجليزية من إنزال حمولتها ومزاولة التجارة إلا بعد توقيع الحلف العسكرى[٥٧] وهيأ الفرس الظروف للحرب بأن أمر قلى خان قمبر بك حاكم لار أن يطلب من حاكم هرمز الضرائب المتأخرة عليه منذ الاحتلال البرتغالى عام ١٥٠٧، وإعادة الجزيرة إلى تبعية لار، ورفض البرتغاليون تلك الادعاءات، فكان بداية للحرب. وصل إمام قلى خان، المكلف بتحرير هرمز إلى الميناء مع أحد مساعديه فى الثامن من يناير سنة ١٦٢٢، واجتمع بقواد السفن الإنجليزية ثم مع ممثلى شركة الهند لمناقشة بنود الاتفاقية ثم تقدم مونكس ودول القائد الإنجليزى بشروط الشركة وهى[٥٨]:-

١ - فى حالة انتصار القوات الفارسية الإنجليزية على البرتغاليين واحتلال جزيرة هرمز، تقسم الغنائم بينهما بالتساوى.

٢ - تسلم القلعة البرتغالية فى هرمز والمدافع والذخائر الحربية إلى القوات الإنجليزية، وبإمكان الفرس إنشاء قلعة أخرى لهم فى الجزيرة على نفقتهم الخاصة إذا رغبوا فى ذلك.

٣ - تقسم العوائد الجمركية بين فارس وشركة الهند الشرقية بالتساوى وإعفاء البضائع الإنجليزية من الضرائب الجمركية إلى الأبد[٥٩].

٤ - بعد انتهاء الحرب يسلم الأسرى المسلمون إلى الفرس والمسيحيون إلى الإنجليز.

٥ - على فارس أن تدفع نصف نفقات السفن من المواد الغذائية وأجر الجنود، الإنجليز، بالإضافة إلى توفير البارود، ثم عدلت الاتفاقية لتنص على أن تكون القلعة تحت تصرف القوتين الفارسية والإنجليزية، وفى المادة الثالثة بالنسبة للبضائع المعفاه من الضرائب الجمركية، اتفق على أن يكون ذلك مقصورًا فقط على البضائع التى تصل باسم الشاه عباس أو حاكم فارس. بينما تحصل الضرائب على البضائع الإنجليزية[٦٠] أما فى المادة الرابعة فقد اشترط حاكم فارس أن يسلم القائد البرتغالى فراير والحاكم البرتغالى لجزيرة هرمز إلى القوات الفارسية. ووضع شرط سادس، وينص على أنه لا يجبر أحد الطرفين الأسرى على تغيير معتقداتهم الدينية، قال دلافال: إن المترجم لم يكن على دراسة كاملة باللغة الفارسية فاستغل إمام قلى هذا الضعف، أن حاكم فارس وعد بنصف القلعة الموجودة فى هرمز للإنجليز، ولكن خدع الإنجليز عند الترجمة، وذلك أن حاكم فارس كان يقصد نصف المدينة، ولذا فلم يكن للإنجليز نصيب فى القلعة[٦١]. شاعت أخبار المحالفة الفارسية الإنجليزية ووصلت أخبارها إلى هرمز، فاتصل القائد البرتغالى روى فراير بإمام قلى خان فى ديسمبر سنة ١٦٢٢ بأمل فتح باب الحوار مرة ثانية بين فارس وإسبانيا وحاول فى رسالته استمالة إمام قلى خان بأن ذكره بالصداقة المتينة بين فارس وإسبانيا وأنه لا يمكن أن يخسروا الصداقة بهذه السهولة وأبدى استعداد السلطات البرتغالية الإسبانية بدفع التكاليف التى تكبدتها القوات الفارسية استعدادًا للمعركة إذا انسحبت تلك القوات من سواحل الخليج. وقد رفض إمام قلى خان المناقشة فى هذا الموضوع على أن هذا العرض لم يتضمن شيئًا عن جزيرة قشمة، فهل ستبقى تحت السيطرة البرتغالية أم ستعاد إلى الفرس[٦٢]، بعد توقيع الإنجليز والفرس على الاتفاقية، غادر حاكم فارس ميناب متوجهًا إلى جمبرون، بينما أبحرت السفن الإنجليزية فى ١٩ يناير ١٦٢٣م كوهستاك إلى هرمز تؤيدها مجموعة من القوارب الفارسية بقيادة قلى بك، وأخذت مكانها تجاه سواحل هرمز فى ٢١ يناير ١٦٢٣، دون التعرض لها من السفن البرتغالية المرابطة فى الميناء[٦٣].

أراد الإنجليز لقاء الأسطول البرتغالى فى عرض بحر الميناء ولكنهم فشلوا فى استدراج الأسطول البرتغالى فظلوا ماكثين بسفنهم خارج الميناء عدة أيام ثم انسحبوا إلى جزيرة قشمة، فى الوقت الذى كانت تحاصرها القوات الفارسية من كل جانب، فاشترك الإنجليز فى القتال بأن صوبوا مدافع أسطولهم تدك تحصينات البرتغاليين، بينما تهاجم تلك التحصينات من البر قوة من العرب والفرس تقدر بثلاثة آلاف جندى، تحت قيادة شاهقلى بك أمام القوات البرتغالية فقدرت بمائتى برتغالى ومائتين وخمسين من العرب الذين كانوا فى خدمة المحتلين[٦٤]، نجح الحصار فى قطع الإمدادات عن قشمة فبدأ الممثلون يعانون من قلة المياه والطعام والذخائر، ولكن لم يقتحم الفرس القلعة الحصينة بضآلة حجم أسطولهم المكون من المراكب الصغيرة حتى وصلت السفينة الإنجليزية فقذفت القلعة لمدة ثلاثة أيام بمدافعها. ورفض القائد البرتغالى روى فراير أن يستسلم وفضل موته بشرف فى أرض المعركة، لكن جنوده تمردوا عليه بعد يأسهم من وصول نجدات عسكرية من هرمز واضطروه للتسليم، فاستسلم على أن يسمح لقواته بالخروج من قشمة والذهاب إلى هرمز برجاله وسلاحه وذخيرته، فوافق الإنجليز والفرس على ذلك، ولكن بمجرد تسليم القلعة هاجمها الفرس واستولوا على ما كان بها من ممتلكات البرتغاليين من سلاح وذخيرة، ثم أسروا القوات التى كانت بها من برتغاليين ومسلمين، بينما انتقل المسيحيون إلى السفن الإنجليزية تمهيدًا لترحيلهم إلى جوا، أو أى مكان بعيدًا عن مياه الخليج حتى لا يتمكنوا من الذهاب إلى هرمز[٦٥].

أما روى فراير فقد نقل مع أحد مساعديه إلى سورات على ظهر سفينة إنجليزية[٦٦] إلا أنه تمكن من الهرب قبل أن تصل السفينة إلى سورات، أما الأسرى الذين تسلمتهم إيران من العرب والفرس فقد أمر إمام قلى خان بقتل غالبيتهم بتهمة التعاون مع الأعداء، ومن بينهم الأمير زين الدين، وقتله زوج ابنته حاكم موغستان بأمر من القائد الفارسى[٦٧].

٢- هرمز بين التواجد البرتغالى والتحرير:

(أ) التعريف بهرمز:

اشتملت هرمز على أجزاء داخلية، وكانت الميناء البحرى لتجارة كرمان وسيستان فى القرن العشرين الميلادى، وكانت النيلة من أهم منتجاتها، وكان يزرع فيها القمح والشعير، وكما وجد بها أنواع من المعادن منها الحديد والفضة والذهب والملح وقد أسسها أرادشير بالسكان (٤، ٢ ـ ٢٤١م)، كما وصفها ماركو بولو بأنها مدينة عظيمة على البحر الأحمر من حوالى ١١٠٠م وقد توالى على هرمز عدد من الحكام العرب أسس سلالتها الشاه محمد درهم كوب وهو أحد شيوخ عرب الخليج، وقد تأكد تولى ركن الدين محمد الإمارة وترتيبه بين حكامها الثانى عشر من هذه السلالة، وقد اعتمد بعض هؤلاء الحكام على الأتابكة فى فارس، وكذلك على أمراء كرمان وقد تعرضت هرمز لغارات من جانب فرسان التتار زمن بهاء الدين، كما أن الحاكم الخامس عشر من هذه السلالة/ سنة ١٣٠١م وكذلك الشعب قد ظلت هجروا المدينة فى موضعها الأصلى وانتقلوا إلى قشمة ثم إلى جمبرون [٦٨]، وقد ظلت هرمز مركزًا للدولة التى وصفها الأب «أودوريك» سنة ١٣٣٠ وأنها مدينة محصنة تحصينًا قويًا، تحتوى على مخازن ثمينة، ليس فيها أشجار أو ماء عذب وأنها غير صحيحة وشديدة الحرارة وتبعد عدة أميال عن البر الأصلى. ويقول ابن بطوطة الذى عبرها سنة ١٣٥٥ «هى المدينة» عبارة عن مدينة على شاطئ البحر تسمى موغستان وتقع هرمز الجديدة مقابل الأولى وسط البحر ويفصل بينهما قنال عرض ٣ فراسخ، وقد وصلنا هرمز الجديدة التى تشكل جزيرة عاصمتها حيرون، وهى مدينة واسعة وسماها إيادز أول ملك لهرمز تذكارًا لبلاده الأصلية.

ويشير إلى هرمز الأب رينال بقوله: «كان الناس فى جميع أنحاء المعمورة يفدون إليها يتبادلون السلع ويعقدون الصفقات التجارية فى جو من الأدب والرعاية، وظلت هرمز تتمتع بالرخاء وامتدت سطوتها حتى البصرة لمائتى عام» ويقول فاريتما Verthema: إن سلطان المدينة مسلم ويرى فيها أحيانًا ما يقرب من ثلاثمائة سفينة من شتى أنواع السفن الآتية من أماكن وبلاد متنوعة، ويوجد بها

حوالى أربعمائة تاجر ووكيل دائمون وتجارتهم الحرير واللؤلؤ والأحجار الكريمة والتوابل ويعيشون على الأرز بالدرجة الأولى(٦٩)، وأهم وأجمل وصف لهرمز ذلك الوصف الفارسى الذى يقول «إذا كان العالم عندنا خاتمًا فإن هرمز جوهرة»(٧٠). عمومًا كانت هرمز عندما وصل البرتغاليون للخليج حاضرة لدولة كبرى تسيطر على جزر أخرى فى الخليج فضلا عن تبعية بعض أقسام من شبه الجزيرة لها، وتعج بالثروات التجارية فكانت لذلك كله هدفًا للبرتغاليين عند وصولهم للمنطقة خاصة وقد امتد نفوذها إلى البصرة ومسقط والبحرين والقطيف.

وعدد سكان هرمز حوالى أربعين ألف نسمة من المسلمين وبعض الأقليات من أهل الديانات الأخرى كالهندوسية واليهودية والمسيحية وهذا يؤكد مكانة الجزيرة التجارى البحت(٧١).

وعندما زارها البرتغاليون ودورات باربوسا ١٥١٨ Duart Barbosa قال: «إن المدينة جميلة وهى ليست كبيرة وابنيتها عالية من الحجر والطين ونوافذها كثيرة، تسمح بدخول الهواء من الطوابق العليا إلى السفلى.

وتجار المدينة من العرب والفرس، ويقول: إن المسلمين فى هرمز يلبسون قمصانًا بيضاء طويلة ورقيقة، وتحتها سروال قطنى. ويرتدون الملابس الحريرية والصوفية وكذلك التزين بالذهب والفضة(٧٢).

ولكن مع عظمة هذه المدينة وسيادتها على الأطراف المجاورة، فإنها لم تستطع أن تحمى نفسها وملحقاتها من الغزو البرتغالى حيث سقطت فى أيدى الغزاة سنة ١٥٠٧؛ لأن أهلها تجار وليسوا جنودًا فكانت تعتمد على جنود مرتزقة من فارس وغيرها من الأقاليم المجاورة(٧٣)، فى صد الأعداء والمغيرين والطامعين.

ويقول رايف Raiph الإنجليزى عنها سنة ١٥٨٣ وبعد استيلاء البرتغاليين عليها: احتفظت بشىء من عمرانها وأنها أجف مدينة فى العالم، ومع ذلك فيها تجار من جميع الأمم مسلمين وغيرهم.

ولكن بتواجد البرتغاليين فى منطقة الخليج تغيرت طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب حيث بدأ عهد جديد لطرق التجارة الدولية باكتشاف طريق رأس

الرجاء الصالح حيث أصبحت طرق التجارة التقليدية عبر بلاد المسلمين مهددة بفقد مركزها التجارى، إذ دخل البرتغاليون المنطقة غزاة وليسوا تجارًا؛ لأنها كانت عندهم خطًا دفاعيًا أماميًا عن مستعمراتهم الرئيسية فى الهند، وكان قد تحقق لهم النصر فى معركة ديو البحرية ضد أساطيل المماليك والبنادقة والهنود المحليين مما أثر على وجود مدن عظيمة الشأن كانت لها صيتها فى العصور الوسطى ومنها مدينة سيراف Siraf فى الخليج على الساحل الفارسى[٧٤].

وتشير بعض المراجع إلى عدم تعمير هرمز طويلاً كان سبب الغارات المتتالية التى كان يشنها البدو، بالإضافة إلى حملات التتار الوحشية[٧٥]، وكانت معاناة أهل هرمز الأساسية فى عدم توفير الماء فشيدوا صهاريج لتخزين مياه الأمطار، ثم يجلبون إليها الماء من بندر عباس والمناطق المجاورة لها فى قرب تنقلها قوارب صغيرة، لعل من ينظر إلى تلك الجزيرة التى تكاد تكون خالية من السكان يدهش كثير حين يعرف أن سكانها كانوا يبلغون فى الفترة التى سبقت البرتغاليين أكثر من أربعين ألف نسمة، وأنهم طبقًا لروايات الرحالة المعاصرين كانوا يعيشون على مستوى عال من الرفاهية والثراء بالرغم من أنهم كانوا يحضرون جميع احتياجاتهم الرئيسية من خارج الجزيرة بما فى ذلك مياه الشرب التى كانوا يضطرون إلى نقلها من خارج الجزيرة إذا ما قلت الأمطار.

وعن أسباب الضعف الذى دب فى كيان هرمز يشير المرجع نفسه إلى أنه «بسبب تفاقم الصراع بين أفراد الأسرة المالكة ولعل ذلك الصراع هو الذى شجع القبائل العربية المنتشرة على طول السواحل الشرقية للجزيرة العربية للتخلص من تبعية هرمز - كما أنه لم توجد سلطة مركزية قوية - واختلاف التبعية لهرمز من اسمية إلى فعلية - إضافة إلى امتداد دولة هرمز الكبير كان عاملاً مهمًا من عوامل تقويضها».

(ب) هرمز بين السيطرة البرتغالية والتحرير:

تحالفت القوات الإنجليزية والفارسية بعد معركة قشمة استعدادًا للهجوم على جزيرة هرمز فتجمعت سفن البلدين فى جمبرون، ثم انتقل الأسطول الإنجليزى

بمعاونة بعض السفن الفارسية فى ٩/٢/١٦٢٣، وصلت جزيرة هرمز، ورست السفن مواضعها تم استطاعت السفن الفارسية التسلل إلى الجزيرة، وإنزال عدد كبير من الجنود يقدر بثلاثة آلاف رجل سيطروا على المواقع المهمة فى الجزيرة بعد مقاومة نجحوا فى التغلب عليها[٧٦]، ثم أخذ الفرس يضربون القلعة البرتغالية بالمدافع وتدك السفن الإنجليزية أسوارها من البحر ومبادلةِ الأسطول البرتغالى النيران فى البحر، واكتفى البرتغاليون فى القلعة بالقتال من داخلها لقلة عددهم بالنسبة للمهاجمين البالغ عددهم أربعين إلى خمسين ألف رجل، لا سيما وأن القوات المتحالفة استطاعت إنزال عدد من هؤلاء الرجال إلى البر مشاركة فى حصار القلعة [٧٧]، واشتد القتال وزرع الفرس المتفجرات تحت الأسوار فأحدثوا ثغرات بها مكنتهم من دخول القلعة، كما أن أصابت السفن جزءًا من سور القلعة، وبعد خروج البرتغاليين لملاقاة المتحالفين أسرعوا بالعودة ثانية للقلعة خشية فقدانها[٧٨]، وأصاب الإنجليز بسفنهم أكبر السفن البرتغالية وكانت تدعى Sanpeidro التى ترفع العلم البرتغالى، وتحمل أكثر من ألف وخمسمائة رجل فضلاً عن العتاد والمدافع، وفقد البرتغاليون السيطرة عليها مما أدى إلى وقوعها فى يد العرب والرس فى جزيرة لارك، وبعد أن شعر البرتغاليون باستحالة صمودهم مدة طويلة بعدما احتل الفرس الجزيرة ويحاصرون القلعة للتفاوض مع الفرس وإنهاء القتال بعد أن شهدت هرمز قتالاً مريرًا استمر أكثر من ثلاثة أشهر تحملت القوات المتحالفة خسارة كبيرة إلا أن خسارة البرتغاليين كانت أكبر كما خسروا بعض سفنهم واستطاعت القوات الفارسية إحداث ثغرات فى أسوار القلعة وتمكنت من السيطرة على برج من أبراجها فعرض البرتغاليون إنهاء القتال ودفع مائتى ألف تومان نقدًا وعشرين أكرا إسبانية جزية سنوية. وطلب الفرس رفع قيمة الجزية، وفشلت المفاوضات[٧٩] فلجأ البرتغاليون إلى الإنجليز على أمل أن يشفع لهم أنهم أبناء ديانة واحدة، وأبدوا استعدادهم لدفع كل الخسائر التى لحقت بالإنجليز خلال المعركة مقابل الانسحاب من جزيرة هرمز، ولكن الإنجليز رفضوا الطلب وذلك يرجع لخوف الإنجليز على مصالحهم فى فارس ولعدم الوفاق بين الدولتين فى ذلك الوقت فى أوروبا وفى الوقت نفسه

أراد البرتغاليون أن يعقدوا صلحًا كسبًا للوقت وإتاحة الفرصة لحصولهم على الإمدادات من جوا أو غيرها إلا أنهم فشلوا في خطتهم، وبعد أن رفض الفرس والإنجليز التفاوض معهم لم يكن أمام البرتغاليين سوى التسليم، وفقدت البرتغال هرمز بعد أن ظل علمها يرفرف عليها أكثر من مائة وخمسة عشر عاما دخلها البوكيرك سنة ١٥٠٧ وانتهت السيطرة البرتغالية عليها عام ١٦٢٢م، وتم ذلك بعد اتصال قائد الحامية البرتغالية بالقائد الإنجليزى للتوسط مع الفرس لمنح البرتغاليين يومين ثم تسليم الفرس القلعة وتولى هذه الوساطة السير مونكس وكيل الهند الشرقية مع فارس[٨٠]. سمحت القوات الإنجليزية والفارسية لانتقال الأسرى البرتغاليين إلى مسقط أو الهند وفعلا قامت السفن الإنجليزية بنقل حوالى ثلاثة آلاف برتغالى بما فيهم النساء والأطفال إلى مسقط، أما المصابون بجراحات بالغة فقد تركوا فى هرمز وتسلم الفرس الأسرى من العرب والفرس فأمر إمام قلى خان بقتل عدد كبير منهم وإرسال رءوس الكثيرين منهم إلى بندر عباس لردع أى تعاون مع البرتغاليين مرة أخرى، وكذلك فقد تم ترحيل الحاكم المحلى محمود شاه ووزيره والقاضى إلى شيراز حيث أودعوا فى السجن فى فارس وكان حاكم هرمز قد عقد اتفاقًا إلى مسقط أو جوا إلا أنهم تخلوا عنه[٨١]، بينما نقلوا بعض أقاربه معهم. تسابق الإنجليز والفرس للاستيلاء على ثروات هرمز الهائلة إذ وجدو فى أحد المحارن عملات ذهبية قدرت بأكثر من مليون آكرا إسبانى فضلاً عن المغانم الأخرى، واحتل الفرس القلعة حسب المعاهدة، واستأثر الفرس بالقلعة بالتلاعب فى نص المعاهدة[٨٢] مع الإنجليز، بينما اقتسموا معهم مدينة هرمز وقد ظفر الفرس بالنصيب الوافر واستبقوا المواقع فى أماكنها لحماية الجزيرة، إلا أنهم نقلوها بعد ذلك إلى العراق واستخدموها ضد الدولة العثمانية، وكان نصيب الإنجليز حوالى عشرين ألف جنيه.

ولكن يذكر دلافالا الذى كان موجودًا فى لار أثناء المعركة «أن الفرس تجاهلوا الإنجليز وأخذوا بعض الأسرى البرتغاليين وخاصة صغار السن وحملوهم على اعتناق الإسلام، ومن هؤلاء شاب يدعى مانويل Manuel الذى

أطلق عليه اسم مير عبدالحسن ووضع تحت رعاية أحد العلماء المسلمين الفرس[٨٣].

وذكر الأساقفة الكرمليون أن الفرس، قتلوا من الأسرى البرتغاليين ما بين ستين إلى سبعين أسيرًا وقيدوا مجموعة أخرى بالسلاسل وتنقلوا بهم بين المدن الفارسية تعبيرًا عن فرحهم بانتصارهم على البرتغاليين فى هرمز، ونتيجة لسقوط هرمز وهزيمة البرتغاليين وشيوع هذه النتائج فى أوروبا عام ١٦٢٣م كانت الضربة المؤلمة للبرتغاليين واعتبرت أكبر الخسائر التى لحقت بهم منذ قيام إمبراطوريتهم، مما شجع قوات المستعمرات البرتغالية على القيام بحركات انفصالية ضد بلادهم، فضلا عن ظهور الخلافات والانشقاقات بين إسبانيا ومجلس الرعايا البرتغالية فى لشبونة واشتد الخلاف بين مدريد ولشبونة ورفع مجلس رعاية المصالح البرتغالية اقتراحًا لحل مشاكل حكومة الهند التابعة للبرتغال ومن هذه المقترحات عقد سلام عادل ودائم بين البرتغال والإنجليز، أو إعلان الهدنة بين البرتغال وكل من الإنجليز والهولنديين أو إرسال قوات بحرية كبيرة إلى الشرق دفاعًا عن مناطق النفوذ البرتغالى[٨٤].

وتم اتهام القائد البرتغالى روى فراير بالمسئولين عن ضياع هرمز، بل اتهمه نائب الملك بتسليم القلعة البرتغالية فى قشمة إلى القوات الفارسية والإنجليزية دون قتال، وأن هرمز كانت أحوج للتحصينات من قشمة وسببًا مباشرًا فى إعلان فارس الحرب ضد البرتغاليين مع دراية بحجم القوات البرتغالية الضئيل أمام القوات الفارسية القوية الكبيرة العدد، وعلق سفير إسبانيا الذى كان موجودًا فى هرمز دون جارسيا: «إن تصميم البرتغاليين على محاربة الفرس فى ذلك الوقت فى غاية القوة فضلا عن مساعدة الإنجليز لهم، بينما البرتغاليون لم يكن لديهم قوات إضافية فى هذه المنطقة وكان لديهم عدد محدود من الجنود فى الهند وعلى هذا كانت أمرًا واردًا»[٨٥]، ويعتبر المنتصر الوحيد فى هذه المعركة هم الفرس[٨٦]، لأنهم استردوا جزءًا من بلادهم كان يسيطر عليه البرتغاليون لمائة وخمسة عشر عامًا، فضلاً عن المكاسب التى حققوها من أموال وذخائر وأسلحة، أى إلى جمبرون التى ازدهرت تجاريًا بعدما كانت قرية صغيرة قبل ذلك وحلت

جمبرون محل هرمز فى تجارة العبور. ونهضت بهذه المكانة لحوالى قرن ونصف، بينما لم تحقق شركة الهند الشرقية مثلما حقق الفرس من المزايا من هذه المعركة حيث كان أملها اتخاذ هرمز محمية إنجليزية بدلاً منها برتغالية، فقد دمرت هرمز ونقلت مميزاتها إلى جمبرون التى سميت ببندر عباس فيما بعد، وقد هزم الشاه عباس هرمز ورفض إقامة أو إنشاء وكالات أو قواعد إنجليزية فيها حتى يعود إليها البرتغاليون واحتفظ بقوات فارسية من ثلاثمائة جندى وسفينتين إنجليزيتين أمام سواحلها(٨٧).

تعرضت شركة الهند الشرقية لمآخذ نتيجة للمشاركة فى هذه المعركة واضطرت لدفع غرامة لمخالفتها للأوامر الملكية بلغت عشرين ألف جنيه إسترلينى، حيث اعتبر الإنجليز أن هذه الغرامة لا تسد غير جزء من الخسارة فضلا عن الاعتقاد بأنها لم تكن القوة الأوروبية الوحيدة فى مياه الخليج بعد خروج البرتغاليين من هرمز «حيث ورد الخليج قوى أخرى». إذ اعتبر الإنجليز أن شركة الهند الشرقية الهولندية أصبحت ندًا قويًا لشركتهم الشرقية وكادت أن تقضى على المصالح الإنجليزية فى فارس، كما أن البرتغاليين لم يفقدوا سيطرتهم نهائيا على الخليج بخروجهم من هرمز، ومن اللوم الذى واجهته شركة الهند الشرقية الإنجليزية لمشاركتها الفرس فى هذه المعركة ما ذكره ريتشارد بورهى Boorhy، والتى اعتبرها مشاركة لا تقدر بثمن استيلاء الفرس على هرمز دون عرض الأمر مسبقًا على الملك الإنجليزى من ذلك هو العداء البرتغالى لهم(٨٨) فضلا عن خراب هرمز بعدما كانت تفوق مكانتها التجارية كثير من المدن الأوروبية التجارية أساسه أنه لم يكن بإمكان الفرس أن يحققوا هذا الانتصار على البرتغاليين لولا مساندة شركة الهند الشرقية الإنجليزية على هذا النحو، بينما يؤكد بوكسر Boxer «أنه لم يكن باستطاعة الإنجليز الانتصار على البرتغاليين فى مياه الخليج إلا فى هذه المنطقة، حيث إن السفن والمؤسسات الإنجليزية كانت معرضة للرقابة، بينما لم يكن بإمكان الإنجليز وضع رقابة قوية على التحركات البرتغالية فى هرمز، ولا يمكن أن ينسى فضل الشاه عباس على شركة الهند الشرقية فى انتصارها على البرتغاليين فى هذه المعركة فى

هرمـز[٨٩]، وقد حصلت الشركة على إعفاء البضائع الإنجليزية التى كانت تصل باسم الشاه عباس حاكم فارس من الضرائب الجمركية، وتشجيع التجار الإنجليز على مزاولة تجارة الحرير الفارسى فضـلاً عن حصول الإنجليز على ميناء تجارى حر فى بندر عباس بعد سقوط هرمز رغب إمام قلى خان متابعة البرتغاليين على الساحل العمانى وخاصـة فى مسقط، حيث بنوا القلاع والحصون فضلاً عن المراكز التجارية والمراكز التبشيرية، دفاعًا عن مسقط ثم انطلاقًا لمراكز أخرى على السـاحل العـمـانى والفـارسى إن أمكن وللثـأر من الفـرس والإنجليـز على السواء، وكانت مسقط معرضة لغارات العرب الفجائية التى تنقض عليها من الخلف، وقد اتخذ عـرب مسقط من الجبال مـراكز لمقاومة البـرتغـاليـين، مما اضطر إلى البحث عن موقع بديل لمسقط فاتجهت وجهتهم إلى البصرة[٩٠]، واعتمد إمام قلى خان فى محاربة البرتغاليين على الساحل العربى أن عمان كانت تابعة لأقلية كرمان وفارس، حكامها كانوا يدفعون الخراج لحكام هذين الإقليمين، بالإضافة إلى رغبته فى رد جميل للعرب فى موقعهم معه ضد البرتغاليين فى هرمز، وأعطى لهذا الموقف مسحة دينية وكواجب مقدس نحو المسلمين فى مسقط.

اتجه إمام قلى خان إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية بناء على اتفاق عقد فى يناير ١٦٢٢ بين الفرس والإنجليز على أن تقوم سفن الشركة بتطهير ممرات الخليج والدفاع عن هرمز مقابل أن تدفع إيران نصف تكاليف هذه الأعمال[٩١] فاستغل الفرس هذا البند وطلبوا من الشركة مساندتهم ضد البرتغاليين فى مسقط إلا أن الشركة تهربت نتيجة لخسارتها الجسيمة فى معركة هرمز دون الحصول على مكاسب مادية أو استراتيجية، ومع ذلك فإنها لم ترفض رفضًا قاطعًا، واشترطت شروط يصعب على الفرس قبولها منها:

١ - أن تستولى شركة الهند الشرقية الإنجليزية على جزيرة هرمز والقلعة البرتغالية الموجودة بها.

٢ - أن تقسم العوائد الجمركية بين الطرفين بالتساوى.

٣ - السماح لأربع سفن إنجليزية بالمرابطة أمام سواحل هرمز بصفة دائمة للدفاع عن مصالح هذه الشركة[٩٢] رفض الفرس هذه الشروط ولم يسهل عليهم ترك هرمز لقوة أجنبية جديدة تبنى فيها قواعد عسكرية تكون مصدر خطر على الساحل الفارسى والمنطقة بأثرها مع ذلك صمم أمام قلى خان على محاربة البرتغاليين فى مسقط فاشترى إحدى السفن الحربية الإنجليزية القديمة للاستعانة بها فى الحرب، واستطاع الفرس من تحقيق انتصارات عظيمة على البرتغاليين فى بادئ الأمر واحتل قلعتى خورفكان وصحار وطرد الحامية البرتغالية منها، ولكن بقاءهم هناك لم يدم طويلاً فعندما وقع روى فراير القائد البرتغالى فى الأسر بعد معركة قشمة وهرب من الإنجليز عاد إلى مياه الخليج على رأس أسطول من ست سفن، واستطاع أن يخ ج الفرس من خورفكان وصحار ويستولى على حصونهم وقلاعهم فى هـاتين المنطقتين[٩٣]، لقد استطاع القائد البرتغالى دوى فراير أن يهرب من السفن الإنجليزية ليون التى كانت تحمله إلى سورات أسيرًا، وصمم هذا القائد على إعداد الحملات الانتقامية ضد أعداء البرتغال الذين طردوهم من هرمز، وحاول أن يعيد سيرته العسكرية وثقة الإمبراطور البرتغالى، واستطاع الحصول على سفينة شراعية مناسبة تحمل خمسين شخصًا وعاد بها إلى مياه الخليج، وقبل أن يذهب إلى هرمز اتجه إلى مسقط فى ١٦٢٢م لمعرفة آخر الأحداث بعد سقوط قشمة، فوجد أسطولاً برتغاليًا مكونًا من ١٤ سفينة قادمة من جوا لإنقاذ هرمز بقيادة قسطنطين دى سا Constantine de sa وفى الوقت نفسه وصلت السفن الإنجليزية التى كانت تحمل الأسرى البرتغاليين بعدالهزيمة فى هرمز مما أشعر البرتغاليين بأنه لا أمل فى استعادة جزيرة هرمز خاصة وأن سفنهم الحربية قد دمرت فى هرمز فضلاً عن فَقْد الأسلحة الثقيلة والذخائر[٩٤] عاد القائد البرتغالى روى فراير إلى جوا بعد أن علم نائب الملك الذى اتهمه بالخيانة قد تم عزله من منصبه وحل محله نائب للملك جديد فجهز الأخير لروى فراير أسطولاً آخر مكونًا من ست سفن وأرسله مرة أخرى إلى

مـيـاه الخليج بين عـامى ١٦٢٢ إلى ١٦٢٣م، وعـينه قـائدًا له ومنحـه لقب أدميرال البحر الأحمر ومياه الخليج، وفى إبريل ١٦٢٣ وصل روى فراير إلى الساحل العربى فعلم أن الفرس احتـلوا قلعتى صحـار وخور فكان، وبعد مقاومة عنيفة استرد روى فراير القلعتين وتم طرد الفرس منهما، واستعد للقيام بمهمته الأساسية فحاصر خطوط الدفاع الأمامية لجزيرة هرمز[٩٥] وقسم أسطوله إلى ثلاث فرق، فوجه جزءًا إلى البحر الأحمر وجزءًا إلى البصرة لمساندة الباشا هناك ضد التهديد الفارسى، مما سبب خلافًا بين قواد جنوده بحجة أن المهمة الأساسية المكلفين بها هى محاصرة الخطوط الأمامية لجزيرة هرمز، وليس العمل فى البحر الأحمر أو البصرة التابعة للدولة العثمانية[٩٦]، وواصل القائد البرتغالى روى فراير غاراته على المدن والموانئ الفارسية ومهاجمة الفرس والسفن الإنجليزية المكلفة بالدفاع عن هرمز. زاد اهتمام الحكومة الإسبانية فى مدريد باسترداد هرمز التى فقدها الأسطول والحامية البرتغالية، لذلك قرر نائب الملك بقيادة الأسطول بنفسه عام ١٦٢٤ لإعادة الجزيرة ومحاربة الإنجليز والهولنديين بالسواحل الفارسية، إلا أنه لم يستطع تدبير القوات والمعدات اللازمة لتحقيق ذلك فعهد بقيادة الحملة لقائد برتغالى آخر هو بوتهلو، فوصل إلى مسقط فى سبتمبر ١٦٢٤ ولطول المسافة من الشواطئ الهندية حتى وصل الأسطول إلى مسقط قام بعمل الإصلاحات اللازمة لسفنه ليقدم المساعدة الفعالة لأسطول روى فـراير السـابق الإشـارة إليـه، وكـان من الواجب على هذا الأسطول أن يصل للمنطقـة قبل وصول الأسطول الإنجليزى الهولندى من سورات حيث شاعت أخبار حملة بوتهلو ضد ممتلكات الدولتين فى الخليج، وفى فبراير ١٦٢٥م تحرك الأسطول البرتغالى إلى بندر عباس لمساندة روى فـراير الذى يواجـه السـفن الإنجليـزية والهـولندية والفـارسيـة وتعـادلت الأساطيل واشتبك الأسطولان أمام سواحل جمبرون «بندر عباس» فى ١١ فبراير ١٦٢٥م وكانت من أكبر المعارك التى شهدتها المنطقة[٩٧] بعد معركة هرمز وكانت الخسائر فادحة للطرفين إلا أنها فى جانب البرتغاليين كانت

أفدح، إذ تم تدمير جميع سفنهم والتى تعطلت بحاجة إلى إصلاحات تتطلب وقتًا كبيرًا، فاضطروا لإرسالها إلى جوا، لعدم ملاءمة ميناء مسقط لهذه الإصلاحات، كما فقد البرتغاليون عددًا كبيرًا من رجالهم بلغ ١٣٠ رجلاً، مات أكثرهم لعدم توافر الماء كما كانت الذخائر قد نفدت[٩٨] أو نصح بعض القادة بالانسحاب إلى الساحل العربى حتى لا تدمر بقية السفن، ولكن بوتهلو رفض ربما لعدم تسليمه بالهزيمة التامة وأن ذلك سيكون ماسًا بكرامته، أو لخشية من تعقب الأعداء لأسطوله على الساحل العربى، ولحسن حظه أن الأسطول المشترك من الفرس والهولنديين والإنجليز لم يتعقب الأسطول البرتغالى، وكانت خسائر الأسطول المشترك ٢٩ قتيلاً من الإنجليز و٤٥ رجلاً من الهولنديين فعاد إلى قاعدته فى جمبرون (بندر عباس) لقلة ذخائره وإصابة عدد من سفنه[٩٩]، واختلف الإنجليز والبرتغاليون حول نتيجة المعركة فادعى كلا الفريقين أنه حقق الانتصار على خصمه، فقد أوضح البرتغاليون أنهم أغرقوا ثلاث سفن إنجليزية وأسروا الباقى، وقتلوا ما لا يقل عن ألف من القوات المشتركة، وأوضح الجانب الآخر أنهم قتلوا أكثر من ٨٠٠ جندى برتغالى، ولكن تغيير البرتغاليين لسياستهم فى المنطقة تجاه السكان المحليين والوافدين وسلوكهم طريق السلام بعد هذه المعركة وتجنبهم مواجهة الإنجليز فى مياه الخليج وانصرافهم عن فكرة استرداد هرمز أو بندر عباس نهائيًا، بل وعندهم الصلح مع فارس، الذى وقعه حاكم فارس نهائيًا، وبموجبه منحت الإمبراطورية الإسبانية البرتغالية ميناء كنج على الساحل الفارسى قرب لنجه لإقامة وكالة تجارية مع تقسيم العوائد الجمركية بين الفرس والبرتغاليين. كل هذه المعطيات تدل على أن البرتغاليين قد انكسروا أمام الأساطيل الفارسية والإنجليزية والهولندية واعترفًا بهزيمتهم مرة أخرى بعد معركة هرمز وخروجهم منها قضت على أملهم تمامًا فى تحقيق أى انتصار على القوات المشتركة[١٠٠].

كانت هناك عوامل ساعدت على اشتداد الصراع بين البرتغاليين والإسبان من جهة والإنجليز والهولنديين من جهة أخرى، فإلى جانب التنافس على المصالح الاقتصادية كان الصراع المذهبى بين الكاثوليك والبروتستانت الذى نقل خلافه إلى المستعمرات فى الشرق، ولذلك لم يؤد توقف الاشتباك فى الخليج إلى انتهاء الصراع بينهما فى بقية الأماكن الأخرى، ويرجع سبب تغيير البرتغاليين لسياستهم تجاه السكان المحليين وأسلوب اللين الذى اتبعوه بعد المعركة مع فارس والدولة العثمانية، وربما يرجع كل ذلك لعدم تأكدهم بعدم إمكانية حصولهم من الساحل العربى على أية منطقة بديلة لقاعدة هرمز وميناءها ومركزها التجارى، وكذلك لشدة كراهية العرب لهم ولشعورهم بأن نية العرب متجهة إلى تطهير المنطقة منهم، بل ومن غيرهم من المسيحيين فى الخليج، وقد عبر دلافلل الرحالة الإيطالى الشهير عن مدى كره العمانية للبرتغاليين بعدم اطمئنان البرتغاليين على أنفسهم وأموالهم بعد الغارات العربية التى شنت على مواقعهم وخاصة على ساحل الباطنة فى عمان، كما كانت السفن البرتغالية لا تقترب من الساحل العمانى لجلب حاجتها من مياه الشرب خشية المطاردة[١٠١]، ويمكن تلخيص الأسباب التى ساعدت على تحرير هرمز كالآتى:

(أ) العوامل الداخلية:

١ – تصرفات القادة البرتغاليين الوحشيين ضد السكان[١٠٢] فقد حرموا الأهالى من جميع الحقوق المدنية وعملوا على إذلالهم وليس للأهالى حق التملك أو نقل ومزاولة التجارة، مما أفقد البرتغاليين ولاء الأهالى وانقطع التعاون فيما بينهم وبين البرتغاليين من جهة أخرى[١٠٣].

٢ –أن المدينة كانت خالية من وسائل الدفاع والاستعداد الكافى؛ فقد بعث أمير هرمز إلى ملك إسبانيا يشرح فيها الأوضاع السائدة فى بلاده، ويتشكك فى مقدرة الإسبان والبرتغاليين على الاحتفاظ بسيطرتهم على الميناء إذ بقيت الأوضاع على ما هى عليه[١٠٤].

٣ – انتشار الفوضى وعدم الانضباط العسكرى.

٤ - ضعف الاستحكامات والحصون فقد ذكر الرحالة الإيطالى بياتر ديلا فالاى الذى زار هرمز بعد جلاء البرتغاليين عنها بسنة واحدة أن القلعة الحصينة بقشمة لم تكن سوى برج حمام لقلة الاستعدادات الحربية اللازمة لها.

٥ - دفاع البرتغاليين لم يكن إلا لسوء المصير الذى ينتظرهم على يد الأهالى الذين أذاقوهم الظلم مدة طويلة.

٦ - وجود خلافات بين فارس وإسبانيا بعد إخفاق السفارات التى تبادلها الطرفان وانعكست آثارها على الحاميات البرتغالية فى المنطقة(١٠٥).

(ب) العوامل الخارجية:

١ - اتجاه التجارة إلى طريق بعيد عن الخليج، ففى سنة ١٦١٤ شرع التجار ينقلون بضائعهم بواسطة القوافل من الهند فقندهار Kandhar عبر أفغانستان ومنها إلى فارس فأوروبا. وقد نبه استيل الإنجليزى الذى زار فارس ١٦١٤ قادمًا من الهند، بأن أرسل تقريرًا إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية ذكر فيه أن الطريق البديل للقوافل عبر قندهار أصبح متروكًا أكثر من ذى قبل؛ حيث إن التجار الهنود الذين يأتون من الهند ليستثمروا جزءًا من أموالهم فى لاهور ثم ينقلون بضائعهم إلى الأسواق الفارسية عبر هذا الطريق، وأن القوة الواقعة على جانبيه قد ازدهرت وتحولت إلى مدن كبيرة، وقدر عدد القوافل التى تسلكه فى أوائل القرن السابع عشر باثنى عشر وأربعةعشر ألف جمل، بينما لم تكن تتجاوز فيما مضى ثلاثة آلاف جمل إلا فى النادر وهكذا انصرف التجار عن هرمز إلى هذا الطريق البرى(١٠٦).

٢ - قيام دولة قوية فى فارس زمن الشاه عباس الأول فى وقت فقد فيه الساحل العربى حكومة منظمة حتى قامت دولة اليصارية فى عمان(١٠٧)، وكانت إيران قد تعرضت للتفرقة والتمزق(١٠٨) إلا أن الشاه عباس هيأ الفرص لتحقيق أحلامه بتحرير جزء من سواحل بلاده من وطأة الاستعمار البرتغالى

لأكثر من قرن من الزمان، وقد استرد الفرس البحرين عام ١٦٠١م مما شجع الشاه على متابعة مطاردة البرتغاليين فى أماكن أخرى، وكانت البحرين مصدر مغاصات اللؤلؤ للبرتغاليين مما كان يعوض جزءًا من نفقات الإمبراطورية فضلاً عن أنه كانت بها أراض زراعية اعتمدوا عليها كمصدر للتموين الغذائى، ومن جهة أخرى فكان البرتغاليون يخشون وقوع البحرين فى يد العثمانيين مما يشكل تهديدًا لوجودهم فى المنطقة[١٠٩]، وفعلاً نجح الشاه فى تشتيت القوات البرتغالية بين جمبرون والبحرين، وكان هَمُّ البرتغاليين قد انصب على رفع الحصار الفارسى عن جمبرون[١١٠].

٣ - سادت الفوضى والاضطرابات جميع الحاميات البرتغالية على الساحل الفارسى، نتيجة للمناوئات الفارسية.

٤ - مساهمة شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى تحرير هرمز بعد عدة مصادمات بين سفنها والسفن البرتغالية فى الخليج وسماح الشاه بتردد السفن الإنجليزية على الموانئ الفارسية.

الهوامش

(١) بديع جمعة تاريخ الصفويين وحضارتهم ص ٣٠، ص ٤١.

(٢) Boxerg. . R.the portugese sea borne Empire, p 41. دائرة المعارف الإسلامية ج٤.

(٣) بديع جمعة، وأحمد الخولى، تاريخ الصفوية وحضارتهم ص ٧١ ـ ٧٣.

(٤) أحمد يوسف الدمشقى، أخبار الدول وآثار الأولى فى التاريخ، ص ٣١١.

(٥) Wilson, op. cit., p. 117.

(٦) نصر الله فلسفى، المرجع السابق ص ١٩٤، وانظر عباس إقبال مطالعًا فى درياب بحرين وجزائر وسواحل خليج فارس ص٩.

(٧) نصر الله فلسفى، المرجع السابق ص ١٤٩.

(٨)نصر الله فلسفى، المرجع السابق ص ١٤٩.

(٩) بديع جمعة، أحمد الخولى، المرجع السابق ص ١١٢.

(١٠) Wilson (sirarnold T). op. cit. p. 113.

(١١) Freeman Edward A, A History and conqests, p. 187, London, 1876.

(١٢) خان بابا بيانى، تاريخ نظامى إيران، ص ٤٩٢.

(١٣) عائشة السيار، دولة اليصارية ص ٢٩.

(١٥) عباس إقبال «المرجع السابق» ص ٧٨، ٧٩.

(١٦) نصر الله فلسفى، المرجع السابق ص ١٩٢، وانظر عباس إقبال مكالماتى درياب بحرين ص ٨٦.

(١٧) خانيابا بيانى، تاريخ نظامى فى إيران ص ٤٩٤ وانظر نصر الله فلسفى المرجع السابق ج٤ ص ١٩٧.

(١٨) .wilson op. cit.p.129

(١٩) عباس إقبال، مرجع سابق، نفس المكان.

(٢٠) C.R. Boxer, The portuges Empire.p.324.

(٢١) Nilels steenagard, op.cit,p.199

(٢٢) Ibid.p.200

(٢٣) Wilson.A.T.The porsian Gulf, p.122

(٢٤) الشاطر بصيلى عبد الجليل، الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال فى المحيط الهندى وشرق إفريقيا والبحر الأحمر، المجلة التاريخية المصرية، عدد ١٢ سنة ١٩٦٤ - ١٩٦٥، ص ١٢٩.

(٢٥) Gurzon, vol. ll op.cit.p. 418.

(٢٦) Steensgssrd. op.cit.p201 - Arch. simancas. seor. libr 1551-p.p718 ` 719.

(٢٧) رسالة من الرئيس شرف الدين إلى فضل الله الخير، برسيهاى تاريخى، العدد ٦ سنة ١٢ ص ١٥٧ Do.no76.

(٢٨) جهانكير قائم مقام، برسيهاى تاريخى عدد ١ السنة العاشرة ص ١٩٦ مسألة هرمز «در روابط برتغالى».

(٢٩) نصر الله فلسفى، المرجع السابق ص ٢٠٩.

(٣٠) wilson (sir Arnold t) O.p.cit..p143.

(٣١) نصر الله فلسفى، المرجع السابق ص ٢٠٥، خانيا تابابيانى المرجع السابق، ص٥٠١.

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) عباس إقبال درياب بحرين وخليج فارس ص ٨٦.

(٣٤) Steensgaard.. op.cot..p336.

(٣٥) لوريمر، المرجع السابق، ج١ ص ١٩.

(٣٦) خانيابابيانى - المرجع السابق ص ٥٠١.

(٣٧) Steensgaard.. op.cit..p330.

(٣٨) Steensgaard.. op.cit..p337.

(٣٩) Boxer, The potugese Empire p.p.99-300

(٤٠) المرجع السابق جـ١ ص ٤١ وخانيا بابيانى تاريخ نظامى إيران ص ٤٩٨.

(٤١) نصر الله فلسفى، المرجع السابق ج١ ص ٢١٤.

(٤٢) Erom Monox at Isfahan to Eastindia company Mar 1621.

(٤٣) I.O.R.E /3/5/ Letter From Is Fahan May .

(٤٤) Ibid:From Monx at is Fahan East India Company 1621.

(٤٥) نصر الله فلسفى، المرجع السابق ص ٢١٢.

(٤٦) بديع جمعة (د)، أحمد الخولى - المرجع السابق، ص ٣٩٤.

(٤٧) لوريمر، دليل الخليج ج١ ص ٤٠.

(٤٨) بديع جمعة (د)، أحمد الخولى (د)، المرجع السابق ص ٣٩٤.

(٤٩) محسن عزيزى (د) ، مختصرى إزسياست دولتهاى - خليج فارس، سمنار الخليج فارس. ج٢ ص ٧.

(٥٠) خانيا بابيانى (د) خليج فارس درزمان صفوية، سمنار خليج فارس ج٢ ص٩٦.

(٥١) Belgrave (sircharls. op. cit. p. 10.

(٥٢) Boxer commontaries.. p.p 256-257.

(٥٣) جون كيلى، بريطانيا والخليج من ١٧٩٥ - ١٨٧٠، ترجمة محمد بن عبد الله، نشر وزارة التراث القومى سلطنة عمان.

(٥٤) Sorat. I.O.R.E/ 3/5/ Letter from court at London to.

(٥٥) د/ بديع جمعة، أحمد الخولى، المرجع السابق، ص ٤١٥.

(٥٦) wilson. Op. Cit. 144.

(٥٧) خانيا بابيانى، تاريخ نظامى إيران ص ٥١٨.

(٥٨) د. عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص ٧٢.

(٥٩) sykes (sir peroy) op. cit. vol.2p.194.

(٦٠) نصر الله فلسفى، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٦١) Steensgaard. op.cit. p 341.

(٦٢) A lated 5 th. o at 1622.

(٦٣) نصر الله فلسفى، المرجع السابق ص ٢٢٣.

(٦٤) لوريمر، المرجع السابق ج١ ص ٤٦.

(٦٥) Belgarave, op. cit. p. 11

(٦٦) Belgarave, op. cit. p. 11

(٦٧) نصر الله فلسفى، المرجع السابق، ج١ ص ٢١٨.

(٦٨) يشير إلى هذه المنطقة بلفظ «الجيو».

(٦٩) السير أرنولد ويلسون، فى الخليج العربى، مجمل تاريخى اقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين ص ١٩٠ - ١٩١ «مترجم واعتبرها أكبر جزيرة فى مدخل الخليج العربى وسماها البرتغاليون تويكسيوم وكذلك انظر:

Dennis. obok. Lfuscat/ Bouchaire. Bassorah p.p. 101-102.

(٧٠) المرجع السابق ص ١٩٢ - ١٩٤.

وانظرا Dennis, op cit. p.102.

(٧١) نصر الله فلسفى: زند كافى شاه عباس كبير، ص ٢٢١.

(٧٢) Sykes Lsirperoy : Hıerory of pearsia vo-II P.185

(٧٣) Wilson,. op. cit p. 188.

Sykes Lieut. col. A History of persia. p. 270 / wilson op. cit. p 107.

(٧٤) سيد محمد تقى: آثار باسقانى د/ خليج فارس، ج٢ ص ١٠٩ طبعة فارس.

(٧٥) أحمد اقتداري: هرمز درياتي إمام قلي خان، سردار شاه عباس - برسبر هاى تاريخى، عدد ٥ السنة ١٢ ص ٢٤ سنة ١٩٧٧.

(٧٦) sykes op. cit. vol.11.p.193.

(٧٧) لوريمر، المرجع السابق، ص ٤٦ جـ ١ . wilson (sir Arnold t) Op. Cit.143

(٧٨) عباس إقبال، مطالعاتى درياب بحرين وجزائر خليج فارس، ص٩٠.

(٧٩) خانبا بابياني (دكتور) تاريخ نظامى ص ٥٢٢، طلب الفرس مبلغ ٥٠٠ تومان نقدا و ٢٠٠٠٠٠ جزية سنوية.

(٨٠) بديع جمعة (د) أحمد الخولى (د) المرجع السابق، ص ٤٦.

(٨١) عباس إقبال، مطالعاتى درياب بحرين وجزائر، خليج فارس ص ١٠ وانظر نصران فلسفى، المرجع السابق ص ٢٢٥.

(٨٢) عندنا لم يذكروا القلعة (بالنص)، ولكن أشاروا إلى المدينة فى القاهرة.

(٨٣) نصر الله فلسفى، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٨٤) Steenagaaed op. cit., p. 347.ق

(٨٥) بديع جمعة، المرجع السابق، ص ٣٣٣.

(٨٦) Birdwood. G: Reporton the old Records of the Indian office, p. 213.

(٨٧) صادق نشأت، تاريخ الخليج السياسى، ص ٦٤ ترجمه إلى اللغة العربية بدر الدين عباس الخصوصى، مأخوذة عن: Belgravesir Charles. op. cit. p. 13.

(٨٨) Wilson op. cit., p. 149.

(٨٩) خانبابياني، تاريخ نظامى إيران، ص ٤٣.

(٩٠) أرنولد ويلسون، المرجع السابق، ص ٢٦٥.

(٩١) I.O.R./E/3/6. Letter from Isfahan debad 2964 January, 1922.

(٩٢) عباس إقبال، مطالعاتى درياب بحرين وجزائر - خليج فارس، ص ٩١.

(٩٣) صلاح العقاد المرجع السابق، ص ٢٥.

(٩٤) Boxer Commentaries, p.p. 174-178.

(٩٥) Steensgeaord, op. cit., p. 351.

(٩٦) عباس إقبال: مطالعاتى درياب بحرين وجزائر خليج فارس، ص ٩٢.

(٩٧) Boxer Commentaries, p. 352 .

(٩٨) Belgrave, op. cit., p. 13.

(٩٩) Boxer Commentaries, p. 242 .

(١٠٠) لوريمر، دليل الخليج، ج ١، ص ٥١.

(١٠١) لوريمر، المرجع السابق ج ١، ص ٥٢.

(١٠٢) السالمى، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٣.

(١٠٣) مجلة برسيهاى تاريخى عدد ١٦ السنة ١٢ ص ١٣٩ T.T. D.o.n. 65.

(١٠٤) رسالة مكتوبة باللغة العربية من مير شرف الدين: C.V.R. No 86 A وزير هرمز إلى ملك البرتغال سنة ٩٤٨هـ - مجلة برسيهاى تاريخى عدد ٣ السنة ١٢ ص ٤٥.

(١٠٥) Dellavlb Vol., 2 pp. 527.

(١٠٦) I.O.R.E. 3/4 From steel at Isfahan to the court at sorat dared 7th Cout at sorat dared 7th. oct. 1616.

(١٠٧) محمود على الدواد، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربى، ص ٢٤.

(١٠٨) ابن بطوط ١٨٦ الموانئ الفارسية

(١٠٩) صلاح العقاد (د) المرجع السابق، ص ٢٣.

(١١٠) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١، ص ١٦٨.

الفصل الرابع

علاقة عمان بالبرتغاليين فى الخليج

١ - عمان بين الخلافات الداخلية والأخطار الخارجية.

٢ - علاقة عمان بالبرتغاليين فى عهد اليعاربة.

٣ - الصلات العمانية مع الفرس والإنجليز.

٤ - التواجد العربى ثم البرتغالى فى شرق إفريقيا.

١ - عمان بين الخلافات الداخلية والأخطار الخارجية:

أدى تفكك الجبهة العمانية فى الداخل واتسام حكم «بنو نبهان» بالظلم والصراعات القبلية والحروب الأهلية إلى تغلغل الفرس إلى عمان الداخل واحتلال جزء من البلاد، وقد أدى كل ذلك إلى طلب التغيير الذى أتاح فرصته المذهب الأباضى المبنى على اختيار الأئمة، وقد امتد حكم «بنو نبهان» إلى خمسمائة سنة وشهدت البلاد فى الفترة المتأخرة منها: غزو الفرس لصحار، وقد كان يحكمها مهنا بن محمد الهديفى ممثلاً لدولة النبهانية، واستطاعت قوات سليمان بن سليمان بن مظفر[1] صد الفرس وطردهم، ولكن كانت الدولة عاجزة عن حماية البلاد، حيث لم تتوقف محاولات غزو البلاد من قبل الفرس فضلاً عن ظهور أطماع عناصر أخرى، وكذلك تزايد الحروب بين القبائل فى الداخل وفشل سليمان فى منع هذه الحروب ومن أهمها تزعم عمير بن حمير مؤيداً من بعض القبائل[2] التى كانت تعانى من ظلم الحكام لإحدى هذه الحروب، وهنا يقول مايلز: «إن الأمير عمير بن حمير» طلب مساعدة البرتغاليين مقابل عرضه وضع ميناء صحار تحت سلطة البرتغاليين، وهذا يدل على قصر نظر وعدم تقدير للمسئولية وكان ذلك بمثابة إغراء للبرتغاليين فقد ترتب على استيلائهم على صحار تدعيم مركزهم التجارى فى مسقط وتكون لهم السيطرة على أهم المراكز التجارية فى عمان[3]، بل شجعت هذه الأحداث حاكم هرمز، وحدثته نفسه عن مطامع جهز من أجلها قوات لمساعدة ابن حمير[4].

وهنا يقول الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم فى كفاية الخليج العربى دراسات لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوروبى الأول ص ٦١-٦٢ «إنه لم تظهر تكتلات عربية فى منطقة الخليج العربى بهدف مواجهة التحديات البرتغالية، وإنما على العكس من ذلك أخذت منطقة الخليج تعانى قدرًا كبيرًا من التفكك مما سيسهل عمل البرتغاليين فيما بعد»[٥].

ساعد البرتغاليون ابن حمير بحملة بحرية من خمس سفن حربية بقيادة دوم فاسكو دى جاما وحملة أخرى بقيادة «ثم فرانسسكو روليم»، وساعدت الظروف ابن حمير بجنوح إحدى السفن المحملة بالقيادة والسلاح إلى مسقط فاستولى عليها مما زاد فى قوته وكانت السفينة هندية[٦] أو ربما ترجع ملكيتها للبرتغاليين.

تجمعت قوات ابن حمير فى مسقط وكذلك قوات حلفائه فضلاً عن الأسطول البرتغالى وسار فى اتجاه صحار، وعند السيب دارت حرب انتصر فيها على قوات ابن مهنا ومؤيديه، ثم سار فى اتجاه صحار بحذاء ساحل الباطنة، فاشتبك مع الأهالى المناصرين لابن مهنا وانتصر عليهم، ثم وصلت القوات البرتغالية إلى صحار ونزل الجنود وقصفوا حصن وقلعة صحار بالمدافع فدمروا الحصن وبذلك وقع ابن مهنا بين حصار بحرى من البرتغاليين وبرى بقيادة ابن حمير وفيها قتل ابن مهنا وخلفه سلطان بن حمير الذى تولى القيادة بعد ابن مهنا بعد كفاح مرير[٧] استولى البرتغاليون على صحار كما كان متفقًا عليه بينهم وبين ابن حمير وكان البرتغاليون يأملون فى ذلك لمنافسة ميناء صحار لمينائهم فى مسقط، أما عمير بن حمير فقد عاد إلى سمائل بعد أن قضى على خصومه، وعلى المغانم التى غنمها من صحار[٨] إلا أن الحروب لم تهدأ بل تجددت فى الداخل حيث سارع ابن حمير لمساعدة مالك بن أبى العرب البحرى ضد خصومه واستطاعت قواتهما القضاء على قوات بنى مالك[٩] وفى سنة ١٦١٦م وصل إلى الحكم مخزوم بن فلاح النبهانى، ووقوع معارضة لذلك، وانقسمت عمان إلى شبه دويلات مستقلة، على رأس كل منها حاكم مستقل فيحكم سيف بن محمد الهنائى

بهلا ويحكم سمائل آل عمير والرستاق بين مالك بن أبى العرب البحرى وسيطر الجبور على الظاهرة، ومسقط وصحار وقريات وجلفار (رأس الخيمة) تحت سيطرة البرتغاليين[١٠]، واستمر الشقاق وانتشر الفساد حتى جاء إلى الحكم الإمام ناصر بن مرشد اليعربى سنة ١٦٢٤، ويمثل تنصيب الإمام ناصر بن مرشد تحولاً مهمًا فى تاريخ عمان، وهو ينتمى إلى قبيلة يعرب التى هاجرت أصلاً من اليمن، وقد اشتهر بالاستقامة، والنزاهة، والتدين، وقد كسب نفوذًا لصلته بالقاضى خميس بن سعيد الشقصى وهو زوج أم ناصر بن مرشد واتصف بأنه رجل علم وخلق وكانت البلاد فى أشد الحاجة لشخصية الإمام ناصر بن مرشد[١١]، فقد أنقذ البلاد من الانقسام والحروب الداخلية بل ومقاومة البرتغاليين فى الجبهة الخارجية. وكانت الأخطار الخارجية قد استقرت باستيلاء البرتغاليين بقيادة البوكيرك على مسقط، وكان قد تقدم إليه مندوبون مسلمون عن المدينة متوسلين ألا يصيب المدينة بسوء ورغبتهم فى الخضوع لملك البرتغال وأن يدفعوا الضرائب التى كانت تدفع لملك هرمز، ولكن لم تسفر المفاوضات عن شىء فصوب البوكيرك المدافع نحو المدينة التى أحرقها وأحرق سفنها[١٢] بعدما طلب من الأهالى مقابل عدم إحراق المدينة ما يعادل ٦٢٥ جنيهًا ذهب قبل ظهر اليوم ذاته، ولعدم توفر المال أقدم على فعلته حتى إن المساجد لم تسلم منه، بل إنه جدع أنوف وقطع آذان النساء والأطفال ومن ترك من الرجال الأسرى ثم نهب المدينة عدا حاكم المدينة الذى أحسن استقبال البرتغاليين[١٣]، ثم نجح البوكيرك بتحويل تبعة صحار من هرمز إلى البرتغال بعدما أرهب سكانها ما حل بمسقط ثم فعل فى خور فكان ما فعله فى مسقط ثم اتجه إلى هرمز[١٤]، ولكن مع بداية القرن السابع عشر شهدت المنطقة أخطار جديدة بقدوم الإنجليز والهولنديين ولوجود تنافس بين تلك القوى الأوروبية فقد استفادت القوى المحلية بتعاون الفرس، كما أوضحنا من قبل مع الإنجليز ضد البرتغاليين وكان لانتصار القوتين رفع لمعنويات عرب عمان لاستئناف الجهاد ضد البرتغاليين، واستطاع اليعاربة إنهاء الوجود البرتغالى دون استعانة بأى من القوى الأوروبية.

٢ - علاقة عمان بالبرتغاليين فى عهد اليعاربة:

بعد أن حقق الإمام ناصر بن مرشد البحرى نجاحًا كبيرًا على القبائل فى الداخل وحد من شوكتها، اتجه إلى العمل على تخليص البلاد من البرتغاليين، وساعده على تحقيق ذلك ما أصاب البرتغاليين من ضعف، وكانت الفرصة عندما استعان مانع بن سنان العميرى حاكم مدينة سمائل وهو من أعداء الإمام بالبرتغاليين فى مسقط، والتجأ أخوه محمد بن جفير إليهم فى صحار، ولكل هذا أعد الإمام قوات كبيرة بقيادة الشيخ مسعود بن رمضان لمواجهة البرتغاليين فى مسقط ومطرح، واتخذ الشيخ من مطرح مركزًا لتجمع قواته، ووقع الصدام مع البرتغاليين فى مكان يعرف بطوى الدولة، وقد استبسلت قوات الشيخ وألحقت الهزيمة بالبرتغاليين[١٥]، وهدمت عددًا كبيرًا من الأبراج والقلاع والحصون التى تحصن فيها البرتغاليون فضلاً عن نقل عدد كبير منهم، ولكن لم تسقط مسقط فى يد قوات الإمام وتم عقد صلح تشمر منه بداية انهيار البرتغاليين فى المنطقة، وبموجب هذا الصلح تنازل البرتغاليون عن أراضيهم ومبانيهم فى منطقة صحار، وأن يدفعوا جزية سنوية للإمام[١٦]، وكذلك معاملة البرتغاليين للمسلمين فى مسقط ومطرح معاملة حسنة[١٧]، وتم تسليم الجزية المفروضة للشيخ مسعود قبل مغادرته مسقط، وقد ترتب على المعركة والصلح: أن ذلك كان بداية للقضاء على البرتغاليين وتواجدهم فى مسقط، وأصبح البرتغاليون فى موقف الدفاع والتسليم بضعفهم أمام الحكومة العمانية بقيادة الإمام ناصر بن مرشد، وشجع هذا النصر العمانيين على مواصلة تحرير أراضيهم. ثم اتجهت قوات الإمام إلى جلفار «رأس الخيمة» حيث للبرتغاليين حصن ولهم عدة سفن بالميناء وللفرس حصن آخر كان يقيم فيه «ناصر الدين» الفارسى يسمى حصن «الصير» الذى تقدمت قوات الإمام إليه ودارت معركة كبيرة بينها وبين الفرس الذين ساعدهم البرتغاليون بالسلاح والسفن، إلا أن شجاعة القائد العربى وتصميمه على النصر أدى إلى تحقيقه ذلك فعلاً[١٨]، وساعد ذلك على حصر النفوذ البرتغالى داخل القلعة التى تقوقعوا داخلها، وحافز للدولة اليعربية لمواصلة كفاحها للإجهاز على القوى الأجنبية فى المنطقة،

وقد نجع أتباع الإمام فعلاً على إجبار البرتغاليين على الاستسلام وإخلاء الحصن[١٩] تشجع الإمام ناصر فواصل فتوحاته بإرسال قواته إلى صحار بقيادة حافظ بن سيف وإليه على لبون وأمره ببناء قلعة مقابل القلعة التى تحصن بها البرتغاليون، وقد وصلت قوات الإمام فى سنة ١٦٣٣م وأيد الأهالى هذه القوات وفاجئوا البرتغاليين فى البدعة وبدأت المعارك بين الجانبين، وأخذت قوات الإمام تبنى حصنًا كما أمر الإمام ورابطت فيه[٢٠]، وانحسر الوجود البرتغالى فى صحار ومسقط، ولامتناع البرتغاليين عن دفع الجزية[٢١] أرسل الإمام قواته إلى مسقط بقيادة القاضى خميس بن سعيد الشقصى، فضلاً عن أعمال مخالفة للصلح المفقود بين الطرفين من ذلك إساءة معاملة البرتغاليين للمسلمين، وصمم العمانيون على القضاء على الوجود البرتغالى فتقدمت القوات العمانية حتى وصلت إلى بوشر، وكان لى فرصة رؤية هذه المنطقة خلال فترة إعدادى للبحث «١٩٨٢-١٩٨٦م»، وهى عبارة عن ميدان فسيح مقام فيه مدارس ومبان ومنشآت حديثة والمنطقة تبعد حوالى سبعة أميال عن مسقط، ثم واصلت قوات الإمام إلى مطرح «التى ترددت عليها أيضًا أكثر من مرة» وهى أقرب من ذلك إلى مسقط وهناك اضطر البرتغاليون إلى عقد اتفاق جديد أقروا فيه باتفاقهم الأول، وكذلك على الالتزام بدفع الجزية السنوية وتسليم المناطق الحصينة فى مطروح للمسلمين وضمان حرية التجارة وعدم تعرضهم للتجار المسلمين فى المنطقة[٢٢]، وواصلت قوات الإمام مطاردة البرتغاليين فى صور وقريات وحصن الصير فى صحار، مما أدى إلى اتساع سلطة الإمام لتشمل عمان كلها[٢٣]، وبوفاة الإمام ناصر بن مرشد البحريى عام ١٦٤٩م وهى فترة تعاصر نهاية البحث كان قد تم إنجاز الجانب المهم من عملية تصفية الوجود البرتغالى واتجه إلى الزوال[٢٤] حيث تحقق ذلك فعلاً فى عهد خلفه الإمام سلطان بن سيف ثم الإمام سيف بن سلطان وقد تأسس الأسطول العمانى مما سهل على العمانيين مطاردة البرتغاليين بحرًا وإجبارهم على الخروج نهائيًا من المنطقة، ويقول هاملتون: إن العرب خسروا فى هجومهم على مسقط ما يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف رجل، ولم يبق من البرتغاليين على قيد الحياة سوى ستين أو سبعين اعتنقوا الإسلام

واندمجوا فى المجتمع العمانى بإرادتهم[٢٥]، وترك البرتغاليون مغانم كثيرة، واستقبل الإمام استقبالاً رائعًا فى نزوى بعد أن حقق النصر على البرتغاليين وتحريره عمان من المحتل الأجنبى وتواصل الجهاد ضد البرتغاليين على امتداد سواحل المحيط الهندى وشرق إفريقيا فضلاً عن سواحل الخليج.

ولقصة القضاء على البرتغاليين فى مطرح شىء من الظروف الطريفة التى ساعدت قوات الإمام سيف بن سلطان، فبعد أن واصلت قواته الإعداد لتحرير الأراضى العمانية من الوجود البرتغالى ذلك أنه كان لأحد وكلاء القائد البرتغالى ويدعى «ناريم» وهو من أصل هندى ابنة على قدر كبير من الجمال، وقد أعجب بها القائد البرتغالى «Farrire» فراير الذى أراد أن يتزوجها ولكن رفض والدها بقوله: «لستم فى القديم ولا فى الحديث تتزوجون بناتنا ونحن لا نتزوج منكم وهذا شىء ولا يكون»[٢٦] وحين علم بأن القائد البرتغالى مصر على الزواج من ابنته ولو بالقوة طلب أن يمهله مدة حتى يجهز الابنة للزواج، وهنا اعتقد القائد البرتغالى بأنه سيتحقق المراد ورفع مكانة ناريم وأصبح لا يصدر أمرًا إلا برأيه ومشورته ولما توطد نفوذ ناريم عند القائد البرتغالى فكر فى الاتصال بقوات الإمام للقضاء على البرتغاليين وأعد للأمر عدته بأن ذكر للقائد البرتغالى أن الماء قديم فى الحصنين الشرقى والغربى، وأعتقد أن الحصنين المشار إليهما هما حصنا الجلالى والميرانى وهما قلعتان معروفتان فى مسقط الآن وأن ناريم يخشى إن طال حصار قوات الإمام سيف بن سلطان فلن تصلح هذه المياه لحياة الرجال، ومن رأيه تجريد المياه وكذلك البارود قد فسد ويحتاج للدق ثانية، كما أوضح أن مخزون القمح بالحصنين أصبح تالفًا وفاسدًا، ونصح ناريم القائد البرتغالى بتفريغ خزانات المياه وشراء خزانات جديدة لتعبئة الماء الصالح للشرب فيها، وكذلك الاستغناء عن مخزون طلقات الرصاص الحالية وتخزين حديثة بدلاً منها وإعدام مخزونة القمح الذى دب فيه السوس واستبداله بكمية جديدة، وأعجب القائد البرتغالى بآراء ناريم وكلفه بتنفيذ ذلك، وعندما تأكد ناريم بأن كل شىء جاهز للإجهاز على البرتغاليين أرسل للإمام وأخبره بكل ذلك وطلب منه الهجوم يوم الأحد لأنه يوم عيد عند البرتغاليين يتركون فيه سلاحهم

وأماكنهم للاحتفال وشرب الخمر وأنه سينتصر على البرتغاليين إذا أسرع بالهجوم على الحصون البرتغالية وأن نيران البرتغاليين ستكون فاسدة بعد أن بللها بالخل مما أفسدها[٢٧]، وانشرح صدر الإمام بما علمه واتجه إلى الله مصلى ثم تقدم بسرعة على رأس قواته فواصل إلى «الوادى الكبير» فى مسقط، وقد شاهدت المنطقة فترة البحث بمينى وهى الفترة من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٦م، وتضم المنطقة الآن مبان ومنشآت على أحدث طراز من المعمار كما لاحظت آثار طلقات مدافع على فم الجبال الصامدة بعد هذا الوادى فى اتجاه مسقط. وقد شهدت المنطقة تجمع قوات الإمام للهجوم على البرتغاليين، وانقسم رجاله إلى قسمين لمهاجمة الحصون وقسم للاندفاع داخل الحصون حتى تتم المفاجأة، ولسرعة الهجوم وعنفه وقوة نيران الإمام استطاعت تدمير الأبراج التى أعدت للمراقبة، واستخدمت قوات الإمام سلالم من حبال للصعود وللنزول داخل الحصون، ولم يوقف زحفهم أحد من الجنود البرتغاليين بفعل شربهم للخمر ولو دارت رءوسهم منها فى تلك الليلة فتمكن العمانيون من قتل رجال الحامية بالسيوف والرماح، وقسم الإمام رجاله على الحصنين الشرقى والغربى فتم الاستيلاء عليهما، وكذلك المواقع المهمة التى كانت بيد البرتغاليين، ثم هاجمت قوات الإمام مطرح واضطر قائدها البرتغالى للتسليم وضمن له الإمام سلامة حياته مقابل تسليمه الحصن وأرسل الإمام بعض رجاله المدربين للغوص تحت الماء للوصول إلى سفينتين برتغاليتين أمام شواطئ مطرح ومسقط لإغراقهما حيث كانا يطلقان النيران على قوات الإمام وليتم النصر النهائى على البرتغاليين[٢٨]، وهذه القصة توضح تباين عناصر القوات البرتغالية وعدم تجانسها من برتغاليين متميزين وهنود مسايرين لهم صاغرين لأوامرهم مما كان عاملاً مهمًا فى نهاية القوات الأجنبية الداخلية فى عمان، وقد كرم الإمام سيف ابن سلطان ناريم وعائلته تقديرًا لخدماته وعين الإمام سيف ابنه بلعرب حاكمًا على مسقط وعاد هو إلى نزوى عاصمة عمان بالداخل وربما يرجع ذلك لقلة إيمان الإمام بالمدن الساحلية وعدم الاطمئنان على سلامتهم فيها، وفلا أرسل نائب الملك البرتغالى بعد سماعه بهزيمة البرتغاليين قوات من جوا إلا أن حملته

قد فشلت فى إنقاذ مسقط من يد العمانيين وعودة البرتغاليين وإحضارهم فى الهند، وتم استقبال الإمام فى نزوى استقبال الأبطال المنتصرين وكانت هذه الانتصارات حافزًا للإمام سيف بن سلطان على أن يستمر في جهاد ضد البرتغاليين على سواحل المحيط الهندى وشرق إفريقيا فضلاً عن إنهاء وجودهم على السواحل العمانية[٢٩].

ومن منطلق العداء المشترك للوجود البرتغالى فقد سادت العلاقات الهولندية البحرية لون من الود بدا واضحًا بإعراب الهولنديين عن سرورهم لاستيلاء العمانيين على مسقط ١٦٥٠م، لاسيما أن ذلك قد أدى إلى زيادة وتضخم التجارة الهولندية فى المنطقة، إذ أن هولندا استطاعت جلب اثنتى عشرة سفينة إلى وكالتها التى أقامتها فى جومبرون، وبذلك تضخمت المصالح التجارية الهولندية بعد سقوط مسقط ونكبة البرتغاليين وانهيارهم.

٣ـ الصلات العمانية الفارسية الإنجليزية:

أولاً: العلاقات العمانية الفارسية:

كانت النزاعات مشتعلة بين العمانيين بصفتهم القوة العربية المحلية القوية مع الفرس فى هذه المنطقة تتخذ شكل غارات نهب وسلب وذلك لسببين:

الأول: عدم وجود قوة إسلامية تمثل دولة كبرى فى الخليج تملك من الإمكانات ما يؤهلها للسيطرة على هذه الخلافات المحلية.

الثانى: عدم وجود تهديد قوى لامتلاك القوى المحلية يشعرها بأنها تواجه خطرًا حقيقيًا وإن كانت فيه ولا تدركه وكان ذلك يتمثل أخيرًا فى التهديد البرتغالى المسيحى، ولم تتكون قوة مشتركة عربية فارسية إلا سنة ١٦٢٠ تهدف إلى القضاء على قوة البرتغاليين التى كانت تمثل موقعًا على الساحل العربى قرب رأس الخيمة «جلفار»[٣٠]، وفى عهد الإمام ناصر بن مرشد مؤسس دولة البعارنة، والذى أخذ يعمل على تحرير عمان وجلفار من القوى الفارسية فضلاً

عن مواجهة للخطر البرتغالى، وقد ظهرت بعض نواحى التضامن الإسلامى بين العمانيين والفرس فى مقاومة البرتغاليين أحيانًا، ولكن نلاحظ أن فارس أخذت فى عهد الإمام ناصر بن مرشد تهادن البرتغاليين فى بعض المواقع؛ ففى عام ١٦٢٥ تم عقد صلح بين البرتغاليين والفرس اعترف فيه البرتغاليون بانتقال تبعة هرمز وقشمة إلى الشاه عباس على أن ينالوا نصف عوائد الجمارك فى كنج الواقع بالقرب من لنجه الحالية[٣١]، وبذلك ساءت العلاقات بين عمان وفارس حيث يحتفظ الفرس بقوات لهم فى برج حصن قريب من جلفار، فأرسل الإمام ناصر بن مرشد قوات لمحاربة الفرس واشتبكت معهم فى معركة حامية، فساعدت السفن البرتغاليين الراسية قرب مكان القتال القوات الفارسية بالمؤن والسلاح، بل اشتركوا فى القتال إلى جانب الفرس، إلا أن العمانيين حققوا النصر وتمكنوا من القضاء على القوات الفارسية المتواجدة فى هذه المنطقة[٣٢]. وعندما اتجه الإمام سيف بن سلطان لمحاربة البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى اتجه أيضًا إلى محاربة الفرس فى الوقت نفسه فى مياه الخليج العربى، إذ أرسل حمله مكونة من خمس قطع بحرية وعليها ألف وخمسمائة رجل لمهاجمة منطقة كنج الفارسية، وتمكنت قوات الإمام من القضاء على قوات الفرس بها، واستولت على كثير من المغانم، مما دعى الفرس إلى طلب المساعدة من الوكالة الإنجليزية لوقف وإعاقة السفن العربية عن التقدم نحو فارس، ومساعدتهم أيضًا فى مهاجمة مسقط، وعندما وجد الإنجليز أن الهولنديين مستعدون لتقديم العون لفارس ولرغبتهم فى الحصول على تسهيلات تجارية إلا أنه عندما تخلى الفرس عن فكرة مهاجمة مسقط ارتاح الإنجليز إذ حرم الهولنديون من تقديم خدماتهم للفرس، وربما تراجع الفرس لعدم قدرتهم على تحقيق انتصار فى مسقط[٣٣] على قوات الإمام المجهزة تجهيزًا حسنًا، وقد انزعج تجار فارس من تزايد قوة الأسطول العمانى والذى يهاجم السفن التى تحمل الراية الفارسية، وقد شارك الإنجليزى الفرس مخاوفهم، بأن وصف مدير الوكالة التجارية الإنجليزية فى جمبرون أعمال السفن العمانية، على أنها فرصة فى وقت لم يتحدث أحد من الأوروبيين عن ذلك فى الخليج.

ثانياً: العلاقات العمانية الإنجليزية:

تزامن إرسال الإنجليز لأسطولهم البحرى فى الخليج مع قيام دولة البعارن فقد تم الترخيص لشركة الهند الشرقية للعمل فى سنة ١٦٠٠ وتم بناء ناقلة بحرية إنجليزية حمولتها ١٠٠ طن وأرسلت بقيادة السير هنرى ميدلتون Midloton Henery ولحقت بها عام ١٦١١ ثلاث سفن بقيادة الكابتن سارير saris ثم فى عام ١٦١٣ قدم مستر ستيل Stiele إلى الهند فى مهمة تجارية أيضًا ولدراسة ما يتعلق بالنواحى التجارية اقترح على شركة الهند الشرقية ضرورة فتح باب التجارة مع فارس[٣٤]، وأرسلت بقية لدراسة منطقة فارس وساحل عمان وزار «كروتر» مسقط وكنج وبوشهر وجاسل وأشارت التقارير إلى أفضلية جاسل للتجارة الإنجليزية لاتساعه لرسو السفن من خمسمائة إلى ستمائة طن فيه[٣٥]، وبهذا البعد نجد الاهتمام الإنجليزى العملى بمنطقة الخليج، وتضاربت آراء الإنجليز بأهمية التجارة مع فارس «فمستر توماس روكان» فى البداية يعارضها ثم يتحمس لها بعد ذلك، كما أن مستر توماس الذى اتخذ من أصفهان مقرًا له فترة من الوقت عارضها بشدة، وفى سنة ١٦١٧ وصل لأصفهان سفير إسبانيا مما أزعج الوكيل الإنجليزى لشركة الهند الشرقية، فى الوقت الذى تجمع الأسطول البرتغالى فيه عند مسقط لعرقلة التجارة الإنجليزية، ولكن استطاع الإنجليز عقد اتفاقية تجارية مع فارس فى سنة ١٦١٨، ثم نجح الإنجليز فى العام التالى ١٦١٩ فى الحصول على بعض المزايا الأخرى مما دفع الملك الإنجليزى لأن يرسل خطاب شكر للشاه علىّ ١٦٢٠[٣٦]، ثم اتسعت العلاقات التجارية الإنجليزية فى الخليج مع زيادة حجم الوجود البحرى الإنجليزى فى المنطقة وقاصر مع فارس، وفى عام ١٦٢١، أبحرت السفينة لندن من مياه ساحل عمان إلى صور، وانضمت إليها سفينتان وسارت جميعًا إلى سورات فى الهند، ثم فى نوفمبر ١٦٢١م اتجه أسطول إنجليزى من تسع قطع بحرية حربية من سورات إلى الخليج وأقام الإنجليز مركزًا تجاريًا لهم فى «جمبرون» بندر عباس فيما بعد، ونقلوا منشآتهم التجارية من جسك، وتطورت العلاقات الإنجليزية الفارسية إلى التحالف المشترك ضد الوجود البرتغالى فى

الخليج، فساعد الإنجليز فارس فى الهجوم على قلعة قشمة مقر قيادة فرير القائد البرتغالى واستسلم فى فراير عام ١٦٢٢م[٣٧]، ثم قامت القوات الإنجليزية الفارسية بمهاجمة البرتغاليين فى هرمز حيث تمكنوا من هزيمتهم فى ٢٣ إبريل ١٦٢٢م، ووقعت هرمز فى يد القوات الإنجليزية الفارسية المشتركة، ثم طلب الفرس المساعدة لمحاربة البرتغاليين فى مناطق أخرى من الإنجليز عام ١٦٢٤م لاحتلال مسقط والبصرة ولكن تهرب الإنجليز من المطالب الفارسية، وكانت سياسة الإنجليز بذلك واضحة فى تصفية الوجود البرتغالى فى الخليج دون العمل على إحلال الفرس أو غيرهم محل البرتغاليين، ولذلك فترت العلاقات بين الإنجليز والفرس منذ عام ١٦٢٦م خاصة عندما حاول الإنجليز بناء حصن لهم في هرمز ومعارضة فارس لذلك، وربما شجع ذلك الإنجليز على مقاومة خطة الفرس فى مساعدتهم لغزو عمان ١٦٣٢م ثم أرسلت شركة الهند الشرقية عام ١٦٣٩م مندوبين عنها لفتح باب التجارة على البصرة فوصلوها عام ١٦٤٠م ونجحوا فى إقناع حاكمها وحصلت الشركة الإنجليزية على مزايا عديدة فى هذا الميناء المهم[٣٨].

٤ـ التواجد العربى ثم البرتغالى فى شرق إفريقيا:

قدم عرب الخليج وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى شرق إفريقيا بقصد التجارة في أول الأمر ثم الاستقرار فيما بعد ومما ساعد على تسهيل هذا التواجد معرفة الملاحين العرب باتجاه الرياح الموسمية حيث أثرت هذه الرياح فى هذه المنطقة من ديسمبر حتي أواخر مارس من كل عام، تدفع الرياح المراكب العربية من شواطئ الخليج وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى سواحل شرق إفريقيا ومن شهر إبريل حتى أواخر ديسمبر من كل عام تدفع الرياح الجنوبية الغربية نفس المراكب فى طريق العودة[٣٩]، وأثناء هذه الدورة للرياح الموسمية يتم التعامل التجارى، كما ساعدت هذه الرياح فى الوقت نفسه التجار الهنود للاتصال بسواحل شرق إفريقيا مما سهل نقل تجارة الهند وزراعاتها لهذه المنطقة وخاصة جوز الهند، واستمرت هذه الرياح من الأسرار التى احتفظ بها

العــرب والهنود[٤٠]، وقد اكتفى العرب قبل الإسـلام بالاستقرار المؤقت على الساحل دون التفكير فى التوغل فى الداخل اكتفاءً بإنشاء المراكز التجارية[٤١]، وذلك لتصدير الذهب والعاج والرقيق الذى يشحن بالسفن لفارس والإمبراطورية الرومانية ويقايض التجار العرب هذه المنتوجات بالخرز الذى كان يجلب من الهند فى أول الأمر كما استخدم الرقيق فى حراسة القوافل وزاد الاختلاط بالتزاوج بين العرب والأفارقة، ولكن بعد ظهور الإسلام أصبح هدف نشره عاملاً مضافًا إلى عامل التجارة مما سهل عملية استقرار العرب، وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية، فقامت الإمارات والمدن الإسلامية، وكثر عدد الوافدين العرب على سواحل إفريقيا الشرقية واستقرارهم هناك، وقد مدت دولة البحارنة نفوذها إلى خارج عمان، وأهم تلك المناطق كانت سواحل شرق إفريقيا التى شهدت فى الفترة نفسها تواجدًا برتغاليًا ويستدعى الأمر معرفة كيفية هذا التواجد:

يرتبط التواجد البرتغالى فى شرق إفريقيا بحركة قدومهم الأول من البحار الشرقية حيث وصل فاسكو دى جاما بدورانه حول القارة الإفريقية لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى مدينة سفالة، وكانت أول مدينة إسلامية فى شرق إفريقيا، وأرسل سلطان كلوه مندوبًا عنه للترحيب بالبرتغاليين القادمين باسم حاكم المدينة ظنًا أنه أسطول تركى أو تابع لدولة إسلامية، وعندما اكتشف أمر البرتغاليين واتضح مقصدهم بدا الصراع والعنف بين البرتغاليين والسكان المحليين، وقد أشار البعض إلى ذلك بأنه انتقال للحروب الصليبية فى القرن السادس عشر من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى[٤٢] ، واستخدمت نفس أساليب الصليبيين ضد السكان المحليين الآمنين من إحراق للمدن واسترقاق للسكان والاستيلاء على السفن التجارية والحجاج، وبعد صراع احتكر البرتغاليون التجارة التى كانت بيد التجار العرب من عمان واليمن وشاب هذا الصراع نزعة دينية متعصبة[٤٣]، وبادرت القوى التى ضرها اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح للمساعدة والجهاد ضد البرتغاليين، فقام المماليك فى مصر متعاونين على البنادق عاملين على عرقلة انحراف طريق التجارة عن بلادهم، ثم قام العثمانيون بعد استيلائهم على المشرق العربى بعد مجهود لتصحيح طريق

التجارة وعودة للطريق القديم وبرز من قوادهم فى البحر بيرى بك وسيدى على رئيس وعلى شلبى وغيرهم دون جدوى، بينما أسس البرتغاليون مناطق نفوذ لهم على الشاطئ الشرقى لإفريقيا إدراكًا منهم لأهمية موانئ شرق إفريقيا كمحطات لتموين سفنهم التجارية والحربية بالمؤن والعتاد. فرض البرتغاليون سيطرتهم على موزمبيق وفرضوا سيطرتهم على كلوة واقتلعوا ممبسه بعد أن شهدت أغلب هذه المناطق مظالم البرتغاليين وقسوتهم من حرق وتدمير للمدن والسفن ولشدة ما تعرضت له ممبسه أطلق عليها مدينة الحرب[٤٤]، وتحالف البرتغاليون مع حكام مالندى بينما تركزوا فى القسمة الجنوبية من الممتلكات الإسلامية فى شرق إفريقيا، وربما يرجع سبب ذلك إلى اعتدال مناخ المناطق الجنوبية ولقرب هذه المنطقة من مناجم الذهب، وعمل البرتغاليون على فرض نظام مالى يتم بموجبه أخذ الجزية من القسم الشمالى من ممبسه حتى رأس جود تون والاعتراف بسيادة البرتغاليين أحيانًا، وكان الاستغلال المالى والاحتكار التجارى من أسباب كره السكان للبرتغاليين، بل ثم النص فى اتفاق بين شيخ ممبسه والبرتغاليين على عدم الاتصال بالأتراك[٤٥]، مما يوضح أن الدولة العثمانية كانت رافعة راية الدفاع عن العالم الإسلامى حتى لهذه الأرجاء البعيدة من ذلك العالم، وقد اتخذ العثمانيون من عدن مركزًا لمهاجمة البرتغاليين فى المحيط الهندى واتخذ «على ميرال بك» من جدة قاعدة لمهاجمة البرتغاليين فظهر أمام شواطئ إفريقيا الشرقية عام ١٥٨٥م مما بعث روح الأمل فى نفوس السكان المسلمين، كما أعلن الحكام المحليون من مقديشيو حتى ممبسه أنهم على ولاء للسلطان العثمانى مراد الثالث لفيليب الثانى ملك إسبانيا، ولكن عندما قدم أسطول برتغالى مرجوا استجابة من الحامية البرتغالية فى مالندى لم تواصل هذه المناطق ثقتها ضد الحكم البرتغالى، واستسلمت مرة أخرى وعادت للتبعية البرتغالية، ولكن استنجدت ممبسه بعلى بك عام ١٥٨٨ الذى أسرع إليها فى وقت داهمت أخطار داخلية إفريقيا على أسطول برتغالى مدينة ممبسه مما أدى إلى القبض على «على بك»[٤٦] ، وقضى على آمال مسلمى شرق إفريقيا للتخلص من الحكم البرتغالى بناء قلعة يسوع فى ممبسه عام ١٥٩٢م. واستغرق بناؤها عامين ومنحوا أمارة ممبسه إلى سلطان مالندى، «حسن على»على ثلث إيراد

الجمارك، ورابطت حامية برتغالية فى القلعة قوتها مائة جندى[٤٧] ، وفى عام ١٦١٤ دبر البرتغاليون قتل سلطان مالندى وحملوا ابنه يوسف وهو فى سن السابعة إلى جوا فعمدوه نصرانيًا ونشأوه تنشئة برتغالية وأعطوه اسم جير وندمو شينجوليا، وفى عام ١٦٣٠ عينوه على عرش ممبسه وذلك لتعليمه الإدارة المباشرة. واتبع البرتغاليون ما اتبعوا مع يوسف فى مناطق موزمبيق والرؤساء المحليين الإفريقيين فى مناطق أخرى، وإن كانت هذه السياسة ناجحة مع من لا يؤمنون بدين سماوى وتم جذبهم للمسيحيين إلا أنها لم تحقق ذلك على الأمراء المسلمين[٤٨] ، وفعلاً خلع سلطان ممبسه الجديد المسلم رواء البرتغاليين فى أغسطس ١٦٣١ أثناء احتفالات توليته بأن قتل القائد البرتغالى ردًا على تحينه وحذا أتباعه حذوه بقتل البرتغاليين وأخذت الثورة فى أكثر المدن الإسلامية، وأرسل البرتغاليون ست سفن من جوا عليها ستمائة برتغالى لمعاقبة يوسف وحاصروا القلعة التى تحصن بها مع مائتين من رجاله العرب والأفارقة، وبعد مدة الحصار التى استمرت ثلاثة أشهر عاد البرتغاليون وأنهوا الحصار[٤٩]، ولكن أرسل نائب الملك فى جوا حملة ثانية لممبسه، فوجدوا القلعة حطامًا بعد أن هدمها يوسف واتبع أسلوب أشبه بحرب العصابات وتنقل بين القبائل يحثهم على الجهاد حتى مات عام ١٦٣٨م، ولكن ثورة يوسف جعلت البرتغاليين يعيدون بناء قلعة يسوع سنة ١٦٣٩م واتخاذها عاصمة للشمال كما اتخذوا من موزمبيق عاصمة للجنوب وحرموا هجرة العرب إلى هذه المناطق، ومعاقبة الأمراء المخالفين لذلك وهذا يوضح لنا ازدياد نفوذهم فى شرق إفريقيا فى الوقت نفسه الذى أخذ نفوذهم يتلاشى كقوة بحرية لها قوتها، وكان لذلك أثره على الحكم الإسلامى العربى الذى هدد بالزوال من هذه المناطق نهائيًا.

وفى النهاية لا يسعنا إلا أن نقول إن عمان ظهرت بعد سقوط الأندلس كأكبر قوة عربية بحرية استولت على موانئ البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربى؛ فإفريقيا الشرقية حتى رأس الرجاء الصالح، وصار أهل عمان سادة هذه البحار، وأصبح لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالى وأجلاه عن الموانئ الهندية والفارسية والإفريقية، ولقد كان الأسطول العمانى مؤلفًا من ثلاثمائة

قطعة من بارجة وفرعا طرد نسائه وحرّاقه، قبل أساطيل المماليك والدولة العثمانية، ولم يعد الإنجليز على قوة هذه الدولة البحرية التى كانت تهددهم فى أملاكهم فى آسيا وإفريقيا فعملوا على مدى ثمانية أعوام على إضعافها والقضاء عليها وضرب الأسطول البرتغالى مدنها بالقنابل[٥٠]، ولكن كان العمانيون قد أحرزوا السيطرة على الجزر والسواحل فى شرق إفريقيا، وكان البرتغاليون قد استولوا على هذه الموانئ منهم عام ١٥٠٣م[٥١].

اتجهت البرتغال لاكتشاف الطريق إلى الهند لاحتكار تجارة التوابل الشرقية، وقد ثارت كثير من المدن العربية ضدهم حتى تلك المدن التى بشرق إفريقيا كثورة الجزيرة الخضراء سنة ١٥٨٧م على مظالم البرتغاليين ووحشيتهم ضد الرجال والنساء والأطفال، بينما كانت العلاقات العمانية مع شرق إفريقيا قديمة لازدهار التجارة وانتشار الإسلام بين سكان تلك الأقاليم.

حقق العمانيون انتصارات عظيمة ضد البرتغاليين على يد الإمام سلطان بن سيف عام ١٦٥٠م فى عمان وعلى ١٦٦٠م فى شرق إفريقيا، ثم على يد الإمام سيف بن سلطان البحرى حيث طرد البرتغاليين من عمان نهائيًا وكذلك من ممبسه وكلوه وبمبا فى شرق إفريقيا.

الهوامش

(١) تولى الملك عام (٩٨٠هـ - ١٥٧٢م).

(٢) السالمى: تحفة الألبان بسيرة جـ ١ ص ٣٩٦، ٣٩٨ أهل عمان.

(٣) Miles op. cit. p. 183 Badger, History of the Imanns and seyyids of Oman, p. 44.

(٤) السالمى، المرجع السابق، ج ٣٩٧-٣٩٨.

(٥) جمال زكريا قاسم الخليج العربى دار الفد العربى طبع ١٩٨٥، ص ٦١، ٦٢.

(٦) المرجع السابق، ص ٣٩٩.

(٧) Badger, op. cit., p. 44.

(٨) محمود على الدواد محاضرات عن التطور العباسى لقضية عمان ١٩٦٤، ص ١٨ وانظر
Miles: op. cit., p.p. 183-184.

(٩) السالمى - المرجع السابق جـ ١، ص ٣٧٣، ٣٨٦، ٣٨٩.

(١٠) حمير بن زريق، الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيدين، ص ٢٥٤.

(١١) Kajare, Fivour, Le Sultan de Oman., p. 57.

(١٢) Dennis: op. cit., p. 114.

(١٣) السير أرنولد ويلسون، المصدر السابق، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(١٤) Miles: op. cit., p. 150.

(١٥) Ross: op. cit., p. 160.

(١٦) كان المعتاد دفع الجزية للبرتغاليين منذ قدومهم إلى المنطقة.

(١٧) ص ٥٧ أبيض وأسود (ورق) Cullain, Docu Ross: op. cit., p. 160

(١٨) Badger: cit., p. 67.

(١٩) وانظر: Miles: op. cit., p. 204.

(٢٠) Dannis: op. cit., p. 161.
وانظر: Miles: op. cit., p. 204.
Ross: op. cit., p. 151.

(٢١) كان المعتاد دفع الجزية للبرتغاليين منذ قدومهم إلى المنطقة.

(٢٢) Caldana: J.A. portuguese in the persian Gulf, p. 40.

(٢٣) Dannis: op. cit., p. 154.

(٢٤) السالمى: تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٢.

(٢٥) المرجع السابق، ج٢، ص ٦٢.

(٢٦) السالمى: المرجع السابق، ج٢، ص ٦٦.

(٢٧) السالمى: المرجع السابق، ج٢، ص ٦٧.

وانظر: Badger, op. cit., p. 80.

(٢٨) Badger, op. cit., p. 87.

(٢٩) وانظر السالمى ج٢، ص ٦٢، المرجع السابق.

وانظر: Dennis: op. cit., p. 155.

Badger, op. cit., p. 89.

(٣٠) Danvors: op. Cit., p. 211.

(٣١) لوريمر، المرجع السابق، جـ ١ ص ٤.

(٣٢) Ross: op. Cit., 160.

وانظر Badger: op. Cit., p. 66.

(٣٣) لوريمر، المرجع السابق، جـ ١ ص ١٢٧.

(٣٤) سليم طه التكريتى، الصراع فى الخليج، ص ٣٥.

(٣٥) Dennis, op. cit., p 210.

(٣٦) Miles: op. cit., p. 207

(٣٧) لوريمر، المرجع السابق، جـ ١ ص ٤٠، ص ٤٤.

وانظر Saldanha: op. Cit. P, Kvii

(٣٨) لوريمر، المرجع السابق، جـ ١ ص ٤٩.

(٣٩) رجب حراز (دكتور) شرق إفريقيا والاستعمار الأوروبى ص ١.

(٤٠) Coupland; op. cit., p. 16.

(٤١) جمال زكريا قاسم (دكتور) استقرار العرب ص ٨٢، ودولة بوسعيد لنفس المؤلف ص ١٤.

(٤٢) Karph: Travola R

وانظر: Missionary. to. p. 520.

(٤٣) زين الدين «تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين».

نشره David Lopes, p. 45

(٤٤) جمال زكريا (دكتور) دولة بوسعيد، المرجع السابق، ص ١٨.

(٤٥) صلاح العقاد جمال زكريا ص ٢٣.

(٤٦) رجب حراز شرق إفريقيا والإستعمار الأوروبى ص ١٨.

Marharat, fort J.S Mambasa an Histoiroas pnasis gid: p. 6. (٤٧)

وانظر .Coupland: E. Africa and its invadars in 1866

Coupland: E: Africa and its Invadars in 1866. (٤٨)

(٤٩) صلاح العقاد د/ جمال زكريا: زنجبار ص ٢٨.

(٥٠) عمان والخليج قضايا ومناقشات، عادل رضا طبع ١٩٦٩ دار الكتب.

(٥١) جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار تأليف سعيد بن على المغيرى عن وزارة التراث القومى ص ٥٣٢.

الفصل الخامس

الاحتكارات التجارية والصراع الدولى فى الخليج

١ ـ العلاقات الإنجليزية الفارسية.

٢ ـ التواجد الهولندى فى الخليج.

٣ ـ الصلات الفرنسية بمنطقة الخليج.

٤ ـ الصراع الدولى فى الخليج والمحيط الهندى.

١ - الإنجليز وعلاقتهم بالدولة الفارسية:

أخفى البرتغاليون الخرائط والإشارات التى توضح الطريق إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح[1]، مما أدى إلى تأخر وصول القوى الأجنبية الأوروبية الأخرى عن وصول البرتغال إلى الشرق بمدة تصل إلى قرن من الزمان، وبينما اعتمد التواجد البرتغالى فى الشرق على إمبراطور والقادة العشرين، اعتمد النشاط البحرى الإنجليزى والهولندى على الشركات التجارية المكونة من رأس المال الخاص، إلا أن المغامرين من الإنجليز والهولنديين لم يتوانوا عن البحث للوصول إلى الهند، وحاول الإنجليز حوالى منتصف القرن السادس عشر سلوك طريق شمال أوروبا عبر روسيا وفارس للوصول إلى البحار الشرقية، وقد خرج تاجر إنجليزى عام ١٥٥٣ ويدعى ريتشارد شان Richerd ohan من إنجلترا إلى روسيا عن طريق البر، وأسس شركة تجارية للتعامل مع الشرق سميت «شركة روسيا»، وأطلقت لها الحكومة الإنجليزية الحق فى المتاجرة مع روسيا عام ١٥٥٥م، وخطر لهذه الشركة فكرة الوصول إلى الهند عبر فارس، حتى يسهل الحصول على الحرير الفارسى الذى يعتبر أهم مصادر الربح فى ذلك الوقت، وقد جهزت الشركة بعثة غادرت موسكو عام ١٥٦١م قاصدة فارس حيث أماكن إنتاج الحرير فى الشمال، ورأس البعثة جانكسون Anthony Jenkisson[2] ، وتسلم خطاب توصية من ملكة إنجلترا إليزابيث إلى الشاه فهما سب، تعرب فيها الملكة عن رغبتها فى إقامة علاقات الصداقة والتعاون بين الدولتين، إلا أن الحملة فشلت، لرفض الشاه التعاون مع الإنجليز[3]، هذا فضلاً عن ما واجهته

البعثة من مشاق عبر الطريق الصحراوى مثل ندرة الماء[٤]، وأرسلت بعثة أخرى عام ١٥٦٨ برئاسة أرثر أدوارد Arthur Edward. فوصلت إلى سواحل بحر قزوين فى ١٤ أغسطس ١٥٦٨م، وقابلت الشاه وحصلت على فرمان سمح للبعثة بالتجول فى المدن الفارسية، وبيع ما لديهم من منسوجات إنجليزية والإعفاء من دفع الضرائب الجمركية، ووجدت البعثة بضائع من أقمشة إنجليزية فى الأسواق الفارسية تجىء إليها عن طريق الشام والقسطنطينية بواسطة التجار الأرمن والشوام، ووصل بعض أفراد هذه البعثة إلى هرمز[٥]، ثم استخدم الإنجليز الطريق البرى إلى البصرة ومنها إلى هرمز عام ١٥٨٠، ثم جاء فريق آخر نزل بالشام من إنجلترا ثم إلى بغداد بطريق القوافل الصحراوى، ومنها إلى البصرة ثم الإبحار إلى هرمز، ولكن قبضت السلطات البرتغالية عليهم واتهمتهم بالتجسس والتآمر ضد مستعمراتهم الشرقية، وأرسلتهم إلى جوا بحراسة ولكن تحقق لهم الهرب عام ١٥٨٥[٦]، ونتيجة لهذه البعثات أسرع الإنجليز فى القدوم إلى المنطقة[٧]، وكان الاتصال الإنجليزى المباشر بالشرق نتيجة لوساطات تجارية عديدة مما تسبب فى رفع أسعار المنتجات الشرقية، ورفع التجار الهولنديون أسعار الفلفل وأنواع التوابل الأخرى عام ١٥٩٩ من ثلاثة شلنات إلى ثمانية للرطل الواحد، وكانت التوابل تستخدم فى حفظ اللحوم المقددة والخمر الممزوج بالتوابل[٨] ، وابتداءً من مطلع القرن السادس عشر بدأت السفن البريطانية تشارك السفن الإسبانية والبرتغالية والهولندية والفرنسية فى التجارة التى تصل إلى موانئ البحر المتوسط[٩]، ولم يكن هذا القرن ينتهى حتى شعرت السوق البريطانية بحاجتها لمزيد من البضائع والمنتجات الشرقية[١٠]، وقد تحقق للإنجليز الوصول المباشر إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وكر احتكار البرتغال وهولندا لهذا الطريق[١١] بواسطة شركة الهند الشرقية البريطانية التى عرفت باسم The Honourable East India Company.

تأسست شركة الهند الشرقية الإنجليزية للتجارة مع الشرق فى ٣ أكتوبر ١٦٠٠م بعيدًا عن سلطة الحكومة الإنجليزية[١٢] خاصة لتجارة التوابل والحرير والعقاقير والعطور واللؤلؤ والمجوهرات على أن يتم تصدير المنسوجات القطنية والنحاس والقصدير كمنتجات إنجليزية إلى الشرق، وصدر مرسوم للملكة

اليزابيث سنة ١٦٠٠م فى ٣١ ديسمبر[١٣] ، ويعتبر وثيقة رسمية تمنح الشركة الحق المطلق فى احتكار التعامل التجارى مع الشرق. وقد قدر لهذه الشركة أن تلعب دورًا مهمًا فى التاريخ السياسى والاقتصادى الإنجليزى بل والشرق على السواء، وقبل قيام الشركة بأعمال قام بعض المغامرين الإنجليز بالاتصال بالحكومة الفارسية، ولرحلة الأخوين شيرلى يرجع الفضل فى كشف الطريق للتجارة الإنجليزية وإبراز أهمية التجارة مع فارس عن طريق الخليج وكذلك منطقة الخليج نفسها، وقام الأخوان أنتونى ورد برت شيرلى برحلة إلى فارس فقد خرجا من إنجلترا عام ١٥٩٨م إلى البندقية ومعهم ٢٦ من الأتباع، وقد غادرت البعثة البندقية إلى الشام، ثم عبرت الصحراء إلى بغداد ومنها إلى بحر قزوين، واستقبلت البعثة الشاه عباس استقبالا طيبًا[١٤]، وقد وقعت الملكة إليزابيث الأولى Elizabethi وثيقة إنشاء هذه الشركة وكان الهدف من إنشائها بسط السيطرة البريطانية على تجارة شبه القارة الهندية واستقلالها، وتحقيق أهداف بريطانيا الاستعمارية فى بلاد الشرق بوجه عام، ورغم أن السياسة الأساسية للشركة كانت تقوم على أساس تجنيب الامتلاك الكامل للأرض الأمر الذى يمكنه أن يخضع للضرائب وتوفير إمكانات الدفاع عنها، إلا أن ذلك كان ضروريًا لضمان امتداد المصالح التجارية للشركة التى تأكد نجاحها تجاريًا بالفائدة الضخمة التى حققتها الرحلات القليلة الأولى، بل إن عقد المعاهدات والتدخل فى شئون الولايات الهندية كان أمرًا متعذر اجتنابه بالنسبة لوكلاء الشركة وذلك لشدة منافسة الأوروبية لهم فى ذلك الميدان، وقد ركز الإنجليز نشاطهم فى الهند بصفة خاصة بعد اصطدامهم مع الهولنديين فى جزر الهند الشرقية فى سنة ١٦٢٣م، كما اصطدموا بالفرنسيين الذين أسسوا شركتهم فى سنة ١٦٦٤م.

انظر:

Philips, cit East India company 1784 - 1834, p. 1.5.

Johnston, H13 ritain across the seas, p 312.

George, H. 13. Ahistorical Georgraphy of the Britis Empire, pp. 217, 228.

Rawlin som, H. G Britsh Beginnings in western india, 1579 - 1657, p. 17.

استفاد الشاه من بعثة الأخوين شيرلى[١٥] مما قرب منزلتهما من الشاه عباس، فاستعان بهما فى حل مشاكله الداخلية، وكلفهما بالمساهمة فى تكوين جيش منظم وقوى على غرار الانكشارية، وإنشاء مصانع حربية لتطوير الأسلحة الفارسية فضلاً عن المساهمة فى النشاط السياسى، فقد أرسل الشاه عباس أنتونى شيرلى سفيرًا معتمدًا من قبله إلى الدول الأوروبية، ليوطد العلاقة بين فارس وتلك الدول، فزار كلاً من روسيا والولايات الألمانية، والإيطالية، وقال الشاه فى رسائله إلى ملوك هذه الدول: «أرجو أن تثقوا به وبكل ما يطلبه أو يقول كأنه أنا شخصيًا».

كما أصدر الشاه فرمانًا إلى الشعب الفارسى يأمر فيه بفتح أبواب التجارة الفارسية أمام التجار من الدول المسيحية، وربما لمعاملة الأوروبية معاملة طيبة، وإعطائهم التسهيلات الممكنة فى كل المدن والموانئ الفارسية والحرية فى مزاولة الشعائر الدينية، علمًا بأن الشعب الإيرانى لم تصل حريته لهذه المكانة التى منحها الشاه عباس لرعايا الدول الأوروبية [١٦]، ومع ذلك فقد حقق السير روبرت شيرلى الهدف بتكوين علاقات إنجليزية خليجية دامت حوالى أربعة قرون، فوصلت أول سفينة إنجليزية تابعة لشركة الهند الشرقية إلى البلاط المغولى فى سورات سنة ١٦٠٨م بقيادة ويليام هوكنز الذى حمل خطابًا من جيمس ملك إنجلترا إلى إمبراطور المغول نور الدين محمد جهانكير، بأمل إقامة علاقات تجارية بين إنجلترا وشبه القارة الهندية، ولكن لم يحقق ذلك الصعوبات التي وضعتها حكومة المستعمرات البرتغالية فى جوا ثم خروجه من سورات، ولكن وصل أسطول تجارى إنجليزى إلى سورات بقيادة سير هنرى ميدلتون، وكررت شركة الهند الشرقية محاولات أخرى عام ١٦١٢م بإرسال أسطول إلى المياه الهندية بقيادة توماس بت Thomas Beat، وقد تمكن من تحقيق نصر تجارى إذ عقد اتفاقًا بين الإمبراطور المغولى وبين شركة الهند الشرقية الإنجليزية، أعطى للشركة الحق فى مزاولة التجارة فى شبه القارة الهندية، ثم توالت التطورات فأدت إلى تأسيس الشركة لأول وكالة تجارية لها فى سورات عام ١٦١٣م، وعندما وجدت شركة الهند الشرقية الإنجليز أنها معرضة لخطر البرتغاليين

الذين كانوا يعملون على وقف المنطقة عليهم وحدهم وعدم إعطاء الفرص للدول الأوروبية لتحقيق مناطق نفوذ لهم فيها اقترحت وجود سفير دائم من قبل الملك الإنجليزى لدى البلاط المغولي ودفع اختيار الملك الإنجليزى جيمس علي السير توماس رو لهذه المهمة، وتحول سفيرًا إنجليزيًا إلى الشرق فى عام ١٦١٥م لخبرته الطويلة فى مجال السياسة والاقتصاد[١٧] واستطاعت شركة الهند الشرقية أن تزيد من مقادير صادراتها إلى إنجلترا على وارداتها، مقابل إرسالها كميات كبيرة من الذهب والفضة ثمنًا لهذه المشتريات الشرقية خاصة بعد تأسيس وكالتها فى سورات، ومع معارضة رجال المال والتجارة والأفراد المساهمين والرأى العام الإنجليزى بصفة عامة، وخروج كميات كبيرة من الذهب والفضة ثمنًا للمنتوجات سواء التوابل من الهند والعطور والعقاقير والحرير من فارس، واعتبر ذلك خطرًا على الاقتصاد الإنجليزى، فمذهبهم التجارى فى ذلك الوقت كان Marchantitism يقوم على أساس تأكيد تنمية الصناعة الوطنية كهدف للتجارة الخارجية أى زيادة الصادرات الإنجليزية عن الواردات والاحتفاظ بالعملات الذهبية والفضية قدر الإمكان، وقد تمكنت شركة الشرق الإنجليزية زيادة الصادرات الإنجليزية من المنسوجات الصوفية والقصدير والنحاس ومقايضتها بالمنسوجات الشرقية إذ لم يكن ذلك سهلاً فى الهند حيث درجة الحرارة العالية والفقر الزائد حال دون ذلك فيها[١٨] ، ولكن تمكنت الشركة من إيجاد أماكن وأسواق أخرى لبضائعها في مناطق الشمالية الباردة فى فارس فقد وصل إلى علم وكيل الشركة أن المجال فسيح هناك حيث شاهد السكان المحليين يرتدون ملابس ثقيلة فى الشتاء الممتد لخمسة شهور، فضلاً عن أن الحالة المالية تحقق ذلك كما أن الطبقة الميسورة تتزين بالملابس المزركشة فى هذه المناطق[١٩]، واختار وكيل الشركة فى سورات شخص إنجليزى اسمه استيل ليقوم برحلة استكشافية إلى فارس يرافقه جون كرنز للحصول على مزيد من المعلومات حول القدرة الشرائية للسكان، ومحاولة الحصول على فرمان من الشاه عباس، يمنح الشركة حق شراء الحرير الفارسى وإعطاء التجارة الإنجليزية أفضلية ومعاملة حسنة، وإيجاد موانئ بحرية صالحة لرسو السفن التجارية المتجهة بالبضائع الإنجليزية إلى الأسواق الفارسية، وفعلاً اتجهت هذه البعثة من سورات عام

١٦١٥م عن طريق أجمير، وحمل استيل رسالة توصية إلى روبرت شيرلى، ولكن روبرت شيرلى استقبل الرجلين استقبالاً غير مشجع لهما[٢٠] وبما يحقق نجاحهما فى مهمتهما، ولكن تمكنت البعثة من تحقيق النجاح أكثر مما كان متوقعًا فقد أصدر الشاه فرمانًا موجهًا «إلى كل رعايا فارس على مختلف طبقاتهم، كبيرهم وصغيرهم أن يستضيفوا باحترام ولطف رعايا الآمر الإنجليزية الذين يقدمون إلى ميناء جاسك أو موان أخرى على الساحل الفارسى. ويجب على الشعب الإيرانى مساعدتهم فى نقل بضائعهم إلى اى مكان فى فارس، وأن أموالهم وسفنهم الراسية فى الموانئ الفارسية تحت حمايتنا، ويجب الدفاع عنها[٢١] ». حققت البعثة أهدافها فى أصفهان، فتوجهت إلى تقصى الوضع للموانئ الفارسية على الخليج فشاهدت بندر عباس وبوشهر والبحرين، ثم جاسك فوقع اختيار استيل على جاسك لبعده عن هرمز معقل البرتغاليين فضلاً عن أنه ذو موقع حصين[٢٢].

ويتميز ميناء جاسك كذلك بإمكانية استقباله لسفن حمولة من خمسمائة إلى ستمائة طن[٢٣]. عاد ريتشارد واستيل إلى سورات ومعهما فرمان الشاه عباس إلى سورات ولكن توماس والسفير الإنجليزى فى البلاط المغولى رأى عدم التسرع فى إنشاء وكالة تجارية فى مارس، واقترح توجهه بنفسه إلى أصفهان لدراسة الأحوال السياسية والتجارية فى فارس بدقة وعناية، واعتبر الفرمان غير كاف إذ لم ينص على ضمان الشاه بتحويل التجارة الإنجليزية إلى ميناء جاسك أو إلى ميناء آخر، ورأى أنه فى حالة نجاح المفاوضات بين السفير الفارسى والملك الإسبانى فإن فرمان الشاه للشركة يصبح عديم الفائدة، وأن الشاه سيقدم التسهيلات على الشاطئ الفارسى للبرتغاليين والملك الإسبانى إذا تعهدوا بشراء جميع المنسوجات الفارسية من الحرير، وعليهم إرسال أسطول برتغالى كل عام إلى فارس لحمل هذه المنتجات ويأتى لأسواق فارس بأنواع مختلفة من التوابل والكتان الهندى[٢٤].

حاول توماس إحباط المفاوضات الجارية بين فارس والإسبان، فأرسل خطاب شكر إلى الشاه عباس على منح الإنجليز تلك الامتيازات، وكذلك أعرب عن

مخاوفه من مواجهة بين الإنجليز والإسبان، وأن المفاوضات الفارسية الإسبانية تعارضه مع نصوص الفرمان الممنوح للإنجليز، لأن نجاح المفاوضات سيقضى على مبدأ حرية التجارة بالنسبة لكل الدول الأوروبية فى فارس، ومثل هذه الاتفاقات ستؤدى إلى استخدام الإنجليز للقوة مما يعرض أمن الخليج للخطر، ولكن وكلاء الشركة الشرقية بسورات فى الهند، كانوا يرون أن إنشاء وكالات تجارية إنجليزية فى فارس ضرورة لا مفر منها[٢٥] . واعتبر موضوع إنشاء وكالات تجارية إنجليزية فى فارس ضرورة تجارية بعيدًا عن السياسة؛ حيث إن مخاوف سير توماس رو السفير الإنجليزى بعيدة عن المنفعة الاقتصادية للشركة وهذا من وجهة نظرها ولابد من إتمام المطلوب فى أسرع وقت، واستغلت الشركة غياب سير روبرت عن فارس لوجوده بمهمة رسمية خارج البلاد، وأسرعت فى إنشاء المؤسسات التجارية هناك حيث اتخذت الشركة مبدأ الحذر من شيرلى[٢٦] ولتوقف التعامل التجارى بين فارس وأوروبا بسبب المعارك التى دارت بين فارس والدولة العثمانية تشجع المسئولين فى الشركة الشرقية الإنجليزية على اتخاذها هذا القرار، خاصة وقد وجد فائض كبير من الحرير الفارسى فى الأسواق التجارية، وفى الوقت نفسه ندرت المنسوجات الصوفية الإنجليزية المطلوبة فى الأسواق الفارسية، والشركة تبحث عن أسواق جديدة لفائض كميات المنسوجات والأصواف التى تتعرض للتلف إذا تم تخزينها فى أجواء حارة وكانت الكميات فائضة عن حاجة السوق[٢٧].

واعتبرت الشركة ميناء جاسك الذى وضعه الشاه تحت تصرفها من أحسن الموانئ الفارسية، لإمكانية استقباله للسفن التجارية الكبيرة، وأن سفينة حربية واحدة تكفى لردع البرتغاليين للدفاع عن هذ الميناء[٢٨]، وقد جاهد البرتغاليون من أجل الاحتفاظ بمنطقة الخليج لأنفسهم وفى الوقت نفسه مضت الشركة الشرقية الإنجليزية فى طريقها لإعداد الترتيبات اللازمة لضمان نجاح التعاون بينهم وبين فارس، فأنشأوا وكالات تجارية فى أصفهان وعلى ساحل الخليج وتم اختيار إدوارد كونك ليكون رئيسًا لبعثة شركة الهند الشرقية الإنجليزية لإنشاء وكالاتها فى فارس ومعه كل من توماس باركر، وجورج بلاى، وإدوارد بترز وآخرين

واستقلوا جميعًا السفينة فيميز Fameis عن سورات فى الثامن من نوفمبر ١٦١٦م، فوصلت إلى ميناء جاسك فى ٤ ديسمبر أى بعد سبعة وعشرين يومًا، رغم الصعوبات التى قامت فى طريقها بمدن السفن البرتغالية للحيلولة دون وصولها إلى مياه الخليج، توجه الوفد إلى الحاكم المحلى ذو الفقار خان، وقدموا له فرمان الشاه، فسهل لهم إمكانية نقل البضائع الإنجليزية إلى الموانئ الفارسية بالقوافل، وكانت هذه البعثة التجارية برأس مال متواضع يبلغ ٦٣٣٣ جنيهًا إسترلينيًا[٢٩]، وكان الهدف فتح الطريق أمام التجارة الإنجليزية فى فارس، وتحقيق التعاون التجارى بين البلدين، إضافة إلى دراسة قدرة الأسواق الفارسية ومدى صلاحية ميناء جاسك، واستمالة الشاه عباس، ثم اختبار موقف البرتغاليين العدائى فى منطقة الخليج للأوروبيين.

غادرت البعثة ميناء أصفهان لمقابلة الشاه عباس فوصلت فى ٢١ مارس ١٦١٧م[٣٠] واستقبلت البعثة استقبالا طيبًا من الشاه والمسئولين وقدمت البعثة رغبات الملك جيمس وشركة الهند الشرقية الإنجليزية فى العمل على إيجاد مؤسسات تجارية إنجليزية فى مارس، وتصدير أكبر كمية من الحرير الفارسى ونقلها إلى ميناء جاسك لتحملها السفن إلى أوروبا بدلاً من المرور فى الأراضى التركية، ومقابل ذلك تتعهدإنجلترا بالوقوف إلى جانب فارس إذا تعرضت لغزو أجنبى على أن يكون التعاون وثيقًا بين الدولتين[٣١] ووافق الشاه فعلا على إنشاء وكالتين تجاريتين لشركة الهند فى كل من أصفهان وشيراز، ووعد البعثة بإنشاء وكالة ثالثة فى ميناء جاسك، أو أى ميناء آخر على الساحل تختاره الشركة، مقابل توجه السفن الإنجليزية التجارية سنويًا إلى ميناء جاسك كخطاب الملك جيمس إلى الشاه الذى حملته البعثة إليه[٣٢]، وأصدر الشاه فرمانًا برغبته فى تبادل التمثيل الدبلوماسى بين الدولتين عن طريق سفير إنجليزى دائم فى فارس وإرسال آخر إلى إنجلترا[٣٣]، وللرعايا الإنجليز فى بلاده حرية إقامة شعائرهم الدينية، والسماح لهم بحيازة الأسلحة للدفاع عن النفس، والأخطر أن المحاكم المحلية لا تختص بنظر القضايا التى تحدث بين الرعايا الإنجليز، أو بينهم وبين السكان المحليين، وللقنصل الإنجليزى وحده حق الفصل فيها عدا تلك القضايا

التى يختلف عليها وتقل عن عشرين تومانًا، وكان البند الأخير فاتحة سوء على الدول الفارسية كامتياز للدول الأجنبية فى بلاده مما أضر بها رغم أنه كان فى مركز قوة، ولم يطلب منه هذا التنازل، بل بالعكس كانت الدول الأوروبية تحاول التقرب من الشاه من أجل الحصول على المنسوجات الفارسية، ولكن أراد أن يفعل مثل الدولة العثمانية التى سبقت أن منحت الرعايا الأجانب هذه الامتيازات فى بلادها، وربما هدف الشاه من تقاربه لهذا الحد مع الإنجليز تشكيل جبهة ضد الأخطار البرتغالية فى المنطقة.

وتم إنشاء وكالة تجارية بشيراز فى يونيو ١٦١٧م، تولى رئاستها باركر، ثم وكالة تجارية أخرى بأصفهان فى أغسطس ١٦١٧م، ولقد حاول توماس باركر منذ بداية بعثة خلق تجارة الحرير الفارسى لكنه كان أقل كفاءة من سابقه بموافقة شاه فارس انفردت شركة الهند الشرقية الإنجليزية بشراء ستمائة باله من الحرير سنويًا، على أن تدفع الثمن نقدًا أو المبادلة بالبضائع الإنجليزية والهندية، وأنه لا يجوز للشركة تصديرها إلى الخارج إلا بعد سداد الثمن وقد وافق باركر عقب مشاورات مع زميله جلس هابس Gles Habbes الذى أوفدته الشركة على تلك الشروط مقابل أن تمنع إيران عن بيع حريرها للإسبان والبرتغاليين أو غيرهم من الأرمن الذين كانوا ينقلون الحرير عبر الأراضى التركية، وتقتصر التجارة على شركة الهند الشرقية الإنجليزية[٣٤]، واجهت المعاهدة معارضة تجار الأرمن لها ولكن تعهد الشاه بالتمسك بالمعاهدة مدى حياته، كما اتضح للشاه أن احتكار شركة الحر الهند لتجارة الحرير يؤدى إلى تحكمها فى سعره الأفضل أن يظل التنافس الحر، وأعلن الشاه سنة ١٦١٩م أنه سيطرح الحرير فى مزاد علنى، ويشترك كل الأطراف فيه الأرمن وشركة الهند الشرقية الإنجليزية والكل فى مزاد علنى، ولكن انسحب البرتغاليون والإنجليز خشية ارتفاع أسعار الحرير الذى حدث بالفعل فقد احتكر التجار الأرمن تجارة الحرير لمدة عام، ودفعوا أسعار أعلى من السنوات السابقة، كما سيطر الأرمن على الأقمشة الإيرانية المزركشة والسجاد الفرسى المنتوجات من فارس إلى الدول الأوروبية[٣٥] زادت شقة الخلاف بين توماس رد ومسئولى شركة الهند

الشرقية، بعد إخفاق باركر فى الحصول على احتكار تجارة الحرير، ومات باركر فى سنة ١٦١٩م فخلفه إدوارد مونكس فجاهد من أجل تعزيز فرمان الشاه وطلب ضمانات أكثر لاختيار ميناء معين على الساحل الفارسى تتوفر فيه اشتراطات الأمن والصلاحية لاستقبال السفن التجارية الضخمة، وإقامة سوق رئيسية فى شيراز، والحصول على إذن من الشاه بالسماح للإنجليز بتصدير الحرير الفارسى إلى الخارج وجزء من هذا الثمن يدفع نقدًا، والباقى مقايضة بالبضائع الإنجليزية، إذ أنه كان يفضل التجارة المنتظمة بين بلاده وبين الشركة كما أن رو أكد على ضرورة الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الإمبراطورية الإسبانية البرتغالية بخلاف المسئولين فى شركة الهند الذين كانوا يحرضون الشاه على طرد الإسبان والبرتغاليين من هرمز، وعندما تحول الشاه إلى فكرة التحالف مع الإنجليز ضد البرتغاليين، عاد وغير سياسته إزاء مطالب الشركة[٣٦] لدرجة أنه خول مونكس وكيل الشركة فى أصفهان الذهاب إلى جيلان وهى المنطقة التى تنتج الحرير، واختيار الأنواع المناسبة على أن يتم نقلها بواسطة مندوبى الشاه إلى جزيرة خرج أو أصفهان، ثم تسلم لوكالة شركة الهند الشرقية هناك وأرسلت الشركة من سورات مجموعة سفن لنقل الحرير حسب التسهيلات الجديدة إلى أوروبا وفى سنة ١٦١٩م وصل أسطول إنجليزى من خمس سفن محملة بالبضائع الهندية والأقمشة الإنجليزية ومجموعة من الهدايا[٣٧] الفاخرة إلى الشاه عباس، وبدأت المفاوضات الفارسية الإنجليزية عام ١٦٢٠م الإقامة تحالف عسكرى بين الدولتين ضد البرتغاليين، ورغبت الشركة أن تكون وريثة وحيدة للوجود البرتغالى فى المنطقة، وكان هذا أملاً كبيرًا بل توجهت كذلك بعثة بريطانية يقودها القبطان جون سايرز John saris[٣٨] من ثلاث سفن لزيارة ميناء مخا اليمن ياريز وكان حاكمها عثمانيًا يدعى «أدهر» وهو يونانى المولد، وقد رحب بالبعثة البريطانية وطلب أن ينسى أية إساءة سابقة وأصدر الوالى العثمانى فى اليمن فى ذلك الوقت ١٦١٢م تعليمات تسمح للأجانب بحرية التجارة على السواحل اليمنية مع السفن الهندية، كما سمح أيضًا بشراء كل ما يلزمهم من ميناء مخا [٣٩] وذلك بكين بناءً على رغبة العثمانيين فى تبادل المنفعة الاقتصادية مع

الأجانب ورواج الحركة التجارية فى ممتلكاتهم ثم أقاموا سنة ١٦١٨م وكالة تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية فى مخا تشرف على مصالحهم وحددت ضرائب التصدير والاستيراد بنسبة ٣٪ تدفع نقدًا أو عينًا[٤٠].

ومنذ عام ١٦٢٧م أخذ النفوذ الإنجليزى التجارى يضمحل ويحل محله النفوذ الهولندى بالتدريج فى تجارة الموانئ الفارسية وأهمها ميناء بندر عباس وبحلول عام ١٦٤٠م كانت البضائع الهولندية تغرق أسواق بندر عباس ذلك أنه فى العام نفسه استولى الهولنديون على ملقا من البرتغاليين، وبذلك احتلت هولندا مركزًا فريدًا فى التجارة مع الشرق وخاصة مع جزر الهند الشرقية، وقد رفض الهولنديون دفع الضرائب الجمركية فى بندر عباس، وقد أثر هذا كثيرًا على الإنجليز أن الشاه كان كل قد أعطاهم الحق فى تحصيل نصف جمارك الميناء، بينما رفض الهولنديون دفع هذه الرسوم للإنجليز وقد أصبح هذا مصدرًا للنزاع الدائم بين الطرفين[٤١].

انصب اهتمام الهولنديين على جزر الهند الشرقية أكثر من منطقة الخليج حيث أسسوا لهم مراكز هناك بينما اكتفوا بارتياد بعض الموانئ العربية فى الجنوب العربى وشحر ومخا وقشمة، كما أنهم لم يعتبروا أنفسهم دعاة لنشر الديانة المسيحية بخلاف البرتغاليين الذين كان هدفهم الأساسى نشر المذهب الكاثوليكى فى جميع أنحاء العالم[٤٢]، كان محور أهداف البرتغاليين من وراء توسعهم الاستعمارى فى البحار الشرقية إلى العهد العسكرى الصليبى واستغلال قوتهم الحربية فى الحصول على موارد اقتصادية، وعندما أفل نجم البرتغاليين ظهر الهولنديون والإنجليز والفرنسيون فى المحيط الهندى فى أوائل القرن السابع عشر متبعين سياسة جديدة، كانت تدور حول العناية بالتجارة فى المقام الأول، ثم تأتى القوة الحربية لحماية تلك التجارة بعد ذلك وقد تكلفت شركات تجارية مساهمة بحركة الاستعمار الهولندى والبريطانى والفرنسى فى القارة الآسيوية، وتأسست الشركتان الهولندية والإنجليزية فى عامى ١٥٩٤ - ١٦٠٠م على التوالى، وبمضى الزمن حصلت هاتان الشركتان على «حقوق الملكية» فكانت الحكومات تتنازل لها عن حق إعلان الحرب، وعقد المعاهدات مع الدول الآسيوية

أو الإفريقية التى تقع فى مناطق نفوذها، ومن ذلك سواحل البحر الأحمر والساحل الجنوبى للجزيرة العربية[٤٣].

لقد حَرَّم فيليب الثانى ملك إسبانيا فى سنة ١٥٩٤م على البرتغاليين الذين صاروا من رعاياها الاتجاه مع الهولنديين، مما جعل هؤلاء يتطلعون إلى السيطرة على إمبراطورية البرتغال الهندية التى آلت للإسبان ليحرموهم من مصدر ثروتهم. وكان قد بدأ الهولنديون نشاطهم الاستعمارى فى أواخر القرن السادس عشر، فأسسوا شركة الهند الشرقية The Dutch East India company كان يقوم بإدارتها مجلس مقره فى «أمستردام» وتشرف عليه الحكومة الهولندية[٤٤]، وقد وجهت هذا الشركة فى سنة ١٦١٤م أسطولاً إلى البحر الأحمر يقوده بترفان ابن بتوك Pieter van den Btoeke للحصول على معلومات الأزمة لتنشيط حركة التبادل التجارى فى سواحل البحر الأحمر [٤٥]، وقد استقبل الأسطول الهولندى فى عدن استقبالاً طيبًا عندما وصل إلى هذا الميناء، وقام بإبلاغ حاكم عدن العثمانى بأنه يحمل تصريحًا من الصدر الأعظم يسمح له بحرية التجارة فى جميع أجزاء السلطة العثمانية غير أن الحاكم العثمانى أجابه بأنه على احتفاظه بالعلاقات الودية بينما فان عليه أن يعرض الأمر على الوالى العثمانى فى اليمن لاستطلاع رأيه فأشير إلى الأسطول الهولندى بمغادرة عدن لشعور تجار عدن بأن الهولنديين سيشكلون خطرًا على مصالحهم، وفعلا اتجه الأسطول إلى الشحر حيث استقبل فيها وتمكن من إقامة وكالة هولندية هناك، ثم أبحر إلى البحر الأحمر ووصل إلى ميناء مخا باليمن فى سنة ١٦٢٠م.

٢ ـ التواجد الهولندى فى الخليج:

ما لبث أن ظهر منافس أوروبى جديد يرجو نفس الأهداف أى احتكار التجارة الشرقية وكان هذا المنافس هو شركة الهند الشرقية الهولندية[٤٦].

وكان الهولنديون يقومون بتصريف السلع الشرقية فى الأسواق الأوروبية بعد جلبها من برشلونة أو مدريد، وعندما زادت مضايقات السلطات الإسبانية لهؤلاء التجار بعد قيام الأسطول الإسبانى والبرتغالى عام ١٥٨٠م بأسر وإغراق السفن

الهولندية، وإقفال ميناء برشلونة أمام تجارهم، وزاد حنق الهولنديين برفع الإسبان لأسعار السلع الشرقية من حين إلى حين، فأخذ الهولنديون منذ أواخر القرن السادس عشر يبحثون عن طريق توصلهم إلى الشرق مباشرة دون الاعتماد على البرتغالية، خاصة وقد لمس الهولنديون ظهور عوامل الانهيار فى الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق(٤٧)، واعتمد الهولنديون على العملاء لمعرفة طريق التجارة الجديد الذى اكتشفه البرتغاليون والذين حافظوا على سرية الوصول إليه وذلك ليسهل هؤلاء العملاء فى الوصول إلى الهند برفقة الأساطيل(٤٨) البرتغالية، ومن أهم هذه الشخصيات العثمانية Hughen vanlins choten وكان من مقاطعة هارلم، Harlem وهى إحدى مناطق أقاليم اتحاد الأراضى المنخفضة، وانتظم فى سلك الرهبنة واتجه إلى الهند عام ١٥٨٣م على أسقف جوا، وعمل أمينًا لأسرار كبير الأساقفة، وبحكم منصبه حصل على معلومات مهمة عن الهند فيما يتعلق بالتجارة وطرق المواصلات والمنسوجات الشرقية(٤٩)، ثم عاد إلى هولندا عام ١٥٩٢م ونشر نتائج إيجابية ومعلومات بحرية عن حركة السفن والرياح التجارية والتيارات والموانئ والجزر بالخرائط والرسوم البيانية، فسر الهولنديون من تلك المعلومات القيمة التى نشرها لنشوتمة فاجتمع تسعة من تجار شمال هولندا عام ١٥٩٤م وقرروا تأسيس شركة أطلقوا عليها اسم «شركة الأراضى البعيدة فى أمستردام Company Of Fair Land وتم إرسال أسطولين تجاريين إلى جزر الهند الشرقية لاحتكار تجارة التوابل فى الشرق الأقصى، وقاد الأسطول (٥٠) كورنيلس هوتمان comelis Houtman وكان قد تردد على الشرق عدة مرات وجمع معلومات مهمة عنه، وكان قد كلف عام ١٥٩٢م بالذهاب إلى برشلونة لجمع معلومات أكثر قبل بدء تشغيل الأسطول التجارى الهولندى، وفعلاً نجح هوتمان من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية، فقد عبر طريق رأس الرجاء الصالح، وعقد اتفاقية تجارية بين هولندا وملك بانتام وفتح تجارة الهند للهولنديين، وحقق أرباحًا عظيمة بلغت أكثر من ثمانية آلاف فلورن، ولكن فقد عددًا كبيرًا من البحارة، وكان يرافقه ٢٤٩ بحارًا لم يعد معه سوى ثمانين بحارًا فضلاً عن غرق إحدى سفنه وكانت الرحلة بداية لرحلات منتظمة(٥١). خرجت رحلات فى عام ١٥٩٨، ١٦٠١م وبلغ عدد السفن

الهولندية التى قدمت إلى الشرق ٦٥ سفينة، وانتزع الهولنديون من المستعمرات البرتغالية أرخبيل إندونيسيا، وبهذا نشطت شركة الهند الشرقية الهولندية وسارت وفاقت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فأنشأت مستعمرات لها فى تلك البقاع وأنشأ التجار الهولنديون عددًا من المؤسسات التجارية فى هولندا لاستغلال ثروات تلك المستعمرات. فاجتمع عدد منهم عام ١٦٠٢م لبحث إمكانية توحيد المؤسسات التجارية الهولندية وتكوين شركة قوية لها مغالبتها فى مجال التجارة الدولية، وفى العام نفسه بتشجيع من رئيس دولة هولندا جوهان فان أولدن بار نوفلت Gohan van olden Barnovelt وللأمير ماوريس اتحدت تلك المؤسسات وأطلق عليها «شركة الهند الشرقية الهولندية»، وكان رأس المال قدره ستة ونصف مليون فلورين، وأصدر مجلس طبقات الأمة مرسومًا بحق الشركة فى احتكار تجارة الشركة ومنحها سلطات واسعة فى عقد المعاهدات والمخالفات والاتفاقات لفتح الأراضى وتأسيس القواعد لواحد وعشرين عامًا، وفعلاً عقدت الشركة أول معاهدة لها بعد المرسوم على أحد أمراء الأقطاع فى مليبار (الزاموريين) فى سنة ١٦٠٤م نصت على مساندة هولندا لهذا الأمير، ومقابل طرد البرتغاليين من إمارته وسائر البلاد الهندية[٥٢]، وبدأت مفاوضات بين الفرس والهولنديين عام ١٦١٧م» ولخشية شركة الهند الشرقية الإنجليزية من المنافسة البرتغالية أرسلت إلى مجلس الإدارة لندن سنة ١٦١٧ «إن الهولنديين يبغون عليكم ويحرجونكم فى كل مكان[٥٣]، وباضمحلال الوجود البرتغالى فى هرمز زاد اهتمام الهولنديين بمنطقة الخليج وفارس، واهتم البرتغاليون بالخليج وذلك لصعوبة الملاحة فى البحر الأحمر، وامتناع الدول الإسلامية عن السماح باقتراب السفن المسيحية من الأماكن المقدسة الإسلامية وكذلك للتحالف الإنجليزية الفارسى ضد البرتغاليين، ورغم أنهم جاءوا للخليج لمساندة البحرية الإنجليزية ضد البرتغاليين لاتفاقهم مع الإنجليز فى المذهب البروتستانتى بينما البرتغاليون من الكاثوليك، والهدف الرئيسى كان مشاركة الإنجليز فى التجارة الفارسية فاصطدمت مصالح الشركتين الإنجليزية والهولندية فى فارس، وكان الإنجليز قد تحقق لهم مركز تجارى بعد طرد البرتغاليين مع الفرس من هرمز وبعد أن وجد البرتغاليون ترحيبًا من الشاه عباس أثناء مفاوضاتهم معه، ففى

عام ١٦٢٣م أرسل الهولنديون هاربرت فيسفش Harbert visnich إلى أصفهان، فوصل والشاه منتصر على العثمانيين فى بغداد، استقبله الشاه بحفاوة كممثل لدولة أوروبية يطمع فى أن تساعده لطرد البرتغاليين من المنطقة(٥٤)، وفعلاً أصدر الشاه فرمانًا بامتيازات كبيرة للهولنديين رغم الاعتراضات الإنجليزية بل والإيرانيين فى الداخل.

ويشتمل الفرمان على الآتى:

١ - إعطاء تسهيلات تجارية للهولنديين فى البيع والشراء فى جميع أنحاء فارس دون التزام معين بشراء أى من المنتوجات الفارسية.

٢ - لا يلزمون بدفع العوائد الجمركية نقدًا.

٣ - استخدام الأوزان الخاصة بهم فى البيع والشراء.

٤ - للهولنديين الحرية المطلقة فى وكالاتهم التجارية.

٥ - لا يحق لأحد من الإيرانيين الذهاب إلى هذه الوكالات إلا بإذن مسبق من رئيسها، ولهم الحق فى استخدام القوة إذا دعت الضرورة.

٦ - تعهد الشاه بدفع كل الخسائر التى قد تلحق بالهولنديين نتيجة السرقة أو النهب على وكالاتهم فى بندر عباس.

٧ - السماح للهولنديين بإقامة شعائرهم الدينية، وبناء الكنائس والأديرة، وحيازة الأسلحة وشراء العبيد.

٨ - عدم ارتباط الهولنديين بالمحاكم المحلية.

٩ - تقديم التسهيلات الممكنة للهولنديين من توفير التوابل والمآكل والمشرب إذا دعت الضرورة.

١٠ - فى حالة اعتناق أحد الهولنديين الإسلام فللهولنديين الحق فى تعيينه خارج البلاد الفارسية ومصادرة أمواله، وإعفاء الهولنديين من الضرائب الجمركية والسابق تحصيلها منهم منذ عام ١٦٢٣م(٥٥).

رحب الشاه بقدوم الهولنديين وأكد ذلك فى رسالة منه إلى رئيس هولندا، وأنه يحق للهولنديين البيع والشراء فى جميع أنحاء فارس ولهم إنشاء وكالة تجارية فى بندر عباس، وبعث مجلس الطبقات الهولندى خطاب شكر إلى الشاه عباس على المعاهدة الفارسية الهولندية بواسطة سفير هولندى من لدى المجلس إلى البلاط الفارسى(٥٦) وأرسل الشاه سفيرًا إلى أمستردام، واختار لهذه المهمة موس بك توكيدًا لأوامر الصداقة والتعاون بين الدولتين وهو أحد المقربين لديه، ورغب الشاه من وراء ذلك عونًا عسكريًا هولنديًا ضد العثمانيين من جهة والبرتغاليين المتمركزين على السواحل العربية من جهة أخرى، خاصة بعد امتناع الإنجليز عن مساعدته فى مهاجمة المراكز البرتغالية عليه، ولكن خاب أمله؛ لأن الهولنديين كانوا يرغبون فى احتكار تجارة الحرير وتحجيم المصالح التجارية الإنجليزية فى فارس، فبدأت الخلافات الإنجليزية الهولندية تظهر منذ عام ١٦٢٣م، بعد حصول الهولنديين على تلك الامتيازات لإنشائهم لوكالة فى بندر عباس إلى جانب الوكالة الإنجليزية والعمل على إساءة سمعة هذه الوكالة أمام الإيرانيين.

ومن خطابات التنافس نجد رسالة من رئيس الوكالة الإنجليزية فى سورات Furslan إلى إدارة الشركة بلندن سنة ١٦٢٣م ذكر فيها «أن الهولنديين شعب قاس متعطش للدماء، وأنهم ارتكبوا فى منطقة أبشع الجرائم والأعمال الوحشية فقتلوا أصدقاءهم وأعداءهم على حد سواء، ثم حذر من التعامل معهم(٥٧)، ويقول سير توماس رو فى ١٦٢٤ يقول: «إنه جرب الهولنديين فى الغرب والشرق وعرف عنهم الوحشية ونكران المعروف(٥٨)، ورغم الخلاف بين الشركتين الهولندية والإنجليزية فقد تمكنا من التغلب عليها عام ١٦٢٤، ١٦٢٥م عندما انتشرت أنباء عن مغادرة أسطول عسكرى وضرب الوكالتين الإنجليزية والهولندية فى بندر عباس، فتحالفت القوتان لمنع الهجمات البرتغالية دفاعًا عن مصالحها، مع كراهية الطرفين لبعضهما(٥٩)، وعانت الشركة الإنجليزية من إجراء الهولنديين ضدها فى فارس منذ سنة ١٦٢٣م ونقصت عائدات الشركة التجارية فى بندر عباس نتيجة تقلص الاستثمارات الإنجليزية بسبب ارتفاع

أسعار الحرير بعد أن ازداد الإقبال عيه، وخاصة من الهولنديين الذين كانوا يدفعون أسعارًا عاليةً بهدف حرمان الإنجليز من هذه السلعة، وانتهز الهولنديون الفرصة عند الخلاف بين تجار الفرس وممثلى الشركة الإنجليزية بشأن أسعار المنتوجات الفارسية فيقبلون على شراء كل ما يرفض الإنجليز بسبب ارتفاع الأسعار حتى يتم كسب تجار الفرس إلى صفهم، اعتقد الشاه أنه لمصلحته ومصلحة وطنه وجود المنافسة الشديدة بين القوتين التجاريتين، ولذلك أصبحت وكالة الشركة الإنجليزية بأصفهان منذ عام ١٦٢٤م تمر بوضع سيئ، وتوقفت عن العمل حتى أنها تسلمت كتابًا من الملك جيمس الأول يتضمن تعليمات لوكيل الشركة الإنجليزية بإغلاق الوكالة إذا لم يتمكن من الحصول على امتيازات أكبر فى فارس.

وفعلا وضع الوكيل تعليمات الملك الإنجليزى أمام الشاه عباس[٦٠]، وتوقفت الشركة فى بندر عباس تقريبًا عن العمل، وكادت تغلق أبوابها لقلة الاستثمارات الإنجليزية هناك، وقد حاولت الشركة إنقاذ مصالحها ومؤسساتها التجارية فى فارس.

تولى مستر كيريدج Kerridge رئيس الوكالة فى سورات الإشراف على مصالح الشركة فى فارس بالإضافة إلى منصبه، وأعطته الشركة سلطة اتخاذ الإجراءات لحل المشاكل التى تعانى منها الشركة فى فارس، وعنده تعليمات بتصفية وكالة أصفهان إذا وجد أنها عديمة الفائدة، وعقب وصوله سنة ١٦٢٥م إلى بندر عباس قام بدراسة المنطقة وحالة التجارة الإنجليزية بها، وقرر إنهاء أعمال المؤسسات الإنجليزية، ولكن مساعديه رأوا التريث بعض الوقت حتى تصلهم تعليمات جديدة من الشركة، فقد اتهم كيريدج الهولنديين بالتآمر ضد المصالح الإنجليزية[٦١]، وذكر أنهم أساءوا لسمعه الإنجليز وشركتهم لدى الحكم الصنوبيين وشك فى أن الهولنديين يرغبون بالتعاون مع الفرس للحصول على جزيرة هرمز المهجورة ولو بالقوة إذا رفض الفرس هذه الفكرة[٦٢]، وقد دفع تصرف الهولنديون فى فارس والمؤامرات التى يحيكونها ضد الإنجليز إلى عدم التزام ممثلى الشركة فى وكالة بندر عباس بالأوامر والتعليمات الواردة من الملك

أو الشـركـة بلندن حتى لا يوقف نشـاط مـؤسـسـاتهم ويفسـحـوا المجـال أمـام الهولنديين، ولكن عمل الهولنديين على تضييق الخناق على الإنجليز حتى أنهم فى هذه الفترة امتنعوا عن دفع الضرائب الجمركية فى بندر عباس بحجة أن ٥٠٪ من العائدات الجمركية سيذهب إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية(٦٣) وعانت الشركة الإنجليزية فى عام ١٦٢٦ من النقص الشديد فى الحصول على الحرير الفارسى الخام. وفى الوقت الذى كانت فيه فارس تمر بمرحلة حرجة فى تاريخها، حيث سادت الفوضى وانعدم الاستقرار خاصة فى الشمال لتجدد الحرب بين الفرس والعثمانيين فى بغداد، وكانت الحرب بقيادة الشاه عباس ضد العثمانيين، فانتهز الوكيل الهولندى فرصة غياب الشاه عن أصفهان، وتمكن من الحصول على صفقة تجارية فى إبريل ١٦٢٦ من وكيل الشاه عباس مولايم بك Mullaims لمدة ثلاث سنوات، على أن يثبت أسعار الحرير الخام والكميات التى يحصل الهولنديون عليها، وبلغت الصفقة أربعين ألف تومان (١,٦٠٠,٦٠٠ فلورين) ووقع هذا العقد عن الفرس دلبن بك وعن هولندا وكيل الشركة، وعندما وصلت معلومات الصفقة لمندوب شركة الهند الشرقية رغم عدم وجود الشاه ومحاولة الطرفين التكتم عن الاتفاق، فقد حصل الإنجليز على نسخة من العقد السرى، فأرسل المندوبون الإنجليز تقريرًا إلى وكالة سورات، وتعهدوا بأنهم سيعملون على تحقيق صفقة مماثلة، وأنهم سيرسلون أحد ممثلى الشركة إلى ميدان القتال لمقابلة الشاه إلا أنهم لم يوفقوا فى ذلك، ونستنتج من ذلك أن سياسة التحالفات الإنجليزية قد أصابها الضعف بعد أن استنفدت أغراضها بتحرير هرمز(٦٤) وانتقال المراكز التجارية إلى بندر عباس، ومن جهة أخرى سرعة نمو النفوذ الاقتصادى الهولندى فى الخليج وفارس.

فشل روبرت شيرلى فى مهمته التى كلفه بها الشاه عباس فى إسبانيا بسبب طرد البرتغاليين من هرمز بأيدى الفرس والإنجليز ضمن تحالف مشترك، غادر إسبانيا إلى إنجلترا ولكن تمكن من مقابلة الملك جيمس الأول فى ١٣ إبريل ١٦٢٥م زاعمًا أنه سفير من قبل الشاه إلى البلاط الإنجليزى وعرض على الملك افتراضية مهمة:

١ ـ أن تتعهد بريطانيا بأن تقوم سفنها المرابطة فى الخليج بمسَاندة الإيرانيين ضد البرتغاليين والإسبان، وتتحمل الحكومة الإيرانية جميع نفقات تلك السفن.

تتعهد الحكومة الإيرانية بتقديم ٢٥ ألف جندى للعمل على السفن الإنجليزية الحربية، ورفض مجلس إدارة شركة الهند الشرقية الإنجليزية هذين الاقتراحين متشككا فى صحة كلام روبرت شيرلى، ووصل سفير إيرانى آخر إلى لندن هو نجدى بك الذى وصل فى فبراير ١٦٢٦م، واتهم روبرت شيرلى بالكذب، فأرسل الملك جيمس سفيرًا إنجليزيًا إلى شاه فارس وهو (ودمور كوفن) برفقة السفيرين شيرلى ونجدى[٦٥]، وانتهز الملك الإنجليزى جيمس الأول فرصة انتصار الشاه عباس على الدولة العثمانية فى بغداد، أوفد سفيره لتهنئة الشاه على الانتصار ومحاولة الحصول على امتيازات تجارية فى فارس ووصل السفير الإنجليزى إلى أصفهان فى ٢١ مايو ١٦٢٨م، واجتمع مع الشاه وهنأه بالنصر وعرض عليه رغبات الملك لزيادة التبادل التجارى وإقامة علاقات طيبة بين البلدين، والتحقيق فى سفارة شيرلى[٦٦] ووعد الشاه بإرسال عشرة آلاف باله من الحرير مقابل المنسوجات الإنجليزية وبالنسبة للسفير شيرلى، وذكر أنه يعمل سفيرًا من قبله إلى ملك إنجلترا، وبعد مغادرة السفير الإنجليزى، أظهر الشاه غضبه على شيرلى، ولم يحقق الشاه وعده للسفير الإنجليزى بسبب الكراهية الشديدة التى كان يكنها محمد على بك الوزير الفارس لروبرت شيرلى بعده بأيام ويلحق و بهما الشاه عباس[٦٧] وتعتبر هوننـدا من أكثر انفوى إسهامًا هى تصفية الوجود البرتغالى فى البحار الشرقية فى نهاية القرن السادس عشر وبالتالى كانت أكثر هذه القوى استفادة من هذه التصفية. فضلاً عن تحقيقهم لأرباح كبيرة عن طريق احتكارهم لتجارة التوابل، كما كانت السفن الهولندية تجوب الموانئ العربية والصينية بحرية تامة.

هاجم الأسطول الهولندى عام ١٦٤٥م جزيرة قشمة وأعلن سيادته عليها[٦٨] اضطر الشاه إلى الاعتراف بهذه السيادة، أكثر من ذلك فإنهم تعقبوا الإنجليز إلى البصرة، وأمر شكواه على القضاء على التجارة الإنجليزية مما أدى إلى قيام الحرب بين الدولتين عام ١٦٥٢م إلى عام ١٦٦٧م[٦٩].

٣ـ علاقة الفرنسيين بمنطقة الخليج والمحيط الهندى:

تأخر التواجد الفرنسى فى الخليج عن الإنجليز والهولنديين، وارتكز معظم النشاط على الجانب الفارسى فى أول الأمر، وذلك عندما اتصل شيرلى مبعوث الشاه للدول الأوروبية المسيحية بفرنسا كدولة من هذه الدول فى عصر هنرى الرابع سنة ١٥٩٩م إلا أنه لم يكن لهذه البعثة نتائج مهمة، ولم تتم علاقات تجارية بين البلدين لانشغال فرنسا بالحروب الأوروبية والدينية، ولكن وصلت بعثة تبشيرية فرنسية إلى جزيرة مدغشقر للتصدير فى ١٥٨٩م حاولت نشر المذهب الكاثوليكى فى الجزيرة، ولكنها لم تحقق هدفها إلا فى أواخر القرن التاسع عشر، فقد كانت مدغشقر وكرا للقراصنة الأوروبية من جميع الجنسيات والمذاهب، وإن كان النشاط التصديرى اقترح بالأهداف السياسية فقد غرس هؤلاء المبشرون نواة الاستعمار الفرنسى فى منطقة المحيط الهندى حتى أصبحت مدغشقر أهم المستعمرات الفرنسية فى القرن التاسع عشر، بينما كانت جزيرة موريشيس أول بلد فرنسى(٧٠)، تحول إلى مستعمرة قبل مدغشقر، وأصبحت مركز انطلاق الفرنسيين للخليج والممتلكات العمانية فى شرق إفريقيا، مما جعل فرنسا تفكر فى إنشاء إمبراطورية شرقية لها فى أول القرن السابع عشر فكانت سنة ١٦٠١ بداية لإرسالهم عددًا من السفن التجارية حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند، وقد كان ترددهم بسبب القوة العسكرية التى كان يتمتع بها أباطرة المغول حكام شبه القارة الهندية فى تلك الفترة(٧١)، كما أن فرنسا كانت أقل اهتمامًا بالشئون البحرية والتجارية من الهولنديين والإنجليز حتى ظهرت شخصية كوبلن الذى تولى البحرية والتجارة فى عهد لويس الرابع عشر، مما أعطى هذه الرغبة دفعة قوية مكنت الفرنسيين من احتلال مكانة لائقة فى مجال التنافس الهائل بين القوى البحرية على التوسع الاستعمارى والتجارى فى الشرق، وتأسست شركة فرنسية للمتاجرة مع الهند الشرقية الفرنسية Company niedes indes وحصلوا على حق مزاولة التجارة فى المدن الشرقية سنة ١٦٦٤م، ولكن الاتصالات الفرنسية الفارسية بدأت عند تأسيس شركة الهند الشرقية الفرنسية، ومعظم القساوسة والمبشرين بأصفهان من الفرنسيين وقد أرسلت أول

بعثة رسمية فرنسية إلى إيران سنة ١٦٢٦م برياسة ريشليو لو فى دى ها Des Hayes بارون دوكورنين Courmenin لعقد معاهدة بين الفرس والفرنسيين لحماية المسيحيين الموجودين فى إيران وكان يقصد بذلك (الأرمن) وإقامة علاقات تجارية بين فارس وفرنسا، فوصلت إلى القسطنطينية دون التمكن من الوصول إلى إيران بسبب الحروب الدائرة بينهما (الدولة العثمانية وفارس) وبعد ثلاث سنوات من البعثة الأولى أرسل دى هاى مرة ثانية إلى إيران عن طريق موسكو عبر بحر البلطيق والبحر الأسود، إلا أنها اختفت نهائيًا، وفى سنة ١٦٢٧م خرجت بعثة تبشيرية فرنسية إلى فارس برئاسة باسيفيك دون Pacifiguede Proviss وكان يحمل كتابًا من لويس الثالث عشر إلى الشاه عباس الأول، وقد حظيت هذه البعثة بحفاوة بالغة من قبل الشاه نفسه عندما اجتمع بها فى أصفهان سنة ١٦٢٨م. وقد سمح الشاه للبعثة التبشيرية بإقامة مراكز تنصيرية فى كل من أصفهان وبغداد التى كانت تابعة للدولة الصفوية فى ذلك الوقت. وعلى كل حال لعب الفرنسيون دورًا بارزًا فى التنصير فى فارس لوجود عدد كبير من الرهبان الفرنسيين وإن كانوا قد خدموا بلادهم فى هذا المجال فإننا لا نجد للفرنسيين نشاطًا تجاريًا فى ذلك الوقت وربما يكون ذلك راجعًا لعدة أسباب منها

١ ـ فشل بعثة دى هاى.

٢ ـ الأوضاع الداخلية فى فرنسا.

٣ ـ الحروب الفرنسية الإسبانية التى لم تسمح للفرنسيين بالتوسع فيما وراء البحار.

٤ ـ لابد من توفر محطات فى الطرق المؤدية إلى الهند وفى مقدمتها منطقة الخليج.

٥ ـ التأخر فى تأسيس شركة الهند الشرقية الفرنسية(٧٢).

٤ ـ الصراع الدولى فى الخليج والمحيط الهندى:

تردد ممثلو شركة الهند الشرقية الإنجليزية بعد وفاة الشاه عباس فى الاختيار فهل يطالبون بتثبيت امتيازاتهم أم يتجنبوا ذلك حتى لا يحصل

الهـولنديون على مـثل ذلك، وكـانت العـادة أنه فى حـالة وفـاة الشـاه تصـبح الفـرامـانات التى أصدرهـا غيـر سارية المفعـول ما لم يعتـمدهـا خلفه، وحـاول الهولنديون إبعاد الإنجليز عن منطقة الخليج، والعمل على تجديد الامتيازات التى منحوها من الشاه الراحل. واتبعوا أساليب غير الرشاوى للمسئولين الإيرانيين؛ وقدموا أسعارًا عالية للمنتجات الفارسية وبيع بضائعهم للفرس بأقل من سعر التكلفة، بل تمكنوا من إغراء عدد من المسئولين الإنجليز بالمال لإيقاف المصالح الإنجليزية فى فارس. وفى الوقت نفسه كانوا يتعقبون الإنجليز فى محاولاتهم تجديد امتيازاتهم وبذلك تتضح شدة المنافسة بين الشركتين الهولندية والإنجليزية، وفعلاً جدد الشاه صفى للشركة الإنجليزية جميع العقود السابقة فى سنة ١٦٣٢م(٧٣)، وقد صادف الإنجليز من التجار الفرس والأرمن حفاظًا على معاملاتهم التجارية فى الهند وحلب.

اعتمدت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى التعامل مع فارس وبعثة بلاد الشرق على الصادرات الإنجليزية من الأقمشة وغيرها أو العملات الفضية والذهبية، فالمنسوجات كانت تصل فى وقت متأخر للأسواق الشرقية فكانت تتعرض للتلف إذا خزنت للموسم التالى، فضلاً عن جلب كميات تفوق طاقة الاستهلاك المحلى للمقايضة بالحرير، أما الهولنديون فإنهم اتبعوا أسلوبًا آخر يعتمد على التبادل التجارى فى الشرق على المنسوجات الشرقية نفسها، لا على الصادرات الأوروبية أو العملات النقدية وللشركة عدة سفن تتجول فى المستعمرات الهولندية فى الشرق لتقايض البضائع الشرقية بمثيلاتها فى مكان آخر، دون جلب الأموال النقدية من هولندا مباشرة. فتقايض البضائع المستوردة من جوجرات بالفلفل، والذهب على ساحل سومطرة، والريالات فى شبه الجزيرة العربية، وتقايض الفضة والفلفل فى بنتام بالبضائع الصينية، والحصول على الفضة من اليابان باستبدالها بالبضائع الصينية، واحتفظ الهولنديون بفائض كبير من الأموال النقدية(٧٤)، وذلك سهل لهم إنشاء مؤسسات تجارية فى الشرق، بينما عانت الشركة الإنجليزية من نقص السيولة النقدية وزيادة رأس مال شركة الهند الشركة الهولندية سنة ١٦٢٨م، بينما واجهت الشركة الإنجليزية أخطارًا

من أهمها الخلاف بين أعضاء مجلس الإدارة والبلاط الإنجليزى، واتهام الشركة للبلاط بإهمال مصالح الشركة، واتجاه بعض وكلاء الشركة فى فارس للاتجار لحسابه الخاص مع عدم الوفاء للشركة أو الإخلاص لها، فبعد وفاة جبسون وكيل الشركة الإنجليزية فى أصفهان سنة ١٦٣٧م، اكتشف أنه كان أقرض الشركة الهولندية دون علم شركته مبلغ ١٢ ألف جنيه إسترلينى، وحصلت الشركة الهولندية فى عهد الشاه على امتيازات واسعة النطاق فاحتكر معظم تجارة الحرير الفارسى وتصديره للخارج حتى إن الشاه نفسه قد فقد السيطرة على التحكم فى تجارة هذه السلعة[٧٥]، ولم يعد بإمكانه إصدار تعليمات بهذا الشأن إلا بموافقة الهولنديين، وأصر الهولنديون على منح التجار الألمان حق شراء جزء من الحرير الفارسى ولم يصدر الشاه مرسومًا سنة ١٦٣٦م، فقد اتفق على أن تدفع الشركة الهولندية أسعارًا عالية للحرير على أن يمنع بيعه للأمم الأخرى، واستغل الهولنديون فرص ضعف الشاه صفى خليفة الشاه عباس حيث خفضه الهولنديون أسعار الحرير بعد اختفاء التجار الآخرين[٧٦]، وكان مركز الوكالة الهولندية متفوقًا على الوكالة الإنجليزية فى بندر عباس، وأوضح ماند لسون Mandelson الذى زار الميناء سنة ١٦٣٨م، أن أحوال الشركة الهولندية كانت أحسن من زميلتها الإنجليزية، وكان الهولنديون يزودون فارس بالتوابل والفلفل وجوز الهند والقرنفل وغيرها.

أما الشركة الإنجليزية فكانت تقايض المنسوجات الإنجليزية والفولاذ والأقمشة الهندية والقطن بالحرير الفارسى[٧٧]، وأصبح الهولنديون سادة الموقف فى بندر عباس عام ١٦٣٩م، ١٦٤٠م، وكانت أكثر السفن فى الميناء يرفرف عليها العلم الهولندى، مما جعل إدارة الشركة الإنجليزية فى لندن تتصل بممثلى الشركة فى أصفهان تأمرهم بإنهاء أعمال الشركة فى بندر عباس، ولكن المسئولين فى الوكالة صمموا على الاستمرار فى العمل رغبة فى تحدى الشركة الهولندية.

زاد الهولنديون من صادراتهم سنة ١٦٤١م عندما شعروا بضعف مركز الشركة الإنجليزية وذلك من المنسوجات الفارسية بأسعار واستيرادهم للبضائع الأوروبية

والهندية وتوزيعها فى الأسواق الفارسية بأسعار رخيصة، وتقل عند سعر التكلفة الحقيقية أملاً فى القضاء على منافسة الإنجليز نهائيًا(٧٨)، وسيطر الهولنديون على التجارة الفارسية وأصبح لهم التفوق التجارى على تجار الأرمن والفرس والإنجليز على السواء، كما أرسلوا سنة ١٦٤٤م فى عهد الشاه عباس الثانى، وكيلاً جديدًا للشركة وهو كارل كتسفان Karl Constan إلى أصفهان للتفاوض مع الشاه الجديد للحصول على امتيازات جديدة بخصوص تجارة الحرير، وعندما رفض الشاه استخدم الهولنديون الوسائل السلمية لإقناع الشاه، ثم استخدموا القوة العسكرية لإرغام الشاه، فجاءوا بأسطول ضخم إلى مياه الخليج بقيادة نيكلان بلاك N. Black بهدف إشاعة الهلع والذعر فى نفوس الشاه والفرس، وهاجم الأسطول جزيرة قشمة ومحاولة ضرب حصار على فارس(٧٩) وهاجموا جزيرة هرمز، وطلب الهولنديون من الفرس مبلغ ٤٩٠٠ تومان كتعويض عن مبالغ دفعوها ضرائب جمركية، بحجة أنها كانت ضرائب غير مشروعة، ورغم فقد الأسطول لكثير من جنوده لارتفاع درجة الحرارة وقلة المياه العذبة، إلا أنهم نجحوا فى تخويف الشاه عباس الثانى، فطلب القائد الهولندى لفتح حوار معه وحصل الهولنديون على مطالبهم فى حق تصدير الحرير الفارسى إلى الخارج بأسعار تناسبهم، وبالكميات والأنواع التى يريدونها دون دفع الضرائب الجمركية، وأثناء الصراع بين الهولنديين والفرس أرسل مسئولو الشركة الإنجليزية فى بندر عباس كل ما يملكون إلى البصرة بعيدًا عن الأخطار(٨٠). ومنذ عام ١٦٣٥م بدأت شركة الهند الشرقية الإنجليزية المتاجرة على البصرة، حيث أرسل سفينة صغيرة لفتح الطريق إلى هذه الولاية العثمانية ثم وجهت الشركة إلى البصرة اهتمامًا أكبر لوقوعها بعيدًا عن مركز نشاط الهولنديين، ثم أرسل اثنين من رجالها فى وكالة بندر عباس عام ١٦٤٣م للتفاوض مع باشا البصرة وتم الحصول على إذن بإنزال ما معها من بضائع إنجليزية ومزاولة التجارة فى البصرة ثم أقامت مركزًا تجاريًا فى الميناء نفسه(٨١)، ثم وصلت للميناء سفينة إنجليزية أخرى محملة بالبضائع والفلفل والتوابل فى ١٦ ديسمبر ١٦٤٥ وصرفت السلع الأوروبية وبلغت الأرباح للشركة خمسة آلاف روبية ولم يتم

بيع الفلفل والتوابل لانخفاض الأسعار فى ذلك الوقت هناك، وأخطرت المقيمة فى البصرة مركز الشركة بسورات بذلك أملاً فى أن ترتفع الأسعار بعد خروج السفينة من الميناء[٨٢]، وتتبع الهولنديون الإنجليز فى فارس والبصرة ففى أواخر عام ١٦٤٥م، أرسلوا أسطولاً حربيًا من ثمانى سفن، هاجم الوكالة الإنجليزية هناك ودمرها، ولم ينجح الإنجليز فى صد هجوم الهولنديين[٨٣]، وبينما تماسكت شركة الهند الهولندية لم توفق شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى الاحتفاظ باحتكار تجارة الشرق طيلة الوقت، وأصدر مجلس إدارة شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى لندن تعليمات إلى الوكالة الإنجليزية فى سورات سنة ١٦٣٥ بتصدير كميات كبيرة من الفلفل والبهارات إلى منطقة الخليج فى الوقت الذى قرروا فيه شراء الحرير من الشاه، والحصول عليه من الأسواق الحرة، ولكن استطاع جبسون الحصول على صفقة تجارية كبيرة من الشاه صفى صفقة تقدر بألف حمل من الحرير خلال ثلاث سنوات بشرط أن تدفع الشركة ثلث الثمن نقدًا، والباقى بالمقايضة بالخوخ والصوف وغيره من المعادن وأرسل الملك الإنجليزى شاركز خطابًا إلى الشاه سنة ١٦٣٨م ليثبت للشاه حسن العلاقات بينهما، واستجاب الشاه لطلب الملك بدفع الديون للإنجليز فى فارس وإبرام معاهدة تجارية[٨٤]، وحصل الإنجليز فى أصفهان على عدة صفقات تجارية عام ١٦٤٣، ١٦٤٤م لكن قلة مكاناتهم الاستثمارية ولم يحصلوا على كميات كبيرة من الحرير الخام، وأصبحت رغبتهم الملحة تنحصر فى تصريف المخزون لديهم من البضائع وتحصيل الديون، إلا أن الوكلاء المحليين أصروا على البقاء الإنجليزى فظلت وكالتهم تقوم بنشاط تجارى بسيط حتى سنة ١٦٥١، ثم عجزت عن عقد أية صفقات تجارية لتفوق الهولنديين فضلاً عن مشاكل كبيرة واجهتهم فى المنطقة، منها السماح لاتحاد تجار كورتن سنة ١٦٣٥م بممارسة التجارة فى مناطق احتكار شركة الهند الشرقية الإنجليزية وتشكل الاتحاد من تجار أكثر دراسة بالتجارة الشرقية، وكان أكثرهم قد عمل فى خدمة الشركة[٨٥]، ورغم معارضة الشركة لتشغيل هذا الاتحاد فلم يستجب لها أحد فى لندن فقاطعت الاتحاد واشتد الخلاف حتى تم النصر للاتحاد وأخرج الشركة من جمبرون فى فارس ١٦٤٠م، وكانت أول زيارة لإحدى سفن الاتحاد لميناء بندر عباس سنة

١٦٤٥م وحصل الاتحاد على إذن من الفرس بتفريغ الحمولة من البضائع والسماح بشراء الحرير الفارسى امتنعت من دفع الجمارك، وأدت المنافسة سنة ١٦٤٩م بين الاتحاد والشركة الشرقية الإنجليزية بتسمية شركة الاتحاد (بشركة اتحاد تجار أساوا)[٨٦]، نجح الهولنديون فى إظهار قوتهم وانتزاع امتيازات تجارية ضخمة من الشاه الفارسى بالقوة، وسيطروا على مياه الخليج سنة ١٦٤٩م ووصل نفوذهم إلى السواحل الهندية وسهل لهم ذلك بعد خروج البرتغاليين من مسقط سنة ١٦٥٠م وصلت ١١ سفينة هولندية محملة بالبضائع تم تصريفها فى الأسواق فكانت ضربة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية[٨٧]، وأقر بالتفوق الهولندى فى الخليج تجاريًا الرحالة تافيرنيه Tavernier وازداد عدد السفن الهولندية إلى ١٥ سفينة سنة ١٦٥٣م، بلغت قيمة حمولتها ١٢٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى[٨٨]، بل ازداد نفوذ الهولنديين لدرجة أنهم حاولوا بسط سيطرتهم على فارس بالقوة المسلحة، وعلى التفوق التجارى للشركة الهولندية، والقيام بعمليات تجارية كبيرة، إلا أن الشاه كان يميل إلى شركة الهند الشرقية فكانت المصادمات بين الشركة الهولندية والإنجليزية حيث إن امتيازات الأخيرة كانت أكثر بكثير من امتيازات الشركة الهولندية، وربما يرجع مركز الإنجليز المتفوق لدى الإيرانيين منذ تحالفهم لتحرير هرمز، فضلاً عن ظهور الهولنديين كأنهم يرغبون فى استخدام القوة المسلحة فى سبيل تحقيق أهدافهم التجارية فى فارس، فضلاً عن تعاطف الشاه مع الملكية الإنجليزية عكس الرئاسة الهولندية[٨٩]، أرسلت الشركة الهولندية مبعوثًا خالصًا إلى أصفهان، للحصول على الامتيازات التى منحت للشركة الشرقية الإنجليزية، وسلكوا طريق دفع الرشاوى للمقربين من الشاه وطلبوا وقف التعامل مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلا أنهم فشلوا فى ذلك[٩٠]، وبعد قيام الحرب فى أوروبا بين إنجلترا وهولندا فى عهد كرمويل زاد التنافس بين الدولتين وكانت الحرب نتيجة لصدور قانون الملاحة البحرية Navigation سنة ١٦٥١م.

وبموجبه حرم على التجار الإنجليز استخدام السفن التجارية لنقل البضائع ويقصد به منع الهولنديين من نقل البضائع الإنجليزية، كما كان الإنجليز ينظرون

إلى المناطق المنخفضة على أنها وكر للفرسان الخطرين، فضلاً عن العداوة والغيرة بين الدولتين، والتنافس التجارى بينهما قبل نشوب الحرب بينهما حيث هاجم الهولنديون المقر الإنجليزى فى البصرة سنة ١٦٤٥م، وقد اندلعت الحرب بين البلدين عام ١٦٥٣م فى أوروبا من أجل كسب النفوذ فى المستعمرات الشرقية والتزام البرتغاليين المياه ووقع الطرفان معاهدة ١٦٥٤م وأعطيت شركة الهند الشرقية الإنجليزية مبلغ ٨٥ ألف جنيه إسترلينى تعويضًا عن خسائرها فى الحـــرب[٩١]، واستمرت التجارة فى منطقة الخليج دون توقف أثناء الحرب، وترددت سفن الدولتين على بندر عباس، دون اشتباك مباشر بينهما ولكن وضع الهولنديون خطة لضرب السفن الإنجليزية التى تأتى إلى الخليج، ونشبت معركة خارج بندر عباس سنة ١٦٥٤م بين خمس سفن هولندية وبعض السفن الإنجليزية، وتم إغراق سفينة إنجليزية وأسرت سفينة أخرى ببحارتها[٩٢]، وتم للهولنديين السيطرة التامة على مياه الخليج بعد سلسلة من الحروب والمناوشات مما أرهب شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى كل مياه الخليج، فأصدرت توجيهات لوكالة البصرة لترك الميناء والانتقال لميناء آخر أكثر أمنًا، وفكرت الوكالة الإنجليزية فى نقل الحرير الفارسى إلى أصفهان ثم إلى أوروبا عبر تركيا وطلبوا المدد من مركز الشركة بسورات من الجند والسفن لمواجهة القوة الهولندية[٩٣]، واستمر الخلاف بين التجار الإنجليز العاملين لحسابهم الخاص والشركة الإنجليزية، بينما يحرز الهولنديون الانتصارات، ولكن حصلت شركة كرمويل من شركة الهند الشرقية على قروض مالية كما حدث عام ١٦٥٥، إذ حصلت الحكومة على خمسين ألف جنيه إسترلينى من الشركة، ولكن سنة ١٦٥٧ تراجعت الحكومة، وأنكر البرلمان الإنجليزى شرعية مزاولة اتحاد كورفن للتجارة[٩٤]، ثم ساد الفتور بين الشركة الإنجليزية وفارس ووضح عدم الاستقرار خاصة بعد انتشار شائعات بأن الشركة على وشك وقف جميع أعمالها فى فارس، بل وإغلاق مؤسساتها التجارية، فطلبت فارس فرمانات الامتيازات التى سبق منحها للشركة، فجمدت الشركة كل نشاطها منذ ١٦٥٦ ولمدة عام ولكن ظل الإنجليز فى وكالتهم فى بندر عباس حيث كان لهم نصيب من العوائد الجمركية،

وتريث المسئولون بالشركة ربما تتبدل الأحوال ولا يتركون الميدان خاليًا للهولنديين، وتحقيق الأمل بعد أن انتهت مشكلة التجار المغامرين، ثم أجرى الإنجليز مفاوضات مع دولة البحارية العمانية فى مسقط للسماح لهم بإنشاء قاعدة عسكرية فى ميناء مسقط، يرابط فيه مائة جندى ليكون رادعًا ضد فارس، إلا أنهم أجلبهما برفض الطلب من العمانيين ولم تأت المفاوضات مع مسقط بنتيجة(٩٥)، ثم أصدر مجلس إدارة الشركة فى لندن سنة ١٦٦٠م تعليمات إلى وكالة سورات الإنجليزية بضرب حصار اقتصادى على ميناء بندر عباس والساحل الفارسى بأكمله، إلا أن المسئولين لم يتمكنوا من تنفيذ التعليمات لقلة الإمكانات العسكرية فى مياه الخليج، وكانت حاجتهم ماسة إلى ثمانى سفن حربية حديثة لهذه المغامرة، بينما لا تملك الشركة سوى سفينتين حربيتين فى مياه الخليج، وينقصها البحارة المدربون والمعدات الحربية، فضلاً عن حاجة الشركة إلى قواعد عسكرية ثانية على السواحل. شعر مجلس الإدارة بلندن بعدم جدوى القوة المسلحة فأمر بتقليل عدد موظفى الشركة فى فارس وفرًا للمصاريف، وأوصى المجلس وكالة سورات سنة ١٦٦٣م، بأن تسحب كل الموظفين من بندر عباس وتخويلها سلطة إغلاق وكالة بندر عباس متى حتمت الضرورة ذلك، ولكن رأت الوكالة ذلك وتمسكت بالميناء لتحصيل نصيبها من الجمارك وحتى تظل منافستهم للهولنديين(٩٦).

الخاتمة

انهيار الإمبراطورية البرتغالية الإسبانية فى الخليج

كانت هناك أسباب عديدة أدت إلى انهيار التواجد البرتغالى فى الشرق عامة والخليج خاصة وذلك بعد صراع كبير بين البرتغاليين والقوى الدولية وصراع أكبر بينهم وبين القوى المحلية فى المنطقة ومن أهم تلك الأسباب:

١ ـ قسوة ووحشية الوجود البرتغالى ضد أهالى أية منطقة حلوا بها، فكانت شعوب تلك المستعمرات تكن الكراهية لهم واستطاعوا فى كثير من الأحيان أن يتحدوا ضد عدو واحد.

٢ ـ إن الشعب البرتغالى نفسه كان لا يتجاوز عدده مليون نسمة فى القرن السادس عشر، فى وقت حققت فيه انتصارات قوية وأفردت سيطرتها على البحار بقوة الأسطول والعتاد الحربى.

٣ ـ اتساع مناطق النفوذ فى الشرق حيث تحقق للبرتغاليين تبعية مستعمرات مترامية الأطراف كثيرة العدد فى المحيط الهندى والخليج العربى والبحر الأحمر حيث كانت شعوب آسيا وإفريقيا فاعتمد البرتغاليون على الرقيق والجنود المرتزقة(٩٧).

٤ ـ ظهور قوى أجنبية منافسة على مستوى عال من القوة البحرية والحربية وعلى أحدث طراز من السفن المقاتلة فى ذلك الوقت.

٥ ـ إن عامل الوقت لعب دوره فى انهيار الإمبراطورية فى الشرق(٩٨)، حيث سبقت الدول الأوروبية الأخرى فى تأسيس قوتها فى وقت لم تتقدم فيه وسائل المواصلات فكانت الاتصالات بين لشبونة والمستعمرات تتطلب وقتاً

طويلاً لإرسال الأخبار وتلقى الأوامر من لشبونة، بل كثيرًا ما كانت تصل الأوامر والتعليمات بعد تغير الأحداث.

٦ ـ ومن أسباب الانهيار اتباع ملوك البرتغال أسلوب احتكار السلع فلم تنشأ طبقة برجوازية برتغالية[٩٩]، تمارس تجارة الشرق، كما حدث بعد ذلك فى إنجلترا وهولندا اللتين اعتمدتا على عمل القطاع الخاص على يد تجار تلك الطبقة ولصالحها دون التغير بمصالح أخرى.

٧ ـ فقدت البرتغال نفسها استقلالها القومى عام ١٥٨٠م حيث آلت إلى العرش الأسبانى[١٠٠]، وكانت إسبانيا فى ذلك الوقت تركز مصالحها على العالم الجديد، بينما يهتم البرتغاليون بمراكزهم فى الشرق، وعلى الرغم من أن الإسبان قد تركوا للبرتغاليين اختيار نائب الملك فى الشرق إلا أن إسبانيا نفسها كانت تعانى من مشكلة قلة القوى البشرية مع سعة المستعمرات الممتدة إلى أمريكا الجنوبية والوسطى مما أدى إلى إهمال المصالح البرتغالية فى الشرق.

٨ ـ حرمان سكان منطقة الخليج من ممارسة نشاطهم التجارى بحرمانهم من الملاحة فى الخليج إلا بإذن ونادرًا ما كان يسمح بذلك حتى فى المياه الإقليمية خشية تواجد قوى بحرية منافسة لهم فى المنطقة وضيقوا الخناق على السكان المحليين بسوء المعاملة واستخدامهم بالسخرة فى الخدمة فى مصالحهم الخاصة سواء على البر أو البحر، ومنع السكان المحليين من مزاولة التجارة مصدر رزقهم مما هيأ السكان للترحيب بأية قوى أجنبية منافسة تملك الإمكانات الكافية للقضاء على احتكار البرتغاليين والقضاء عليهم.

٩ ـ تكررت المصادمات بين القادة البرتغاليين والتمرد بين الجنود سواء على السفن البرتغالية أو فى الحصون لمصالح شخصية، وتفشى الفساد وسادت الرشوة بين المسئولين الحكوميين من البرتغاليين، كما انجلى الانضباط العسكرى فى الأساطيل البرتغالية[١٠١].

١٠ - عدم وجود عمق داخلى للمستعمرات البرتغالية على سواحل إفريقيا وساحل عمان وشبه جزيرة الهند حتى بنكال[١٠٢]، وكانت تكتفى بالمركز فى الموانئ البحرية أو فى الجزر، فكان لابد من اليقظة الدائمة وسهر الحاميات والدوريات والمراقبة من الأبراج العالية على طول الشواطئ الساحلية.

١١ - انتهاز القوى المحلية كما لاحظنا من قيام الفرس بالاتفاق مع الإنجليز وهى قوة معادية للبرتغاليين من أجل مصالح شركة الهند الشرقية لتحرير هرمز واستعداد شاه فارس عباس الأول للعمل على تحرير سواحل بلاده من البرتغاليين وامتداد بصره لتحرير مسقط وإن كان لم يتم تحرير الساحل العمانى إلا على يد أبنائه العمانيين، وكانت هرمز من أعظم المعاقل البرتغالية فى الشرق بعد جوا فى الهند مما يؤشر بداية الانهيار. للإمبراطورية البرتغالية فى الشرق.

١٢ - إن سياسة البرتغاليين فى مجملها كانت ترمى إلى القهر العسكرى ثم استغلال الشعوب المقهورة فى استخراج المواد الخام، كما أنهم اعتمدوا اعتمادًا كليًا على الرقيق والمرتزقة من الهنود وهو أمر لم يكن فى صالحهم نظرًا لارتباط هؤلاء بأهالى البلاد الأصليين بطبيعة الحال مما جعلهم لا يتفانون فى الحفاظ على المصالح البرتغالية[١٠٣].

لقد بدأت البرتغال تفقد احتكارها لتجارة الشرق[١٠٤]، فى فترة دخولها فى حكم إسبانيا، فقد نجحت هولندا فى سنة ١٥٩٥م فى إرسال أول حملة بحرية لها حول رأس الرجاء الصالح، كما نجح الإنجليز من قبل وذلك بقيادة أحد مواطنيها ويدعى «هوتمان» الذى عمل بعض الوقت على ظهر السفن البرتغالية ونجحت المنافسة الإنجليزية والهولندية للبرتغاليين فى تجارة الشرق، فقد كانت سياسة فيليب الثانى هى التى دفعت القوى الأوروبية للتعجيل باتخاذ هذه الخطوة «أى المنافسة» وإنهاء الاحتكار البرتغالى لتجارة الشرق، حيث كان فيليب الثانى قد أغلق أسواق لشبونة فى وجه تجار الأراضى الوطئة فى سنة ١٥٩٤م، فنجحوا فى الوصول إلى الشرق، وجاءت الضربة التالية للنفوذ البرتغالى فى

الشرق من الإنجليز الذين نجحوا فى الوصول إلى الهند بحرًا عن طريق رأس الرجاء الصالح ونجحوا سنة ١٦٠٣م فى تأسيس العلاقات التجارية وإقامة محطات ومراكز تجارية فى «سومطرة» و«جاوة» وغيرها من جزر الهند الشرقية[١٠٥]، فقد بدأ النفوذ البرتغالى يأخذ طريقه إلى الضعف والانهيار منذ المنافسة الإنجليزية والهولندية.

وقد أدى التنافس بين هذه الدول إلى الصدام المسلحة فيما بينهما فى كثير من الأحيان، وقد حاول البرتغاليون دون جدوى صد المنافسين الجدد من المراكز التجارية الشرقية، كما عمل الآخرون على طرد البرتغاليين من البحار الشرقية لاستثمار تجارة الشرق، وفى منتصف القرن السابع عشر تقريبًا فقدت البرتغال معظم أجزاء إمبراطوريتها الساحلية الواسعة الممتدة على سواحل إفريقيا وآسيا، ولم يبق لها سوى بعض الجيوب الصغيرة على الساحل الإفريقى أو فى «جوا» و«دامون» و«ديون» فى الهند[١٠٦]، وقد رحب بالقادمين الجدد أمراء وأهالى الشرق وذلك نكاية فى البرتغاليين، وقد نجح القادمون الجدد فى ذلك إلى حد بعيد كما رأينا، وأهم من ذلك أن عمان انتهزت فرصة انشغال الدول الأوروبية بصراعاتها فى شبه القارة الهندية لتتهيأ لإنشاء إمبراطورية لها[١٠٧].

تم بحمد الله

الهوامش

(١) بانيكار، المرجع السابق ص ٥٥ وانظر. Dannis: op. cit., p. 161

(٢) Haklay, Richard Voyages and Discoverief p. 91.

(٣) انظر على فلسفى، المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٣٦.

(٤) Haklay, op. cit. p. 93.

(٥) Ibid pp. 120 - 124.

(٦) لوريمر، المرجع السابق، جـ ١ ص ٢٣.

(٧) خالد المعزى المحامى، الخليج العربى فى ماضيه وحاضره ص ٢٨.

(٨) بانيكار، المرجع السابق، ص ٦٠.

(٩) Epstien. M.: farly History of the levant company. pp. 6, 52.

(١٠) Hoskins, H.L.: British Routes to India, p.p. b 3.

(١١) Journal of Indian History, II, op. cit., p. 167.

(١٢) انظر. Fisher, H. AL: op. cit., p 602

(١٣، ١٤) Wilson op. cit., p. 128.

(١٥) Ibid, p. 29.

(١٦) I.O.R.L. P & w/20/c227 Bombay Regard in the East india company connction with the persian Guld command ent of Shah of Abbasking of Rrsia in 1599 proeured proloaloly by siranlhohy sherley.

(١٧) لوريمر، المرجع السابق، ص ١٨ وانظر. Wilson op. Cit., p. 136

(١٨) عبد الأمير محمد أمين (دكتور) التنافس بين الشركات التجارية الإنجليزية ـ مجلة آداب بغداد، عدد / ٦ عام ١٩٦٣م.

(١٩، ٢٠) نصر الله فلسفى، المرجع السابق، جـ ٢ ص ٢٥٥.

(٢١) Ibid. from sir thanes Roe to the East India company, by parsia 14 th. February, 1615 - 137.

(٢٢) Wilson. op. cit. p. 137.

LO.R. L/P & S 120 / C227 From Richard steel to the east India company and (٢٣)
of 1616.

Ibid., sir the mas roe the factors atsurat 1616. (٢٤)

وانظر صلاح العقاد (دكتور) المرجع السابق ص ٢١.

Ibid. 14 the February 1615-16-2. (٢٥)

(٢٦) محسن عزيزى ((دكتور) مختصرى السياسة دو لنهاى أروپائى در خليج فارس، ص ٧.

(٢٧) نصر الله فلسفى، المرجع السابق، جـ ٤، ص ٢٥٦.

Wilson. op. cit. p. 138. (٢٨)

Letters receved by East Indis company Vol. IV. p.p. 139-195. (٢٩)

(٣٠) محسن عزيزى (دكتور) المرجع السابق ص٦

(٣١) خانيابا بهانى خليج فارسى در زمان صنويه ص ٩٨ سنمار خليج فارس.

(٣٢) انظر على فلسفى المرجع السابق جـ٤ ص ٢٥٧

(٣٣) لوريمر، المرجع السابق جـ١، ص ٣٦

(٣٤) بديع جمعة (دكتور) المرجع السابق ص ٤١٥.

(٣٥) ٢ - بديع جمعة(دكتور) المرجع السابق ص ٢٩٦ وانظر على فلسفى المرجع السابق ج٤ ص ٣٦٦.

(٣٦) لوريمر، المرجع السابق حـ١ ص ٤٠.

(٣٧) صلاح العقاد (دكتور) المرجع السابق ص ٥٩.

Hanter, F. M. op. Cit., p. 164. (٣٨)

Play Frir, R.L: op. cit., p. 108 (٣٩)

Play Frir, R.L: op. cit., p. 110. (٤٠)

Ibid, p. 162. (٤١)

(٤٢) جاكلين بيرمين، اكتشاف جزيرة العرب، ص ٧٣.

(٤٣) صلاح العقاد (دكتور) التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٢٧.

Fisher, H.A.L: Ibid, p. 599. (٤٤)

Hunter, F.M.: op. cit., p. 164. (٤٥)

(٤٦) فاروق عثمان أباظة (دكتور) السياسة البريطانية فى البحر الأحمر ص٩٥.

(٤٧) وانظر Wilson op. cit.,

G.R.Boxer. The Dutch seaborne Empire, 1660-1800. p. 22. (٤٨)

(٤٩) بانيطار، المرجع السابق ص ٥٦

C.R.Boxer, op. cit. p. 23. (٥٠)

(٥١) بانيكار، المرجع السابق، ص ٥٦.

(٥٢) المرجع السابق ص ٥٦.

(٥٣) Wilson: op. cit. p. 161.

(٥٤) Sykes vol. 2 op. cit. p. 195.

(٥٥) خانيا بابيانى (دكتور) خليج فارس درزمان صنوى رسمنار خليج فارس حـ ص ٩٧.

(٥٦) Calendar of state papers east Indies 1622-1624.

(٥٧) Calendar of state papers east Indies 1622-1624.

(٥٨) Wilson: op. cit. p. 160.

(٥٩) محمود على الدواد (دكتور) العلاقات البرتغالية مع الخليج العربى ص١٦

(٦٠) لوريمر، جـ١ ص ٥٢.

(٦١) ١ ـ لوريمر، دليل الخليج حـ١ ص٥٤ ـ ٥٥.

(٦٢) Wilson. op. Cit., p. 161.

(٦٣) I.O.R. L/P & S/20/C227. consultion of the Agent thomas keeridg and council at gombroon, January to February, 10, 1625. p. 28.

(٦٤) Steensgaard, op. cit. p. 380.

(٦٥) بديع جمعة (دكتور) أحمد الخولى، المرجع السابق ص ٤٠٩.

(٦٦) Celander of state papers, east, Linda company 1625-1629. p. 573.

(٦٧) Ibid. p. 732.

(٦٨) لوريمر، المرجع السابق، حـ١ ص ٦٥.

(٦٩) Saldanha, selactions from state papers p. 445.

(٧٠) لارنى لاكهارت (دكتور انقراض سلسلة صفوية، ترجمة إسماعيل دولتشاهى (دكتور) ص ٤٩٨، طهران، ١٩٦٥.

(٧١) سيد رجب الحراز (دكتور) عصر النهضة، دراسة فى الحضارات الأوروبية الحديثة، ص ٣٧٥، القاهرة ١٩٧٤.

(٧٢) Kirk George E. Ashort History of the east London 1966

وانظر لارنى لوكهارت، المرجع السابق، ص ٥٠٤.

(٧٣) Wilson, op. Cit,. 162.

(٧٤) Sreengead, op. cit. p. 407

(٧٥) جهانكير قائمقامى،يكصد وپنجاه سند تاريخى، ص ٣٩ خطاب من الشاه صفى إلى رئيس دولة هولندا.

(٧٦) عباس إقبال المرجع السابق ص ٩٥.

(٧٧) Wilson, op. cit. p. 163.

(٧٨) لوريمر، المرجع السابق، ص ٧٠.

(٧٩) خانيا بابيانى (دكتور)، خليج فارس دزمان صفون وسيمنار خليج فارس حـ ٢ ص ١٠١.

(٨٠) محسن عزيز، المرجع السابق، ص: ١١، محمود على الدواد العلاقات الهولندية مع الخليج ص ٥ وانظر. Bruce's Annals, Vol.11. pp. 397-413.

(٨١) Bruce's Annals, Vol.1. p.409.

(٨٢) L.O.R. L/P & S/20/C227. Letter from Bassra, thomas Cogan to the chief in council at surat, P. 88.

(٨٣) Bruce's Annals, Vol.1. p. 413.

(٨٤) L.O.R. L/P & S/20/ C227. Agent and Iafhan to Council at the court 21St. /2th

(٨٥) Ibid Vol I,p. 397

(٨٦) خانيا بابيانى (دكتور) المرجع السابق ص ١٠١.

(٨٧) المرجع السابق، نفس المكان.

(٨٨) محسن عزيزى (دكتور)، المرجع السابق ص ١١، وانظر Ibid. VOL. I pp. 453

(٨٩) لوريمر - المرجع السابق حـ١، ص ١١٤.

(٩٠) خانيا بابيانى (دكتور) المرجع السابق ص ١٠١.

(٩١) Wilson. op. cit., p. 163، وانظر لوريمر، المرجع السابق حـ ١ ص ٧١٩.

(٩٢) محمود على الدواد (دكتور)، الصراخات الهولندية مع الخليج العربى، ص ٩.

(٩٣) I.O.R. L/P & S/20/C227. Mattew Andre wes and Joun L. ambton to Council of Sarat, 24 th. oot. 1661.

(٩٤) Bruce's Annals, Vol.1. p. 524.

(٩٥) Ibid. Fcl. I. P. 549.

(٩٦) I.O.R. L/p & s/20/c227 Commission and instruction to richerd Graddook, Surat 3 rd. Maroh 1764.

(٩٧) صلاح العقاد (دكتور)، جمال زكريا قاسم (دكتور)، زنجبار ص ٣٥، ص ١٠٧.

(٩٨) Niels steengeard, op. Cit. P. 253.

(٩٩) صلاح العقاد (دكتور)، التيارات السياسية المرجع السابق ص ٢١، انظر قوله: «إن القوى المتنافسة كانت أكثر إدراكًا للمصالح التجارية».

(١٠٠) محمود على الدواد (دكتور)، العلاقات البرتغالية على الخليج العربى ص ٧.

(١٠١) المرجع السابق ص ٧.

(١٠٢) جمال زكريا قاسم (دكتور) الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ص ١٠٧.

(١٠٣) فاروق عثمان أباظة رسالة دكتوراه عدن والرئاسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ - ١٩١٨ ص٤٢.

(١٠٤) بانيكار، ل.م: آسيا والسيطرة الغربية تعريب عبد العزيز توفيق جاويد، ومراجعة أحمد حاكى، ص٦٦، وانظر رايه فى كيفية تحطيم الاحتكار التجارى البرتغالى للشرق ص ١٩١.

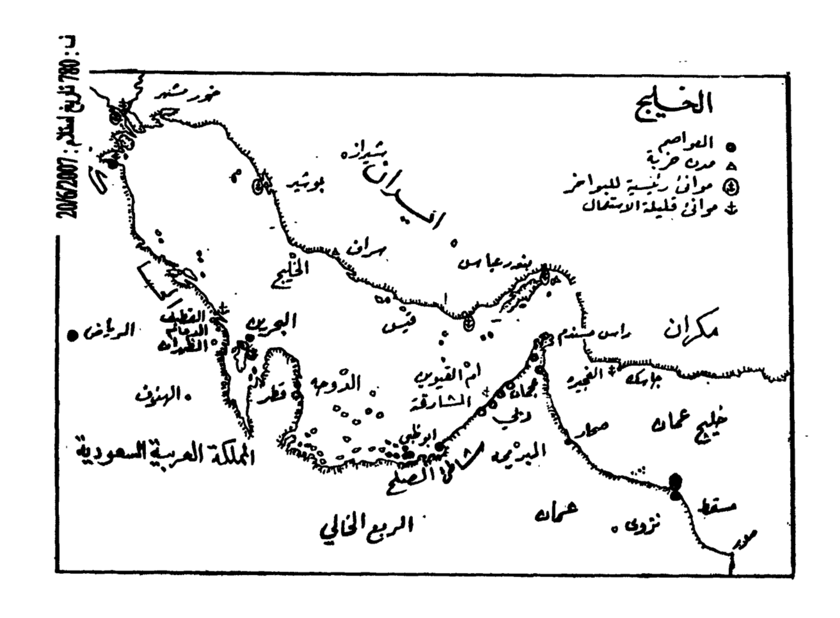
(١٠٥) Stephens, H.M. portugal. PP. 290-291 Report on the old Report on the old Records of the India office, second reprint, London, 1891-P. 205.

وانظر : Sir George Birdwood

(١٠٦) Ibid: P. 179

(١٠٧) رويرت جيران لاند - ترجم محمد أمين البر على - عمان منذ ١٨٥٦ سيرًا ومصيرًا ص ٥١.

الفهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org

E - mail : info @egyptianbook.org

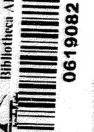


يتعرض كتاب علاقات الدول الأوروبية بمنطقة الخليج فــى الفترة من ١٥٨٠م إلى عام ١٦٤٠ م للصراع الأوروبى فى بدايته للسيطرة على البحار الشرقية وخاصة بمنطقة الخليج العربى، وتنوعت فى الكتاب المصادر العلمية بلغات عدة،ليتم إخراجه على أكمل وجه خاصة بعد نجاح البرتغاليين فى الوصول بحراً إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح واحتكار التجارة الشرقية وعلى وجه الخصوص التوابل المستخدمة فى حفظ اللحوم وصناعة الخمور ..... إلخ

وقد واجهت أساطيل تلك الدول الأوروبية بعضها فى المياه الشرقية من أجل موطئ قدم فى الخليج .

وقد صدر للمؤلف كتاب بعنوان (مصر وحركة الجامعة الإسلامية) عن الهيئة المصرية العامة للكتاب و نال التقدير من أساتذة التاريخ فى سيمنار كلية البنات جامعة عين شمس للعلوم والآداب ذلك فور صدوره فى صيف عام ١٩٨٤ م .





الهيئة المصرية

٥,٥٠ جنيه

ISBN# 9774195590
6 221149 000216